رواية

بنت أفندينا



محمد جلال

بنت أفندينا

رواية

الجزء الأول والثاني

محمد جلال

المؤلف

الروائي الكبير محمد جلال من أهم الروائيين المصريين والعرب في جيل ما بعد نجيب محفوظ.. حفر لنفسه طريقا مميزا يتسم بالتنوع والتجديد في الشكل الروائي واللغوي.

فالواقعية في رواياته تحمل أنفاسا من الشعر وتقترب في أحيان كثيرة من التعبيرية، كما تتوسل بالتوظيف الذكي للرمز إلي إفساح دلالات العمل وإثرائها دونما إغراق.

وبنت أفندينا.. الرواية رقم ٢٠ في مسيرة الكاتب الروائي التي بدأت في الستينيات.. وتعتبر إضافة حقيقية وأصيلة في بناء محمد جلال الروائي الذي بناه طوبة طوبة بعشقه للحارة المصرية..

الفهرس

الجزء الأول

الفصل الأول

وانطلق الرصاص عليه..

قالها سمير عبد الكريم لرامي كما لو كان يحكي عن بطل من أبطال السير الشعبية.. توقع رامي أن يسمع من سمير: وأصيب .. ولكنه سمعه يقول في زهو كما لو أن الرصاص انطلق عليه:

ولم تهتز له شعرة

قال رامي مندهشا:

- لم يمت؟!

قال سمير وقد تملكه الحماس:

- وخطب فيهم قائلا: فليقتلوني فقد وضعت فيكم الكرامة..

قال رامي:

والناس كانوا بلا كرامة..

وازداد سمير حماسا – بعد أن سمع هذه العبارة- وراح يقلد عبد الناصر وهو يخطب في جمـوع النـاس وهو يقول :

- فليقتلوني .. فقد أنبت في الوطن الحرية..

قال رامي غير مصدق ما يسمعه:

لا .. لا يمكن أن يقول هذا..

وقال ساخرا:

مصر عرفت الحرية قبل أن يولد..

أراد سمير أن يحتج عليه لأنه يسخر من البطل الذي هزه بموقفه الشجاع.. فلم يجد ما يفعله سـوى أن يقف .. ويتجه إلى ركن الشاي الذي على بعد خطـوات من جلستهما في حديقة السراي ليسمع أم كلثـوم التـي كانت تغني أغنية: يوم نجاتكم في المنشية.. فقـد كـان صوتها منطلقا من الراديو الصغير الذي تحملـه زينـب هانم في يدها لتتابع أخبار الثورة التي تتلاحق وتركتـه مفتوحا لترد على التليفون في حجـرة المكتـب بالـدور الأرضي .. ومد يده ليرفع صوت أم كلثوم ليكـون رده عليه.. ولكنه وجد يد رامي أسرع منه لتخرس الأغنية .. أراد سمير أن يعاقب صديقه على ما فعله بتركه وذهابه وحده إلى الكلية لتلقي المحاضرات.. ولكـن نفسـه لـم تطاوعه فجلس تحت تكعيبة العنـب وأعطـاه ظهـره.. أبصر رامي يجلس أمامه وهو يقول كما لو كان يحـدث نفسه:

- تغني أم كلثوم له بعد أن منعوها مـن الغنـاء لأنها غنت لفاروق..

وقال ساخرا:

- ينبغي أن يمنعونا من الذهاب إلى الجامعة لأننا ونحن تلاميذ في مدرسة المبتديان الابتدائية ذهبنـا إلـى قصر عابدين.. ووقفنا في الميدان وغنينا للملك في يـوم زواجه من الملكة ناريمان!

وضحك.. غاظت سمير ضحكة رامي فلم يستطع أن يكتم غيظه .. فأوشك أن يصرخ في وجهه قـائلا: لا تسطح الأمور .. ولكنه قال بنبرة وشـت بشـيء مـن غيظه:

- أنت لا تقرأ الصحف..

قال رامي في استهزاء:

- وأنت تقرأ الصحف.. أخبرني يا " أبو العريف"

قال سمير في شيء من الزهو.. سلم له صـديقه بأنه يعرف أكثر منه:

- اتصل عبد الناصر شخصيا بأم كلثوم بعـد أن عرف بقرار المنع واعتذر لها وطلب منها أن تغني.

- تغني له أغنية " يوم نجاتكم في المنشية" .. ما الفارق بين عبد الناصر وفاروق؟

صمت سمير . قال بصمته. لن أرد عليك.. ولكنه سمعه يقول : منشية.. أية منشية؟!

فهم سمير أن رامي لا يعرف المنشية فهو ابـن ذوات.. فأسرع يقول ليبين له جهله:

- في الإسكندرية يا أستاذ .. كان يخطـب فـي الجماهير في ميدان المنشية..

وبعد أن قال سمير هذا.. أحس من تعبير وجـه رامي بأنه سيقول : تمثيلية كما يردد بعض النـاس فـي مجالسهم.. فهم لا يتصورون أن الرصاص يطلق عليـه ولا ينهار ويخطب بعبارات منتقاة دون أن تكون تمثيلية

معدة من قبل.. فوجد نفسه ينفعل كما لو أنه ردد ما يقوله بعض الناس:

- سأوضح لك الأمر..

-وضح يا حضرة محامي الثورة..

- جمال عبد الناصر كان على علاقة بـالإخوان قبل الثورة.. وعندما تولى الحكم رفض وصايتهم فقرروا اغتياله..

- ومن أين عرفت هذا يا حدق؟

قال في شيء من الزهو:

- أنا صحفي يا ابني .. أعـرف الأخبـار مـن مصادرها..

قفز إلى رأس رامي ما كتبه صحفي في إحـدى الصحف من أن الباشا والده انتحر هربا مـن محاكمتـه لأنه متهم بالخيانة.. فانفعل قائلا:

- كذب .. كذب..

فوجئ سمير بانفعاله واتهامه بالكذب فأوشـك أن يقول له: أصبحت لا تطاق.. ولكنه قال:

- تطلب مني أن أحكي لك تفاصيل ما جرى في الإسكندرية .. وعندما أحكي لك تنفعل وتتهمني بالكذب!!

تأثر رامي بكلام سمير.. لا يحتمل غضب صديق عمره..فهم أنه يقصده بعبارة " كذب.. كذب" .. يوضـح له الأمر.. يخبره بأنه يقصد الذين يحاولون تشويه تاريخ أبيه الناصح لحساب الثورة.. ولكنه لا يشعر برغبة فـي الحديث عن مأساة أبيه – الآن – لكيلا يفسد عليه يومه.. ولكن سمير صديق أيام عمره سيخاصـمه .. وهـو لا يقوى على خصامه في هذه الأيام لم يبـق لـه سـواه..

انقطع الكلام بينه وبين أمه.. وحبة البركة. حبه الوحيد.. هجرته .. واسودت الحياة في عينيه.. وجثم الناس فـوق صدره وصاروا جحيمه.. ويهرب من جحيمه إلى نفسه.. ونفسه حزينة إلى حد الموت. وهو أعجز من أن يطلـق رصاصة في قلبه كما فعل أبوه.. يرتعب عندما يتصور ماذا سيحدث لأمه عندما تدخل حجرته وتجده غارقا فـي دمه كما حدث له عندما دخل حجرة أبيه ووجده منتحرا.. لا يمكن أن يكون سببا في ألم أمه الفادح.. يحبها إلى حد العشق.. وسمير هو الذي يجعله يترك فراشه في الصباح ويغسل وجهه ويرتدي ملابسه ويركب عربته ويـذهب إلى الكلية لن يتركه يذهب ويعاني حتى يصالحه.. يطيب خاطره بطريقته الخاصة.. فراح يقطف الزهور..

احتوى سمير صديقه بنظراته وهو يقطف الزهور يعلم أنه لا يحتمل غضبه.. سيصـالحه بباقـة زهـور كعادته. أخذ عن أبيه رقته.. تذكر عندما لم يحتمل الباشا عزلته التي فرضها على نفسه. كان محبا للحياة.. يمضي ليله في صحبة الملك فاروق في سهراته .. ونهاره مـع

الناس .. يؤمن بأنه برغم أن محمد علي قد بنى مصـر الحديثة.. والخديو إسماعيل باشا أراد أن يجعل من مصر قطعة من أوروبا إلا أن أسرة محمد علـي قـد جـاءت بالاحتلال الإنجليزي الذي أذل المصريين.. كان ينبغـي أن يتولى عمر مكرم الزعيم الشعبي حكم مصر بدلا من محمد علي التركي القادم من قوله. حدث خطأ تاريخي.. ينبغي تصحيحه.. ويحكم المصريون أنفسهم بأنفسهم.. لذا لم يتأخر عن مد السيد الشرقاوي أحـد رجـال الثـورة بأخبار الملك.. وصار عينهم على فاروق .. لذا كان أول المهنئين عندما قامت الثورة.. وتوقع أن يقربـوه لهـم.. ولكنه فوجئ باستبعاده بحجة أنه كان على علاقة بالملك فغضب وأراد أن يسافر إلى شقيقه عزيز باشا الذي يقيم في لندن احتجاجا عليهم. . ولكنهم منعوه مـن السـفر.. وعبر عن ضيقه بهذا التصرف في جلساته فـي نـادي الجزيرة ووصل ما يردده إليهم.. فغضبوا عليه واعتبروه من الثورة المضادة وحاصرته جواسيسهم ووجـد مـن الأفضل ألا يذهب إلى نادي الجزيـرة.. وعنـدما كـان

يسافر إلى العزبة .. كانوا يقولون إنه يحرض الفلاحـين على الثورة فامتنع عن السفر.. ولم يجد رغبة في نفسـه في أن يذهب إلى حي الحسين يتجول في دروبه ويحتسي الشاي الأخضر في مقهى الفيشاوي .. عزل نفسـه فـي سراي المنيرة.. ورفض أن يستقبل أحدا .. وانتهى بـه الأمر إلى أنه حبس نفسه في حجـرة نومـه.. وصـار يضيق بحديث زوجته زينب هانم التي يحبها عن العزبة والسراي . . الوحيد الذي كان ينصت إلى حديثـه هـو رامي ابنه الوحيد.. قال له في الليل إنه يتمنى أن يجـد الشجاعة في نفسه ليطلق الرصاص في وجوههم . وفي الصباح وجده غارقا فـي دمـه فـي فراشـه.. أطلـق الرصاص على نفسه.. انتحر شوكت باشا.

ارتعش قلب سمير بالخوف على صديق عمـره وهو يراه مقبلا عليه حاملا زهوره.. فقال في نبرة قـد وشت بخوفه:

إلى متى؟!

فهم رامي ما يعنيه سمير بسؤاله فهز كتفه يقول:

لا شأن لك بي..

احتد سمير قائلا:

أنا صديقك الذي يحبك..

وضح على رامي التأثر وكأن تأثر رامي شـجع سمير ليقول له:

لا يمكن أن يقاطع الواحد منا أخبار الوطن.

احتقن وجه رامي بالألم:

الوطن الذي يسبب كل هذه الآلام ليس وطنا..

فهم سمير من كلامه أنه يقول : الوطن قاتـل.. فقال وهو يشير إلى الزهور التي يحملها في يده:

الوطن الذي يعطيك الزهور

قال في حدة:

من قاتل أبي؟!:

ارتبك سمير . طالما ناقشه فـي أمـر انتحـار الباشا . قال له إن حساسيته المفرطة هي سبب انتحاره.. ولكنه كان يصر على تحميل الثورة مسـئولية انتحـار أبيه.. شعر رامي بأنه انتصر على صديقه فقال:

من الذي جعل أبي عاشق الحياة يطلق الرصاص على نفسه؟!

صمت سمير كأنه انتهز فرصة صمته فقال:

أنت عيبك أنك ملكي أكثر من الملك نفسه.

وكاد أن يقول له " وتخون صديق عمرك.. ولكنه لم يقو على أن يقولها.

فهم سمير أنه قال : تخونني مع الثورة فقال منزعجا:

أنا ؟!

تنكر أنني وزعت الشربات على الناس في الشارع يوم الثورة وكأن سمير قال له : أنا خائف عليك.. فقال:

لا تخف .. لن أقتل نفسي كأبي.. لا أملك شجاعته.. كان فارسا. . فاز في كل سباق اشترك فيه..

وقال ضاحكا:

حاول أن يجعل مني فارسا ولكنه فشل..

تضايق من نفسه لأنه قال على أبيه أنه فشل فقال:

أنا الفاشل يا سمير..

وألقى بباقة الزهور إليه واندفع صاعدا إلى جناحه في الدور العلوي.

خاف سمير عليه من وحدته فأسرع خلفه..

٢

كانت زينب هانم تجلس في حجرة المكتب تنتظر جرس التليفون لترد عليه. قال لها من حدثها من مجلس الثورة منذ قليل: انتظري مكالمة.. ولم يمهلها محدثها حتى تعرف منه .. من هو الذي سيحدثها؟.. لا بد أنه هو.. تنبه إلى أنهم قد أخطئوا في حقها.. جعلوا زوجها الباشا ينتحر وهو الوطني الذي ساعدهم حتى طردوا الملك.. لا بد أنه سيعتذر لها.. لن تقبل اعتذاره إلا إذا عوضها في ابنها رامي. سيتخرج رامي في كلية الحقوق بعد شهور.. يعطيه منصبا مرموقا.. من حق ابنها أن يصبح وزيرا عوضا عن أبيه. تغمض عينيها وتفتحهما وتجد رامي وزيرا.. وتصبح زينب هانم أم الوزير.. تريد الآن "أبو خطوة" الرجل المبروك المكشوف عنه الحجاب .. تعرف منه ماذا ينتظر ابنها؟ تشعر بشيء غامض نحو ابنها.. تستيقظ في الليل وتدخل عليه في فراشه وتطمئن عليه وهو نائم.. تخاف عليه من نسمة

الهواء.. لن تترك الرجل المبروك يقول كلاما غامضا.. لا يمكن أن يطلبوها من مجلس الثورة ويقولـون لهـا: انتظري مكالمة دون أن تكون مكالمة من الرئيس ويريد أن يخبرها بخبر سار . ويشيع خبر المكالمة في نـادي الجزيرة. ولا شيء يخفى في هـذه البلـد .. وتسـترد عرشها الذي ظن الكثيرون أنه قد سقط برحيل فاروق .. وتصبح سيدة مجتمع الثورة كما كانت في الماضي سيدة مجتمع أيام فاروق.. وتقيم الحفلات وتصـبح حفلاتهـا حديث الصحف.. فكرت بسرعة.. تدعوه عندما يكلمهـا ليحضر حفلتها الأولى التي تقيمها في السـراي احتفـالا بانتصار الثورة.. ولن يرفض دعوتها ولكن هل سـتقف وحدها تستقبله.. لا بد أن يكـون هنـاك رجـل يقـف بجوارها .. ابنها رامي ما زال صغيرا.. تتزوج.. تحتاج إلى زوج شاب.. ما زالت صغيرة.. شوكت باشا تزوجها وهي طفلة.. وهذا الزوج الشاب يكون على علاقة طيبة بالثورة.. وله مستقبل ليأخذ بيدها لتكون نجمة المجتمع.. سمعت خطوات خارج الحجرة .. لا بـد أنـه الرجـل

المبروك .. يشعر بحاجتها له فيجيء على الفور.. قفزت من مقعدها.. تسأله هل ستعثر على هذا الزوج؟ فتحـت باب حجرة المكتب.. أبصرت سمير عبد الكـريم يقـف أمامها وهو يحمل باقة الزهور.. فرحت.. كما لو أنهـا عثرت على الشاب الذي تريد أن تتزوجه فقالت:

سمير..

وكما لو أن ذكر اسمه – في هذه اللحظة – جعله يشعر بأنها قد وجدته في مكان لا ينبغي أن تجـده فيـه وهو يحمل زهورا في يده فارتبك وقال يبرر وجـوده – في هذه اللحظة – أمام باب المكتب وهـي فـي داخلـه حاملا باقة زهور:

رامي تركني وصعد..

ولم تجعله يكمل عبارته ويقول: بعد أن أعطـاني باقة زهور ليصالحني .. تذكرت أنها لا ينبغي ألا تترك حجرة المكتب التي بها التليفون لأنها تنتظر مكالمة هامة

فدخلت الحجرة مسرعة وهو لم ينه حديثه فـدخل فـي أثرها لينهي حديثه. فهمت أنه دخل وراءها ليناولها باقة الزهور. تناولت باقة الزهور منه في سعادة وهي تقول.

الربيع يجعل شيئا في نفس الإنسان يتفتح..

وهمست في صوت حالم : الإنسان – في بعض الأحيان – يصبح زهرة!!

وبعد أن قالت هذه الكلمات شعرت برغبة في أن يحدثها عن الحب فقد سمعته يحدث ابنتها جلنـار التـي يحبها عن الحب بطريقة أعجبتها فقالت تدفعه إلى حديث الحب:

أليس أنت قائل هذه الكلمات؟ بالرغم أنها تعـرف أنها من بنات أفكارها.

قال سمير بنصف ضحكة:

الربيع يجيء لي بمرض الحساسية!!

لا تريد أن تهبط من لحظتهـا .. تجاهلـت مـا قال .. وتناولت باقة الزهور من يده ووضعتها في اهتمام في الفازة العزيزة عليها فقد كانت آخر هدية للباشا لهـا في عيد ميلادها. خشي سمير أن يرى رامـي الزهـور التي أعطاها له في فازة أمه فيتضـايق.. فوجـد نفسـه يقول : رامي هو الذي اختار هذه الزهور وكما لو أنـه بقوله هذا لن يتضايق رامي إذا رأى زهوره فـي فـازة أمه!

لم تسمع زينب هانم ما قاله سمير.. فقد انشـغلت عنه في الرد على التليفون. توقعت أن يكون الـرئيس.. تحدثه.. ويعرف سمير أنها ما زالت مهمة بالرغم مـن رحيل فاروق .. فوجئت بمن تقول لها : بقالة النجاح..

ألقت بالسماعة من يدها بعصبية وهي تقول:

أشعر بالاختناق..

وفتحت الباب وهي تقول:

الأماكن المغلقة تختفي يا سمير

وخرجت إلى الحديقة.. وقد وجـدت أنـه مـن الأفضل أن يطلبوها من مجلس الثـورة..ولا يجـدونها تنتظر بجوار التليفون ليعرفوا أنها ليست المـرأة التـي تجلس بجوار التليفون تنتظر لمجرد أن أحدا قال لهـا : انتظري مكالمة شعرت كما لو أنها قـد عـادت شـابة وشعرها الذي أطالته يتطاير حولها..

وهواء الربيع يداعبها تصورت – في لحظـة – وسمير يمشي بجوارهـا كمـا لـو أن حبيبهـا يمشـي بجوارها.. تريد أن تغمض عينيها على لحظتها ولا يطير طائر حبها من بين أصابعها.. وفجأة سمعت سمير يقول:

رامي يا طنط..

وكما لو أن كلمـة " طـنط" أصـابت طائرهـا المحلق.. أحيانا يقول لها كلمة " طنط" .. ولكـن – فـي

هذه المرة – يقولها ليذكرها بأنها أم صديق.. فغضبت.. وقالت كما لو كانت تدافع عن حقها في الزواج من شاب:

لا تذكرني برامي!!

نبهتها الدهشة التي علت وجه سمير بأنها أخطأت في حق ابنها فأسرعت تقول:

ماذا أفعل ؟! رامي لا يريد أن يكمل دراسته في الحقوق ويقول لي: ما جدوى دراسة القانون فـي زمـن ضربوا فيه " أبو القانون" السنهوري باشا فـي مجلـس الدولة؟!

وتنبهت بعد أن قالت هذا أنها تذكر شـيئا قـديما يعرفه سمير، طالما تحدثت معه بشأنه.. فقالت وكأنهـا تذكرت:

ويريد أن يتزوج من ابنة الطباخ..

ابتسم سمير وهو يقول:

حبة البركة..

كما لو أن ابتسامة ذكرتها بأنه يشجعه على الزواج منها فقالت في انفعال:

سليل الباشوات يتزوج من فتاة أصلها وضيع .. وأنت تشجعه!!

تضايق من تفكيرها الطبقي.. فقال يدافع عن حرية صديقه في اختيار زوجته فقال:

الحب ..

تضايقت منه. يذكر الحب وهو يتحدث عن هذه الصعلوكة وعندما أرادت أن يحدثها عن الحب الذي فجره في داخلها الربيع يقول لها : الربيع يجيء له بمرض الحساسية فقالت في حدة:

هذا لعب عيال وليس حبا.

أراد أن ينهي الحوار فقد خشي أن تغضب منـه ولا تزوجه جلنار ابنتها التي يحبها فقال :

على كل حال طردتِها..

قالت بسرعة:

وسأطرد أباها أن لم يمنعها مـن المجـيء إلـى السراي.

يعرف أنها لا تستطيع أن تستغني عن طباخهـا العجوز والد بركة فهي لا تحب أن تأكل إلا مـن يديـه فقال في شيء من الدهشة:

تستغنين عن طباخ الباشا..

قالت في نبرة كشفت عن عنفها:

أنا بلا قلب في أمر زواج رامي..

دفعته عبارتها ليصمت. وكما لو أن صمته أغراها على أن تقول :

جده الأكبر لاظوغلي باشا..

تذكر أن رامي قال له بعد أن رددت أمامه هذه العبارة أكثر من مرة : لا تأخذ كلام أمي عن أسرتنا كله محمل الجد.. خيالها في تفخيم عائلتنا جامح!..

ابتسم .. اغتاظت من ابتسامته..قالت في شيء من الانفعال:

رامي سليل الباشوات..

وطاف في رأسه المحاضرة التي أعطتها للخدم .. بعد أن قامت الثورة وسمعت أحدهم يتحدث عن رامي دون أن يذكر الباشا الصغير، وقالت لهم:

سراي المنيرة لا تعترف بالانقلاب العسـكري .. صاحب الجلالة الملك فاروق المعظم ما زال في قصـر عابدين .. لم يغادر البلاد!!

وعلق رامي على ما قالته زينب هانم ساخرا:

أمي أعلنت الاستقلال.. فضحك

لم تسمع زينب هانم ضحكته .. فـلا يمكـن أن يضحك سمير عبد الكريم عندما تقـول رامـي سـليل الباشوات فقالت كما لو أن ضحكته لا علاقة له بما قالت:

سأزوجه من ابنة أحد رجال الثـورة.. حـدثتني الأميرة عن جمالها.. وطلبـت منهـا أن تحضـر لـي صورة!..

لم يجد ما يفعله سمير – في هذه اللحظة – سوى أن يجلس على الحجر الذي كانت تجلس عليـه زينـب هانم ..واعتبرت جلوسه بجوارها على الحجر الذي كان

على شكل مقعد.. موافقة منه على زواج رامي من ابنـة أحد رجال الثورة وعدوله عن تشجيعه على الزواج مـن حبة البركة فقالت في سعادة :

تعجبني رجاحة عقلك..

كما لو أن عبارة زينب هانم. كانت ضـرورية – في هذه اللحظة – ليشعر بأهميته في هذه الأسرة .. لقـد وجد نفسه من بين أفرادها لمجرد أن رامي قـد اختـار مقعدا في بداية العام الدراسي في المدرسـة الابتدائيـة ليجلس بجواره ويزامله حتى الجامعة .. ليجـد نفسـه – الآن- يجلس بجوار زينب هانم على مقعد حجري فـي هذا المكان المهجور وتختصه بحديث عن رغبتهـا فـي تزويج رامي من ابنـة أحـد رجـال الثـورة وتطلـب موافقته .. فتملكه الشعور بالثقة في الـنفس والاعتـداد بالرأي.. يقول لها إن مصلحة رامي أن يناسب الثـورة وخاصة بعد انتحار الباشا حتى لا يعترضـوا مسـتقبله ليرضيها في الوقت نفسه لن يخطئ فـي حـق صـديق

عمره.. فقد عرف من بعض مصادره الصحفية أن أسرة شوكت باشا في قائمة أعداء الثورة. فقد أعطى انتحـار الباشـا فرصـة لأعـداء الثـورة – فـي الخـارج – لمهاجمتها .. ولكنه تذكر أن رامـي طلـب منـه.. أن يستخدم تأثيره على أمه في إقناعها بأن لا تعترض على زواجه من حبة البركة التي يحبها.. سيغضـب منـه إذا عرف أنه قد قال هذا وخاصة أنه مقتنع بأن مـن حـق رامي أن يتزوج من يحب وأن والده الباشا قـد بـارك زواجه منها.. فوجد أنه من الأفضل أن يلوذ بصـمته.. ولكن عندما سمعها تقول : حبة البركة حشرة.. سأسحقها بقدمي.. شعر بالتعاطف معها .. يحب فيها جدعنة ابنـة البلد.. فوجد نفسه يقول:

ليست حشرة..

ونظر إليها. توقع أن تغضب.. ولكنه أبصـرها تضحك.. كانت منشغلة عنه بمراقبة معركة دائرة بـين قطة وكلب من كلاب الحراسة.. ارتاح لأنها لـم تسـمع

عبارته حتى لا تغضب وتمنعه من الزواج من جلنار كما تفعل مع رامي الآن .. فكر في أن يقول لها: تأخرت عن الكلية.. ويذهب .. لم يستطع. وجد رغبة – في داخله- ألا ينهي هذه اللحظة الحميمة التي تجعله يجلـس فيهـا بجوار زينب هانم على حجر في هذا المكان المهجور.. وبرر لنفسه عدم الذهاب بأن ليس من الأصول أن يترك زينب هانم التي يعاملها كأمه – وحدها – في هذا المكان الذي يبدو كغابة!

تذكر جلنار عندما اصطحبته إلى هـذا المكـان وقالت وهي تضحك ضحكتها الشقية: نقطة التقاء المدنية بالبدائية.. وحكت له أن أمها شاهدت في السويد حديقـة نصفها غابة وراقت لها الفكرة وطلبت من المهندس الذي استقدمه الباشا من إسبانيا ليخطط حديقة سراي المنيـرة على الطراز الأندلسي أن يترك جزءا منها بـلا تنسـيق لتنمو على طبيعتها وتصبح غابة! .. وعـارض أبوهـا الفكرة وأيده رامي.. ولكنها تحمست لفكرة أمها واستغلت تأثيرها على أبيها حتى وافق .. وتذكر أيضا أنه قال لها

إن أمها جبارة.. نظر إلى زينب هانم الجالسـة بجـواره كما لو أنه بنظرته يريـد أن يعـرف سـر جبروتهـا.. أبصرها مندمجة في الطبيعة التـي توحشـت .. جـذب نظرته قرد يتشقلب على فروع الشجر.. فبدا له كما لـو أنه يقدم عرضا راقصا.. فقال بدهشته:

قرد..

خميس صديقي.. يشم رائحتي من آخـر الغابـة ويجيء ليحييني!!

وجد نفسه يقول:

حديقة حيوان..

رأت الخوف في عينيه فقالت:

لا تخف.. الحيوانات هنا يحترمـون النظـام لا يعبرون الخط الفاصل بين الغابة والحديقة.

وقالت باسمه:

باستثناء صديقي خميس، له الحق في أن يفعل ما يريد

ووشت نبرتها بحزن عميق في داخلها:

لا أشعر بدفء المشاعر في هـذه السـراي إلا عندما أجيء إلى هنا وألتقي بخميس..

وجد نفسه يقول ساخرا:

يقولون إن الإنسان أصله قرد!!

وضحك. تضايقت من ضحكته الساخرة قالت في عصبية:

مشاعر خميس حارة لا تعرف الزيف..

وقبل أن تنتهي زينب هانم من عبارتها كان القرد قد هجم عليها وراح يقبلها كما لو كان رجلا بـرح بـه

الشوق لحبيبته .. و أبصرها تبادله الشوق كما لو كـان رجلا .. شعر بالقرف.. أراد أن يقوم ويتركها لقردهـا ولكن نفسه ثقلت عليه فلم يستطع أن يقف. انصرف عنها بنظراته إلى العصافير التي بدت وهي تتقافز وتزقزق في البستان الذي سماه الباشا بالأندلس كما لو كانت تعـزف سيمفونية عشق للجمال السابح أمامه.

قفزت إلى رأسه كلمات جلنار التي أرسلتها لـه من باريس فأسرع يخرج الرسالة من جيبه بطريقة تجعل زينب هانم تراها. يريد أن تنصرف عن قردها فقد شعر بالقرف من قبلات القرد لها وتنشغل بالرسالة وتعرف أن جلنار أصبحت تحبه.. بدت له أنها لم تنتبه إلى الرسالة.. تعمد أن يقرأ كلمات جلنار بصوت غير منخفض حتـى يلفت نظرها .. قال : أتصعلك يا حبيبي في بلد النـور.. أعرف أنك تحب باريس. ولكن عندما ذقت حلاوة حبهـا شعرت بالغيرة.. أخاف أن تخطفك الغولة مني وتسحرك وتأخذك لبحرها.. وأنا لا أعرف العوم.. وباريس بحرها عميق.

ولما لم تنتبه زينب هانم إليه .. رفع صوته وهو يقول : لا أستطيع أن أعيش بدونك .. فوجئ بالقرد يترك زينب هانم ويهجم عليه كما لو كان إنسانا فهم عبارتـه على أنه يغازلها .. تراجع مذعورا..

ضحكت زينب هانم وهي تقول : سمير يقرأ لـي رسالة من جلنار

توقف القرد عن مهاجمته .. قالت لسمير:

يغار علي !!

وفي نبرة وشت بحزنها:

الوحيد الذي يغار علي في هذه السراي

وكما لو أن القرد لم يعجبه أنها منعته من تأديب الذي تجاسر عليها أمام عينيه بتوجيه عبارة الغزل لها.. فغضب .. وبرغم أنها طيبت خاطره إلا أنه قد جرى إلى الغابة غاضبا .. واختفى وراء الأشجار الكثيفـة ارتـاح

سمير .. غضبت زينب هانم.. أرادت أن تقول لـه: لـم أطلب منك قراءة رسالة جلنار ولكنها قالت في عصبية:

لا أريد أن أسمع:

حملق فيها بدهشته. لا تريـد أن تسـمع رسـالة جلنار وهي التي كانت تسأله بالأمس: هل أرسـلت لـه رسالة من باريس؟! لم يجد شيئا يعبر به عـن دهشـته سوى أن يضحك.. وكما لو أن ضحكته نبهتها إلى أنهـا تصرفت بحماقة لا تليق بها وهي أم صـديقه .. عـرت نفسها أمامه.. دهشت من نفسها. لم تهتم برسالة ابنتهـا التي كانت تريد أن تثمر شجرة حبهـا التـي غرسـتها بيدها.. هل أصبحت تغار من حبهما؟ هل أصبحت تحب خميس ولا تريد إغضابه؟ هل غضبت لأنه أفسد لحظـة استمتاعها بعاطفة خميس العفوية؟ هل جنت ووقعت فـي هوى قرد؟! اختلطـت الأسـئلة فـي داخلهـا فراحـت تضحك .. واستمرت في الضحك بالرغم من أن سمير قد توقف عن الضحك حتى بدت لنفسها كما لو أنها تغطـي

نفسها بضحكاتها!.. وعندما سمعته يقول: الحب يصـنع المعجزات .. شعرت كما لو أن شيئا يشتعل في داخلها. اضطربت.. لا تريد أن يراها مهزومة. أشـعلت عـود ثقاب كما لو أنها تريد النار أن تشـغله عـن حريقهـا الداخلي. اقتربت النار من أصابعها. ألقت بعود الثقـاب. سقط على الحشائش الجافة.اشتعلت. ارتاحت للنار التـي اشتعلت في الحشائش. تملكتها رغبة في أن تشتعل الدنيا أمام الجالس أمامها. مضى وقت ظنته طـويلا.. ولكـن الدنيا لم تشتعل وخمدت نيران الحشائش . أبصرت بقايا الحريق . شعرت بالخوف. اندفعت كما لو كانت تجـري تحتمي بالأشجار التي تشابكت فروعها. تريد أن تخفـي السبب فقالت:

رامي السبب..

وقبل أن تقول : أرهق أعصابي. سمعت سـمير الذي أيقظت كلمات جلنار الربيع في داخله يقول:

الزهور..

تملكها الشعور بالوحدة وسط غابة.. يأخذها إلـى زمن لم تكن فيه ورقة توت. تريد أن تخلـع ملابسـها.. وتصرخ : أنا حرة.. لقد سجنت نفسها في صندوق مغلق منذ اختارها الباشا لتكون زوجته.. ودفعت تمردها فـي الحياة ثمنا ليقال عنها إنها سيدة مجتمع.. واكتشـفت أن الثمن الذي تقاضته لا يساوي لحظة تمـرد تعيشـها .. عيون البشر سجنها .. اللعنة على عيون البشر.. تملكتها رغبة وهي تقف في قلب الطبيعة التي توحشت أن تتوحد معها وتصبح جزءا منها.. تريد – الآن- أن تكون قردة. تتسلق فروع الأشجار.. وتجري وراء خميس وتصالحه وتبادله الحب في الهواء الطلق.. تشعر بـالعجز.. مـاذا جرى لها؟

كانت وهي صبية تفعل ما تريد .. سرقت أضواء المجتمع إرادتها.. تريد أن تطلق الوحش الذي حبسته في

داخلها .. الإنسان لا بد أن يكون وحشا لبعض الوقت .. تريد أن تصرخ الآن.. صرخت.. وجدت نفسها تردد:

عزيزي باشا..

فهم سمير من ترديدها لاسم عزيز باشا من أنهـا تقول له أنها قد استجابت لرغبته في أن تطلب من عزيز باشا عم رامي أن يحضر من لندن ليخرج رامـي مـن عزلته لأنه الوحيد الذي يؤثر عليه. شعر بشـيء مـن الفرحة. تذكر باقة الزهور التي قطفها من شجرة زهوره وأعطاها لزينب هانم لتضعها في الفـازة فـي حجـرة المكتب. لم يقل لها إن رامي هو الذي قطفها فقال بنبـرة وشت بفرحته:

رامي عاد لزهوره..

برغم أنه رفع صوته لتسمعه زينب هـانم التـي توغلت في الغابة إلا أن صوته خرج أكثر انخفاضا مما

توقع فأراد أن يرفع صوته ولكنه أبصرها تقـف أمامـه وهي تقول:

يا حبيبي يا رامي..

بادلها فرحتها فلم يجد تعبيرا يقوله سوى:

البداية يا ماما زينب..

كما لو أن كلمة " ماما " أصابتها بدوار. سـقطت على المقعد الحجري.. ولكنها تنبهت إلى أنها ما زالـت واقفة وتبتسم وتقول:

لا تترك رامي..

ذكرته عبارتها بأنه قد تأخر عن الذهاب للكليـة فقال:

تأخرنا عن الذهاب للكلية..

خفضت رأسها كما لو كانت لا تريد أن تراه وهو يذهب حتى لا تطلب منه أن يجلس وتتحدث معه.. وبعد أن ذهب .. رفعت رأسها وحملقت في الأشجار الكثيفـة التي تتوارى خلفها .. وتنفست بصوت عـال.. شـعرت بالراحة.. اندهشت من نفسها.. تشعر بالراحـة بعـد أن ذهب سمير الذي تحب حديثه.. هل لأنه ذكرها بأنهـا أم وهي تريد أن تنسى عمرها؟ ..طاف فـي رأسـها مـا أصابها من الأرق في الليلة الماضية.. عندما تذكرت أنها لم تبك على زوجها وهي تواريه التراب .. وصرخت في النسوة اللائي كن يولولن وقالت لهن: زوجـي بطـل لا تولول عليه النساء.. وحرصت قبل أن تشيع الجنازة أن تجلس إلى الكوافير لتبدو في أتم زينة وعندما أبصـرت المصورين يصورونها .. وضعت يـدها علـى رأسـها تسوى شعرها خوفا من أن يكون الهـواء قـد أفسـده.. وبررت هذا لنفسها بأنها تريد أن ترسل رسالة لرجـال الثورة الذين كانوا سببا في جعل زوجها ينتحر. تقول لهم إنها امرأة قوية لا يهزمها انتحار زوجها.. وقد وصلتهم

الرسالة وعرفوا أنها لا يمكن تجاهلها.. لقد طلبوها مـن مجلس الثورة وقال لها من حـدثها : انتظـري بجـوار التليفون.. لا يفعلون هذا إلا إذا كان الرئيس هـو الـذي سيتحدث .. ولكنها تعمدت ألا تنتظر بجوار التليفـون .. قالت مزهوة بنفسها كطفلة : يطلبونني الآن ولا يجدونني منتظرة بجوار التليفون .. ولا يستطيع أحد أن يصل إلي في هذا المكان من الغابة.. ولوحت بيدها فـي الطبيعـة التي توحشت : لا بد أن يعرفوا أني امرأة لسـت ككـل النساء، تذكرت صديقتها الأميرة التي شكت لها في آخر مكالمة لها معها بأنها مسجونة فـي قصـرها.. ولكـن تليفونات قصرها لا تتوقف عن الرنين.. ويحدثونها مـن مجلس الثورة.. وهي حرة تفعل ما تريـد.. لا ينقصـها سوى الحب.. تحس كما لو أنها أرض عطشـانة لكلمـة حب.. وسمير يجيد حديث الحب.. ولكنه يضـن عليهـا بحديثه وتركها وحيدة لتشعر بالتعاسة في الغابـة التـي تحبها.. وخميس قردها الجميل قد تخلى عنها .. اختفـى وراء الأشجار الكثيفة بمشاعره العفوية الحارة.. تشعر –

الآن – بأنها امرأة مهزومة .. تريـد كلمـة حـب ولا تجدها .. عزت عليها نفسها .. وجدت دموعها تسح من عينيها.. تشعر بأن الدموع التي ضنت بها على زوجهـا وهي تدفنه تسيل الآن.. فراحت تبكي بحرقة على الرجل الذي سقاها الحب ألوانا!!.. أبصرت خمـيس أمامهـا. تمنت لو كان سميرا.. أبصرت خميس يبكي تصـورته يقلدها .. ولكنها وجدته يبكي بحرقة .. فقالت في شـيء من الفرحة: تحبني يا خميس؟! وكما لو أن خميسا كـان صبيا صغيرا التقى بالحـب – فجـأة – فـي الطريـق فبكى .. كما قرأت في قصيدة لشاعر كبير.. فضـحكت من كل قلبها وكأن ضحكتها كانت موسيقى جعلته يرقص عليها تذكرت الأغنية التي كانت تغنيها للحيوانات عندما كانت صبية ترعاهم في العزبة .. ما زالت تحفظهـا .. فراحت تغنيها: أنا ملكة الغابة.. من يدخل غابتي آكله هم هم.. أنا أمنا الغولة من يقترب مني آكل عظمه قبل لحمه هم هم .. أنا زنوبة الغجرية.

ونظرت إلى خميس تريد أن ترى تأثير أغنيتهـا عليه.. وجدته يتوقف عن الرقص.. ويجـري غاضـبا ليختفي وراء الأشجار الكثيفة.. تنبهت إلى أنها قالت له: أنا زنوبة الغجرية.. تعرف أنه يغضب عندما تذكره بأنها إنسانة.. يريدها أن تعيش في الغابة.. فقالت تصالحه: لا تغضب يا خميس .. أنا قردة.. صديقتي الأميـرة قالـت لي: أنت قردة.. ستأكلين رجـال الثـورة هـم هـم .. وضحكت وقالت في نبرة عتاب : ليس مـن حقـك أن تغضب.. لقد رفضت أن تقيم معي في القصر.. وأنـت تعرف أن ابني رامي قد هزه انتحار أبيه ولا أستطيع أن أغفل عنه لحظة واحدة. لن أتركك حتى تظهر.. وقالـت بدلالها : اظهر عليك الأمان.. وراحـت تمشـي بـين الأشجار تفتش عنه فوق فروع الأشجار.. وجدت نفسـها في مكان لم تره من قبل.. ذكرها بالمملكة التي أقامتهـا وهي صبية في العزبة.. عندما حولت حظيرة حيوانـات الباشا إلى حديقة .. لا بد أنه مصطفى الكاشف هو الذي أقام هذه المملكة بعيدة عن عينيها.. يقلدها .. ضحكت ..

لا تكره أحدا مثلما تكره مصطفى الكاشف.. الوحيد الذي أذلها .. لقد قبلت أن تتزوج الباشا حتى تستطيع أن تشنق الكاشف في "الصباحية" وبعد أن تزوجت الباشا ودخلت القصر .. أرادت أن يكون أول شيء تفعله هو الانتقـام من الكاشف لتقول لأهل العزبة إنها لا تغفر لمن يسـيء إليها ..وقبل أن تستدعيه فوجئت به يقتحم عليها حجـرة نومها وهو يقول:

عفوا سيدة الناس..

ارتاحت لعبارة"سيدة الناس" فخففت من غضـبها وهي تقول:

كيف تدخل على "سيدة الناس" حجرة نومها؟

فطن إلى أنها ارتاحت لعبـارة "سـيدة النـاس" فكررها وهو يقول : الأمر جد خطير لا يحتمل التأخير

قالت : ماذا وراء وش الغراب؟

ثائرون

من ؟ أهل العزبة.. كانوا فرحين فـي الليـل.. يطبلون ويغنون ويرقصون.. كيف ينقلبون في الصباح؟!

هكذا هم يخفون مشاعرهم الحقيقيـة.. فـرحهم خادع..

ماذا يريدون؟!

الباشا..

ولا تتولى امرأة حكمهم

وخاصة إذا كانوا لا يعرفون أصلها

ابنة حرام..

وهم حساسون في أمور الحلال والحرام

وقح..

علمني أبي إذا كانت الوقاحة ضـرورية لخدمـة أسيادنا .. فينبغي أن نكون أكثر الناس وقاحة؟

شيء من السياسة!..

أنت تتحدث عن السياسة؟!

الزمن قد اختلف . الباشا ورثهـم عـن الباشـا الكبير.. والكبير عن الأكبر وأنا ولدت في زريبة؟..

فهمت سيدتي حاجتنا للسياسة..

أرادت أن تخنقه لأنه لم يقل سيدة الناس قالت:

ليس عندي سوى العين الحمرة وسأبدأ بالرجـل الذي قيدني..

متظلم يا سيدة الناس..

اعرض مظلمتك يا أوقح الناس..

ليس من مصلحة سيدتي أن تتخلص من رجل من أخلص رجالنا. الرجل الذي قيدك هو كبير البصاصين في هذه العزبة.. يسمع دبة النملة برغم ترامي أطرافها .. وأبي كان لا قيمة له.. بكل مهاراته في إطفاء الحرائق من غيره.. ووصيته الأخيرة لي ألا أستغني عنه.. لو تخلصنا منه لأصبحت العزبة حقل ألغام ضاعت خريطته.. وانفجرت فينا دون أن نعرف من أين يجيء الانفجار!

قالت في شيء من الانفعال:

ما زال أثر قيده في يدي..

اسمحي لي أن أقول لسيدتي أن هذا القيد هو الذي جعل الباشا يتزوجك وتصبحين سيدة الناس.

أمنحه مكافأة؟!

حتى تشتهر ست النـاس بالطيبـة .. وتهـزمين الباشا!!

سيدك؟!

وأشار إلى مقعد تعود الباشا أن يجلس عليه وقال:

لا سيد لي إلا من يجلس على هذا المقعد!

تنبهت إلى أنها لا تجلس عليه.. فجلسـت علـى المقعد فقال وكأنها قالت: زوجي

الذي يجلس على المقعد لا يعرف شـيئا اسـمه زوجي .. هذا هو الحكم يا سيدتي

قالت مستغربة ما تسمع:

كيف أهزم زوجي؟!

بسلاح " الأكثر طيبة"!

لا أفهم

وبدا لها كما لو كان أستاذا وهي تلميـذة وهـو يقول:

هناك عقد قديم بين أسرة الباشـا وأسـرتنا منـذ أصبح جدي الكاشف الأكبر فـي خـدمتها .. ننفـذه.. يأمرون بالظلم ونحن ننفذ.. ويصرخ أهل العزبة. ونمنع وصول صراخهم إليهم في حجرتهم العالية.. ومن حـين إلى آخر نسمح بأن يصل بعض الصراخ إليهم .. ويرق قلبهم. ويصرخون فينا.. يأمرون بإقامة العـدل ورفـع الظلم.. ويصل غضبهم للفلاحين وتلهج شفاهم بالـدعاء لهم.. وننتظر حتى تهدأ الأمـور ونسـتأنف ظلمنـا .. وهكذا..

تمثيلية مستمرة!!

المهم فيها أن يبدو من يجلس على المقعـد أنـه أعدل وأطيب مما سبقه.. ولذا ستكون مهمتنا صعبة لأن

أبي نجح في جعل الباشا أعدل وأطيب من تولى رعايـة الناس في العزبة..

وأنا ينبغي أن أكون أطيب منه..

قال مهللا: بدأنا الحكم يا سيدتي!

وتريدني أن أوقع

على بياض

أنت شيطان

وسيدة الناس ملاك

قالت باسمة: أنت تعرف أنني تزوجت الباشا لكي أشنقك..

ورأسي بين يديك.. فهذا حق أسيادنا علينا.. هكذا علمني أبي..

وارتمى على قدميها – تذكرت أن الباشا سيعرف أن أهل العزبة غير راضين عن توليها أمـور العزبـة فقالت : قف.. أريد رجلي قويا..

سأشرح لك يا سيدة الناس.. ماذا سأفعل..

قالت في حزم : لا أريد أن أسمع سوى أصوات الفلاحين وهي تهتف لي تحت نافذتي.. ليسمعها الباشا..

تلكأ في وقفته فضربته بقدمها فقال:

عرفت الآن أنني قد نلت الرضاء السامي..

وضحكت وهي تمشي بين الحيوانات في مملكـة الكاشف الذي لا تستطيع أن تستغني عنه الآن. شـعرت بأنها حرة.. لا تشعر بحريتها مثلما تشعر بها وهي مع الحيوانات . لقد فتحت عينيها على الدنيا لتجـد نفسـها محاطة بالحيوانات التي كان يرعاها أبوها في حظيـرة الباشا. كانوا كل أهلها ، فأحبتهم وأحبوهـا – وخافـت

عليهم من الذئاب – قال لها أبوها إن الذئاب تهاجمهم في الليل وطلب منها إلا تغمض لها عين. فكانـت تمضـي الليل ساهرة تسمع عواء الذئاب في الخلاء الذي يحـيط بالحظيرة.. وتنتظر مجيئهم.. وفي ليلة شعرت برغبة في أن تذهب إليهم بدلا من أن تنتظـرهم.. فخرجـت إلـى الخلاء .. ولما أبصرت الذئاب راحت تعوي كمـا لـو كانت ذئبة.. فاقتربت الـذئاب منهـا.. فلـم تتراجـع.. ووجدت الشجاعة في نفسها لتندفع نحوهم.. وأحاطوها.. فلم تشعر بالخوف.. وراحت تتفرسهم بنظـرات حـب.. ورجعت إلى الحظيرة وهي تشعر بأنها قد انتصرت على الذئاب بالحب.. واكتشفت وهم يلجئون إليهـا لتـرويض فرس الباشا الذي عجز الباشا ورجاله عن ترويضه أنها لا تخاف .. كما لو أن الذئاب قد أخـذوا قلبهـا الـذي يخاف .. وأعطوها قلبا لا يخاف.. لقـد انـدفعت نحـو الفرس الهائج وأطعمته قطع السكر التي تحملهـا معهـا عادة.. فهدأ .. وامتطته وجرى بها بين تصفيق رجـال العزبة الذين أعجبوا بشجاعتها.

وسمع الباشا بما فعلت فطلب أن يراها.. ولكنهـا رفضت عندما طلبوا منها أن تخلع ملابسـها وترتـدي ملابس جديدة تليق بدخول السراي ومقابلة الباشا وقالت: زنوبة لا تخلع ملابسها مـن أجـل الباشـا وإذا أراد أن يراني فليأت إلى هنا. ويراني كما أنا واعتبر مصـطفي الكاشف الذي تولى إدارة العزبة بعد وفاة والده.. ما قالته زنوبة تمردا تستحق عليه الجلد فلا أحد يرفض أمرا في هذه العزبة.. وذهب بنفسه ليجلدها لتكون عبرة للعزبـة وخاصة أنه قد تولى إدارة العزبة منذ فترة قصيرة ويريد أن يثبت للباشا أنه في مستوى المسئولية التي تردد فـي إسنادها إليه .. وفوجئ بها وهي تخطف من يده السـوط أمام رجاله وتلقي به علـى الأرض.. وتـنقض عليـه كالنمرة تمزق لحمه بأسنانها وأظافرها .. وتهيج عليـه الحيوانات وتهاجمه حتى تكاد أن تقتله لولا ظهور الباشا فقد بلغه أنها ترفض أن تقابله فأراد أن يرى بنفسه الفتاة التي تتجاسر وترفض مقابلته.. وأبصر الكاشـف ملقًـى على الأرض وهو يصرخ مستغيثا وهي تقف فـي تحـد

تنظر إليه .. وعندما أبصرت الباشا ينظر إلى صـدرها تنبهت إلى أن صدرها عارٍ فقد تمزق جلبابها فأسـرعت تغطيه بيديها..

قال الباشا مبتسما: ابنة من هذه؟

قفز قلبها في صدرها : تخاف على أبيها الشـيخ من جبروت الباشا فقالت بسرعة:

ابنة نفسي.

فصرخ أبوها فيها.. يخاف أن يأمر الباشا بحبسها في الحجرة المظلمة ومن يدخلها لا يخرج سالما فقالت : لأبيها – لا تخف علي .. أنا زنوبة ابنتك.

وانتهز الكاشف الفرصة ليبرر للباشا ما فعلته فيه فقال : وحش يا باشا ..

تذكر الباشا أنها التي روضـت فرسـه عنـدما جمح .. فقال في استغراب:-

أنت زنوبة التي..

وفطنت إلى ما يعني بعبارته ولم تجعلـه يكمـل كلامه وقالت بسرعة:-

بقطعة من السكر يا باشا!

قال الباشا ـ سعيدا بإنقاذها لفرسه الذي يحبه من إطلاق الرصاص عليه.. ففي لحظة غضب أمر بضربه بالرصاص.. وكان سيحزن كثيرا لـو نفـذ الأمـر ـ: عفريته يا زنوبة..

تضايق الكاشف لأن الباشا يحدثها بود.. توقع أن يصدر أمره له بحبسها في الحجرة المظلمة حتى الموت بعد تمردها على أمره وإهانتها له أمام رجاله

فقال : - الواقفة أمامك يا سيد الناس ذئبة..

قال الباشا ضاحكا: ذئبة أم نمرة؟!

قالت زنوبة : صدقه يا باشا .. أنا ذئبة

قال الباشا ـ وقد أعجبه أن تكون الواقفة أمامـه ذئبة .. يحب مصارعة الحيوانات المفترسـة ـ: ومـا أمارتك؟!

قال الكاشف بسرعة: - ضبطها أحد رجالي وهي تخرج في الليل إلى الخلاء وتعوي كذئبة وتلتف حولهـا الذئاب وتعود إلى الحظيرة دون أن يمسوها بأذى..

قال الباشا: أنت تخرجين للذئاب في الليل..

قالت ببراءة: حتى تكف عن مهاجمة الحظيرة

- تخافين على حيواناتي؟

- أخاف على أهلي..

وضحك الباشا سعيدا.. فهم الكاشف من ضـحكة الباشا أن زنوبة قد راقت له وأنها ستكون وليمة الليلة في

فراشه.. وعليه أن يعدها لتكون جاهزة للذهاب للقصـر عندما يطلبها الباشا .. فغلى الدم في عروقه.. لقد ذبحـه الباشا أمام عماله.. فبدلا من أن يأمر بسجنها في الحجرة المظلمة جزاء تجاسرها علي رجله يكافئهـا باختيارهـا لتدخل القصر.. فشعر بالخطر.. قد يقع الباشا في غرامها وتصبح صاحبة حظوة عنده.. وتستغل هذا وتطلب مـن الباشا طرده.. فيطـرده مـن العزبـة وتقضـي علـى مستقبله .. فقرر أن يقضي عليها قبل أن تقضي عليـه.. وجاءت الفرصة بأسرع مما كان يتوقع.. استدعي الباشا للقاهرة في مقابلة عاجلة.. وانتهز فرصة سفره.. وأصدر أمره إلى أخلص رجاله بالقبض على زنوبـة وتقييـدها وحبسها في الحجرة المظلمة التـي يسـميها الأجـراء " حجرة الأشباح " .. وأغلق الباب عليها بنفسه وهو يقول شامتا:

- هذا قبرك يا زنوبة !!

وشعر بعد أن أغلق الباب عليها بأنه قـد قضـى عليها .. لن تخرج حيـة وإذا خرجـت حيـة فتصـاب بالجنون .. وتبتعد عن سكته!.. لا بد أن يكـافئ نفسـه باحتفال خاص .. في كل مرة كان يحقق انتصـارا فـي حياته.. كان يقيم احتفالا في حانة مانولي القريبـة مـن العزبة .. يغلق الخواجة مانولي الحانة عليـه ورجالـه ويعبون الخمر وترقص الغوازي لهم.. في هـذه المـرة قرر أن تنتقل حانة مانولي إلى المكـان السـري الـذي اختاره في العزبة بعيدا عن العيون.. وتجيء ما شاء ا الغازية التي يحب فيها لحمها الأبيض لترقص له وحده.. ويعب خمر مانولي المعتق.. ويلتهم خروفا مشويا كمـا كان يفعل أبوه..

شعر بأنه سلطان وهو يغرق في لحم "ما شاء ا " الأبيض.. يستطيع – الآن – أن يرسل إلى الباشـا فـي قلعته – كما كانوا يفعلون في الماضي – مـن يطـوي البساط تحت قدميه ويقول له : انزل يا باشا..

وراح يرقص وهو يقـول بصـوت عـال: أنـا السلطان يا كلاب يا أولاد الكلاب..

وسمع طرقات على الباب السـري.. لا يصـدق أذنيه.. لا يمكن أن يتجاسر أخلص الرجال إليه ويطـرق عليه الباب و"ما شاء ا " في حضنه.. لقـد أمـره بـألا يزعجه حتى لو انهدت الدنيا.. هل انهدت الـدنيا؟! لـم تنهد .. ما زال يعتصر "ما شاء ا " ويأكـل الشـواء.. ولكن الطرقات اشتدت.. الباب يكاد أن يتحطم فار الـدم في عروقه.. كيـف يعصـي أخلـص الرجـال أمـر السلطان ..

لا بد من شنقه.. واتجه إلى الباب وهو يقول:

- سأعلق رأسك على باب زويلة فـي الصـباح بالرغم من أنني أحبك!

وفتح الباب.. وبرغم أن شوكت باشا كان يقـف أمامه إلا أنه قال :

- لست الباشا الخرع!!

ضحك شوكت باشا.. وعندما سـمع الكاشـف الضحكة عرف أن الباشا يقف أمامه.. وأن الـدنيا قـد انهدت فوق رأسه .. فلم ينطق بكلمة .. ولكن شيئا فـي داخله- كان متيقظا – نبهه إلى أنه ارتكـب جريمـة لا تغتفر.. ألقى بزنوبة التي راقت للباشـا فـي الحجـرة المظلمة لتأكلها الأشباح بدلا من أن يزينها ويزفها لفراش الباشا.. فأخرج مفتاح الحجرة المظلمة من جيبـه فـي صمت وناوله للباشا .. الذي أخذه بسرعة دون أن يتكلم واتجه إلى الحجرة المظلمة.. وجرى الكاشـف خلفـه.. يريد أن يقـول لـه إنـه لـيس الـذي قـال عبـارة "لست الباشا الخرع"! .. لا بد أنه الشـيطان.. فهـو لا يمكن أن يتجاسر وهو الذي ورث تأليه أسرة الباشا عـن أب لجد يقول هذه العبارة .. تقطع رقبته وتعلق على باب العزبة.. بالتأكيد.. الشيطان.. ولا بـد مـن جلـده فـي الصباح حتى يستتب النظام في عزبة الباشا!

ولم يتح له الباشا فرصة لأن يقول له شيئا مـن هذا وهو يفك قيد زنوبة ويقـول لـه فـي غضـب: - أجننت؟!

وبرغم أنه قد شرب كثيرا إلا أنه قد درب نفسـه على أن تدير الخمر أي شيء في رأسه إلا كلمة الثـورة ينبغي أن تظل متيقظة في داخله فهي سلاحه الحاسم في إنهاء أي معركة مع الباشا هكذا علمه الكاشـف الكبيـر فقال:-

الثورة يا باشا!!

تصورها ثورة في البلد فقال:- ثورة في البلد ؟!

- ثورة في العزبة يا سيد الناس..

- في عزبتي أنا ؟!

لقد قال لوزير الداخلية فـي زيارتـه الأخيـرة للقاهرة عندما حدثه عن احتمال أن تمتـد الثـورة مـن

العزب المجاورة إلى عزبته : اطمئن يا باشا .. ضع في بطنك بطيخة صيفي.. قد تقوم الثورة فـي البلـد.. ولا يمكن أن تقوم في عزبتي.

فقال للكاشف الذي وضح أن الخمـر قـد أدارت رأسه:

- حفلة المجون التي أقمتها في وكرك قد أطارت عقلك..

تجاهل ما سمعه من الباشا وقال في اهتمام وهـو يخفض صوته حتى لا تسمعه زنوبة التي تقف أمامهما:

- الثورة يا سيد الناس في العزبـة نائمـة فـي جلاليب الفلاحين ما دام كبرباجي مستيقظا.. ولكن عندما خطفت الكرباج من يدي وألقت به على الأرض وتركت بدون عقاب .. استيقظت..

رفع الكاشف صـوته فقـد تصـور أن صـوته الخفيض هو الذي لم يجعله يحسم المعركـة لحسـابه.. وخاف أن يظل الباشا غاضبا فتهزمه زنوبة مرة أخرى.. فقال:

- أخمدنا الثورة بعد أن قبضنا على المتمردة!!

تنبهت زنوبة إلى أنه يعنيهـا بكلمـة المتمـردة فصرخت: - كذب ..

فطن الباشا إلى أنه انتهز فرصة سفره للقـاهرة وانتقم منها بسجنها في الحجرة المظلمة فهـو لا ينسـى ثأره فقال وكأنه يبصق في وجهه: - أنت سفاح..

قال بسرعة : - سيسعد أبي في قبـره – الآن – عندما يسمع أن ابنه الكاشف الصغير قد نال هذا الشرف بهذه السرعة فقد كان يقول لي: -

أنت خائب.. وستعيش خائبا.. وتموت خائبا..

وبعد أن قال هذا أبصر أسارير الباشا تنفرج كما لو أنه سيضحك .. شعر بأنه قد كسب المعركـة ..وأراد أن يؤكد لنفسه أنه قد كسبها فاستمر في الحديث قائلا:

- عائلة الكاشف منذ عملت في خدمة أسرة جدكم الأكبر شوكت باشا وهي تتسابق لتنال هذا الشرف .. أن يصبح الواحد منهم يستحق كلمة السـفاح.. لقـد كانـت وصية جدنا الأكبر أن...

ولم يكمل كلامه .. وتلعثم والباشا يقاطعه وهـو يقول : أين الملابس التي اشتريتها..

خاف أن يقول له أنه لم يشتر شيئا فيعتبره الباشا عصيانا.. فيأمره بحبس نفسه أمام زنوبة التـي جلسـت وهو واقف.. وهو قد تعود على الطاعة العمياء فيحـبس نفسه في الحجرة المظلمة وتشمت فيه .. فقال بسرعة.. يريد أن يهرب من الإجابة:

- علمني أبي..

قال الباشا غاضبا: - لم يعلمك شيئا..

وكأن الباشا لم يقل شيئا استمر في حديثه قائلا:- إن الفلاحين أنجاس مناكيد.. لا يعملون إلا والخوف فوق رءوسهم.. لذا استخدم أجدادي العصا.. ولكن الفلاحـين خبثاء عودوا أجسادهم وأقدامهم وهي ممدودة في الفلقـة على احتمالها.. ولم يعد يخافون.. ولكن لا بد من الخوف لكي تحضر أرض الباشا الشاسعة ويجنـي المحاصـيل الوفيرة.. فاستخدم أبي الكرباج السوداني.. ولكن بعد أن أسند لي شرف الإدارة وجدت أن الكربـاج العـادي لا يكفي .. فجعلته بروحين.. ووضعت في نهايته قطع من الحديد حتى إذا نزل على ظهر الواحد منهم لا يتركه إلا بالدم.. وهذا الدم يا سيد البلاد هو الـذي يـذهب إلـى عقولهم ويجعلهم يفكرون.. وإذا فكر الواحد مـنهم فقـل على العزبة السلام!

ثقل كلام الكاشف على صدر الباشا وأوشـك أن يقول له: اخرس .. لا أريد أن أسمع صوتك.

ولكنه وجد نفسه يتفرس في زنوبة التي تمزقـت ملابسها وبدا على وجهها الشحوب.. فقد أكلت الحجـرة المظلمة نضارتها في ليلة.. شعر بمـدى الجـرم الـذي ارتكبه الكاشف وهو غائب عن العزبـة .. فقـال فـي غضب :

- انتهيت من خطبتك البليغة..

قال وهو يضـحك ضـحكة سـاذجة – عنـدي المزيد..

نفد صبر الباشا فصرخ فيه: - غبي

- ولكني ذكي في خدمة سيدي..

شعر بمسئوليته عن هذه الجريمة.. يتـرك هـذا الأبله يسفح دم الفلاحين الغلابة.. وهو المهموم بهمـوم الوطن.. يريد إنهاء حكم أسرة محمد علي التي سـرقت

الحكم من الزعيم الشعبي عمر مكرم الذي كـان أولـى بالحكم.. وليس تاجر الدخان القادم من قَولَه..

كيف يهتم بأمور الوطن كل هذا الاهتمام حتى أن القصر يعتبره من الباشوات الثوار ويترك هـذا السـفاح يمتص أرواح الفلاحين الغلابة..

لا بد من إنهاء هذه الجريمة التي ترتكب باسـمه فقال بحسم:- اغلق هذه الحجرة!

-سبقتني يا باشا .. كنت أوشك أن أقـول لسـيد الناس.. عندما أشرفت علـى إدخـال زنوبـة الحجـرة المظلمة.. تبينت أنها قد ضاقت بالمحبوسين فأمرت ببناء حجرة كبيرة .. سجن.. علـى أحـدث طـراز نسـميه العقرب..

قال الباشا في نبرة قاطعة: اغلق هذه الحجرة .. وأطلق سراح كل المسجونين

لم يصدق أذنيه فقال: - أنا.. الحجرة المظلمـة.. كيف أكون كاشفا من غير سجن؟!

- نفذ..

- والمتمردة .. لا بد أن تعـود إلـى الحجـرة المظلمة حتى لا تقوم ثورة.. وتعرف الداخلية.. عيونهـا كثيرة هذه الأيام يا سيد الناس

- اخرج ونفذ

لم يخرج الكاشف. احتواه بنظره. أبصر وجهـه وجه شيطان فقال:-

أخرج يا شيطان

قال الكاشف بصوت عال وكأنه يحدث نفسـه :- وصلت يابن الكاشف إلى المجد..

استبد الغضب بالباشا فقال :- ولا تريني وجهك..

أوشك الكاشف أن يقول : سأحضر الملابس الجديدة التي أمرتني بإحضارها .. ولكنه تذكر حفل المجون الذي أقامه لنفسه في وكره السري فقال:

- عرفت- الآن – أن سيد الناس قد غفر لي معصيتي..

أراد الباشا أن يقهقه ولكنه في صوت عاصف: أخرج يا لعين..

وبعد أن خرج الكاشف بظهره وهو يقول : السمع والطاعة يا سيد الناس!..

قالت زنوبة وقد تمالكت نفسها: أطلقت علي كلبك لأستسلم!

قال بدهشة: - أنا؟!

- زنوبة لا تستسلم حتى لو قتلوها..

شعر بأنه انهزم أمام عبارتها.. عندما أبصرها تقف في تحد تنظر إلى الكاشف الذي يسيل الدم منه راقت له وقرر أن يهزمها في فراشه.. فأمر بشراء ملابس جديدة لها..

ولكن في أثناء رحلته الأخيرة للقاهرة وجدها تسيطر على تفكيره .. وراح يفكر فيها بطريقة تختلف عن أي صبية من صبايا العزبة .. فهي نوع لم يره من قبل. أعجبه أن تكون المرآة ذئبة .. ولكي يروض الذئبة لا بد أن تكون قريبة منه .. يعزل الكاشف ويعينها مكانه.. واستقر على هذا الرأي وهو عائد من لقاء وزير الداخلية الذي حذره من قيام ثورة في عزبته .. فتعيين واحدة من الفلاحين لتشرف على شئونهم سيرضيهم .. وفي الوقت نفسه.. تستطيع بشخصيتها القوية وخاصة بعد أن هزمت الكاشف أمام عيونهم أن تخيفهم وتمنعهم من التمرد.. ولكن عندما أبصرها- الآن – تقف أمامه

في تحدٍ شعر بأنه انهزم أمام الإحساس الذي كان يستبعده وهو يفكر فيها أثناء رحلته إلى القاهرة.. فلا يمكن وهو صاحب خبرة عريضة مع المرآة وسليل الباشوات أن يقع في حب صعلوكة.. ابنة راعي حيواناته .. بمجرد أن تقع نظرته عليها.. ولكن عندما قـام إلـى دولاب ملابسـه وأخرج روبه الحريري الجديد ووضعه علـى كتفيهـا؟ يغطيها من نظراته تأكد أنه الحب..

رقت نبرته.. حتى خيل له أنه ليست نبرته وهـو يقول لها:

- أكره أن أعتذر .. ولكن من أجلك فتعقد الأمور في نبرة جادة:

- أعتذر عما فعله هذا الجلاد .. ماذا يرضيك؟!

- أن تتركني أعود..

وكأنها لم تقل شيئا.. قال:

-سأترك جناحي الخاص كي تغتسلي..

قالت في نبرة حادة كما لو أنه قد أهانها:

- أريد أن أعود إلى حيواناتي بملابسي القذرة..

قال في دهشة: - تفضلي..

قالت بسرعة: أكره قَصرك!

تذكرت ما يروى عنه من حكايات فقالت: - لست أنا التي ..

ولم يجعلها تكمل عبارتها وقال فـي اسـتنكار:- لست شهريار!

- وما يتردد في العزبة..

- أنا ضحية..

نظرت إليه في دهشة وكأنها تقـول بنظراتهـا: أنت؟!

قال يدافع عن نفسه : - من مصلحة الكاشف أن يشيع عني هذه الحكايات ليبعد عني الفلاحين ويمـارس ساديته في تعذيبهم ويسرق أموالهم.. إنه يعـرف أنـي أحبهم..

وركز نظرته عليها وقال: - أنا أحبهم.. كما لـو كان يقول لها: أنا أحبك..

فهمت معنى عبارته فقالت كما لو أنها انتهـزت الفرصة لتحاكمه:

- تريد أن تقول لي إنه أدخلني الحجرة المظلمـة من غير أمرك؟!

- أنا طلبت منه إحضار ملابس جديدة..

- ليعدني لأكون..

قاطعها : ا يسامحك

- الأشباح أفضل لي يا باشا.

- أتعرفين أنني أمرته بإغلاق الحجرة المظلمة.. والإفراج عن كل المحبوسين فيها.. لقد أفزعني ما فعلـه معك.. وأشعرني بمدى الجرم الذي يرتكبه الكاشف فـي حق العزبة.. كيف أكون مهموما بأمور الوطن.. وأريـد ثورة تحرر النـاس.. وأسـمع للكاشـف بـأن يعـذب الفلاحين .. ويمتص أرواحهم..

نظرت إليه .. كما لو أنها تقول بنظراتهـا: يـا باشا!.

شعر فجأة بالإرهاق فقال كأنه يشكو لها :

- تعبت من حياتي.. وأريد أن أرتاح!

قالت في شيء من الخبث:- لماذا تحـدثني هـذا الحديث؟!

- لأني أحبك..

هزمت سيد القصر.. ولكن هذا لا يكفي فقالت: - ولكني لا أحبك..

- الحب يجيء بعد الزواج.

قالت ساخرة ـ تخفي سـعادتها بسـخريتها ـ : تتزوج ذئبة؟!

سأتزوجك .. لأنك ذئبة !!

-ذئبة أم فاكهة جديدة ؟!

وقبل أن يقول شيئا قالت: أنا مرة يا باشا..

قال في شيء من السعادة لأنه وجد في عبارتهـا موافقتها على الزواج منه

فقال:

- ملات الفاكهة المسكرة..

أمسك يدها.. لم تجذبها من يده، قال:

- أريد أن أعوضك عن عذابك.. أنت تسـتحقين أن تكوني سيدة العزبة..

وبعد أن قال عبارة سيدة العزبة تنبه أنها لا تكفي لتعبر عن مشاعره التي يحملها لها في هذه اللحظة فقال:

- سيدة الدنيا..

- لا أريد أن أكون سيدة الدنيا.. أريد إلا تحرمني من الخروج إلى الخلاء..

- أخاف عليك من الذئاب..

أنا زنوبة..

- زينب هانم من فضلك..

ضحكت سعيدة وهو يقول : سأتزوجك بشرط ..

فقالت : مر يا سيد الرجال..

قال وهو يقبل يدها:

ألا تكفي عن التمرد .. فأنا عاشق لتمردك!

٣

وتمردت زينب هانم – منذ اللحظـة الأولـى – لدخولها القصر.. رفضت أن تجلس إلى الأساتذة الـذين أحضرهم لها الباشا ليعلموها كيف تكون سـيدة القصـر وقالت: من تحب الحيوانات كل هذا الحب لا تحتاج إلى أساتذة ليعلموها التحضـر!! وأدهشـت ابنـة حظيـرة الحيوانات كل من في القصر بسلوكها المتحضر وعلـي رأسهم الباشا وبدت لهم كما لو أنها تربت في القصـر.. وحظيت بثناء مديرة القصر الفرنسية التي أحضرها لهـا من فرنسا.. وتعلمت منها الفرنسية في زمـن قصـير.. وسمعت منها أن سيدات المجتمع الفرنسي الراقي يفتحن أبواب قصورهن للشعراء والأدباء.. ففتحت لهم أبـواب العزبة.. وأقامت الأمسيات الشعرية والندوات الأدبيـة.. وصارت حديث الصحف.. وسطعت كنجمة فـي سـماء المجتمع الراقي.. وشعرت بمرور الوقت بـأن سـراي العزبة قد ضاقت بطموحاتها.. وخاصة بعد أن صـارت

مزارا لرجال القصر والسياسـيين والسـفراء الأجانـب وخاصة السفير البريطاني.. فطلبت من زوجها أن يبنـي لها قصرا في القاهرة في الأرض الفضاء التي يملكها في حي المنيرة لتكون على مقربة من الملك فاروق في قصر عابدين والسفير البريطاني في جاردن سيتي.. واستجاب الباشا لرغبتها.. وجاء بمهندس شهير من إسبانيا ليبنـي قصرا على الطراز الأندلسي.. وافتتحته بحفلة كحفـلات ألف ليلة وليلة.. وحضرها الملك فاروق.. فقـد وعـدها صديقها الحميم خادم الملك بأن يجعـل الملـك يحضـر افتتاح قصرها وفوجئت بحضـوره وإعجابـه بالقصـر والحديقة الأندلسية والغابة غير المسبوقة فـي قصـور القاهرة.. وفتحت لها زيارة فـاروق لقصـرها مجتمـع الطبقة الأرستقراطية على مصراعيه.. وكاد لها حسادها وخاصة في القصر الملكي فقد شعروا بخطرها الـداهم عليهم.. وبدءوا ينبشون في تاريخها القديم.. وخافـت أن يؤثر ماضيها على مركزها في القصر الملكي.. فلجـأت إلى صديقها الصحفي الكبير أبو ريشة.. فقد ساعدته على

أن يدخل المجتمع الراقي ويثبت وجوده في الصـحافة.. وطلبت منه أن يساعدها في رد كيد الحاقدين.. ففوجئـت به ينسج قصة من خياله بعنوان : " بنت أفنديناً".. ينشرها في الجريدة التي يعمل بها. يحكي بأسلوبه الشائق كيـف جاء جدها الأكبر من إسطنبول إلى القاهرة.. وأخفى أنه على صلة قرابة بمحمد علي باشا الكبير.. وكافح بمفرده دون الاعتماد على صلته بالأسرة الحاكمة .. وما فعلـه الجد الأكبر فعلته زينب هانم، أخفت أنهـا علـى صـلة قرابة بالأسرة الملكة.. فهي ترى أن الإنسـان بعملـه لا بأصله.. وأعجب فاروق بما فعلته وقربها منـه أكثـر.. وأصبحت الفرصة في قبضة يدها أكثر مـن أي وقـت مضى.. لتحقق هدفها وتصبح سيدة القصـر الأولـى.. ولكنها فوجئت باليوم الذي استيقظت فيه مبكرا – علـى غير عادتها – لتجد العسكر قد استولوا علـى الحكـم.. ليرحل فاروق وينتحر زوجها وينهار ابنها رامي الوحيد سندها الأخير.. وتعيش وحيدة تبحث عن كلمـة حـب.. وعليها أن تجلس بجوار التليفون تنتظر مكالمة تليفونيـة

من مجلس قيادة الثورة.. فوجدت نفسها تصرخ: أنا بنت أفندينا يا كلاب.. ولا يمكن أن أجلس بجـوار التليفـون أنتظر مكالمة تليفونية!!

شعرت بحاجتها لأن ترى الرجل المبروك الـذي كان زوجها يسخر منه بإطلاق اسم سقراط عليه.. تؤمن بأنه من أهل الخطوة وقد أعطاه ا بعض سـره. لـن تتركه هذه المرة حتى تجد الأجوبة عن أسئلتها الحـائرة في داخلها لترتاح وتخرج من الدوامة الغارقـة فيهـا.. تساقط المطر حولها .. تفاءلت.. يسبق المطر ظهوره.. أبصرته أمامها.. قالت فرحة: أبو خطوة.

ضحك الرجل ضحكة طفل . قالت مهمومة: ليس وقت الضحك .. أريد أن أعرف .. انطفأت أنوار الـدنيا حولي.. زوجي الصدر الحنون رحل .. وابنـي رامـي الذي أعده ليكون سندي ينهار أمام عيني وأنا عـاجزة.. وأبحث عن كلمة حب.. فلا أجدها!! أخبرنـي .. مـاذا ينتظرني ؟ لا تقل لي : لا أعرف سوى أنني لا أعرف..

تأملها بنظرته للحظـات وكأنـه قـال بنظرتـه الساخرة: تدفعين الثمن..

قالت غاضبة : أي ثمن.. هم الـذين ينبغـي أن يدفعوا لي ثمن عذابي .. انتزعوني من أحبابي.. وألقـوا بي في غابتهم.. وأخذوا قلبي وحرموني من دموعي..

وتذكرت أنها قد بكت منذ قليل فقالت فـي نبـرة فرحة: ولكني بكيت بدموعي منذ وقت قصير .. بكيـت البكاء الذي كان ينبغي أن أبكيه على قبر زوجي الـذي سقاني الحب.. لا تقل لي إنها دموع في غير أوانها..

وصمتت للحظات ثم ما لبثـت أن قالـت: لـك حق .. كانت دموعا بلا طعم بالرغم من أنني قد بكيـت بحرقة!.. ماذا أفعل؟ أريد أن تعود دموعي إلى عيني..

قال لها : عودي .. وكأنه قـال لهـا: عـودي لإنسانيتك؛ فقالت: كيف أعود لإنسانيتي وقد صرت بنت أفنديناً؟!

- صدقتِ حاوي الكلام

- لم يكن أمامي سوى أكاذيب أبو ريشة لتنقذني من ذئاب قصر عابدين لكيلا تنهشني!

- والكذب والحب لا يجتمعان..

واختفى الرجل المبروك بين الأشـجار الكثيفـة وهي تقول: أبحث عن الحب..

وكأنها سمعته يقول: انزلي مـن السـماء إلـى الأرض

وتوقف المطر. تذكرت أنها لم تسأله عما ينتظـر ابنها في المستقبل فقالت بكل خوفها: وابني رامي.

سمعته كما لو كان يقول: لن يهرب من قدره..

وأظلمت الدنيا وكأن الظلام هو قـدر رامـي.. فصرخت وهي تلوح بقبضتها في الظلام كما لو كانـت تتحداه وهي تقول:

- لا .. لن يستطيعوا أن يمسوا شعرة في رأسه.. سأقاتل الشيطان من أجله..

وتملكها الغرور وهي تقول : أنا بنـت أفنـدينا.. ولكن ما لبث أن رنت في رأسها عبارة أبـو خطـوة : انزلي من السماء إلى الأرض.. لتجد نفسها تقـول: لا.. لست بنت أفندينا .. سليلة أسرة محمد علي.. أنـا بنـت راعي حيوانات.. عشت في حظيرة .. وما نشـره أبـو ريشة عني كان من نسج خياله ليجعلني أنتصـر علـى حسادي في قصر فاروق، لا بد أن أطوي هذه الصـفحة وأسترد الصبية التي طرحت - الكاشـف الـذي كـانوا يلقبونه بالسفاح - أرضا.. لن أستطيع وحدي أن أفعـل هذا .. لا بد أن يساعدني أبو ريشة.. يـروي حكـايتي كمثل لقهر عصر فاروق للكـادحين.. وتصـورت مـا

سيكتبه سيقول: لقد انتزعوها قهرا من مملكـة الحيـوان التي تحبها .. وأسكنوها قصرا كرهت جدرانه المطليـة بالذهب لأنه بني بدم الفلاحين الغلابـة .. ولـم يكتفـوا باقتلاعها من جذورها فقد نسبوها إلى أسـرة المغـامر محمد علي.. فهم لا يتصورون أن واحدا من باشـواتهم يتزوج امرأة من القاع فزيفوا تاريخها وغيروا اسمها من زنوبة إلى بنت أفندينا.

وتنبهت إلى أنه هو الذي اختلق حكايتها وغيـر اسمها فضحكت. تعرف أنه قادر يستطيع أن يغير جلـده في لحظة وهو يعتمد على ذاكرة المصريين التي تنسى.

وتملكها الخوف فجأة.. خافت أن يطلب منهـا أن تتبرع بقصر المنيرة ليكون مدرسة وعربونـا للـولاء.. وجدت نفسها تقول بالصوت العالي: لا .. لـن أتبـرع بحجر من قصر المنيرة.. إنني أكرههم وأكره ثورتهم..

وجاءتها فكرة .. تشيع في نادي الجزيرة بأنها قد تبرعت بقصرها ويستطيع أبو ريشة بمقدرته في تزييف الحقائق أن يقنع الناس بأنها فعلا قد تبرعت بالقصر دون أن تكون قد تبرعت!!

ووجدت نفسها تقفز من بين الأشجار وهي تخرج من الغابة كما لو كانت تطير لتلتقي بعلي أبو ريشة لتعقد معه صفقة العمر.. تعطيه بعضا من مالها الكثير الـذي أخفته عن عيون الثورة.. ويعطيها نفوذه.. كل نفـوذه.. ولكن هل يكفي المال ليصبح صحفي الثـورة المرمـوق خاتما في إصبعها؟ إنه يحمل لها حبا.. تغذي هذا الحـب وتشعل غيرته بسمير عبد الكريم الصحفي الشاب الـذي على علاقة طيبة بالثورة وينتظره المستقبل اللامع.. وهو لا يحب أن يشاركه أحد في اهتمامها.. ويريد دائمـا أن يكون الأوحد..

ومشيت في بستان القصر الأندلسي الذي غطـاه الربيع بزهوره.. شعرت بأنها قد انتصرت وهي تتـذكر

أن فاروق قد مشى بقدميه في هذا البستان.. وأثنى علـى ذوقها ووضعت فاروق في جيبها.. ستضع الثورة خاتما في إصبعها..

تذكرت ما يروجه البعض في نادي الجزيرة مـن أن علي أبو ريشة سـيتولى رئاسـة تحريـر جريـدة الوطن .. تنتهز الفرصة وتقيم له احتفـالا خاصـا فـي العزبة.. ترقص له وحيدة.. وتأخذ ما تريد!

أبصرت وحيدة ابنة الماوردي تجلس في ركـن الشاي.. وبالرغم من أنها تعودت أن تراها في مثل هـذا الوقت من النهار لتشرب معها الشاي – بعد أن قاطعهـا الأصدقاء بعد انتحار زوجها – وتضحكها بنكاتها وتسليها بحكاياتها عن حي المنيرة .. إلا أنها تفاءلت .. سـتنجح خطتها..

أرادت وحيدة أن تحكي لها أن مصطفى الكاشف زارها في الليل – فجأة – في بيتها في شارع الماوردي

وغازلها وعندما صدته قال لها: إنه يحبها ولكن زينـب هانم قالت لها: ليس وقت النكت..

قالت وحيدة : نكتة حراقة يا برنسيسة..

قالت زينب هانم في حسم: عـودي إلـى بيتـك واستعدي للسفر للعزبة.. سأقيم حفلة وترقصين.. ومري على بيت سمير عبد الكريم وأخبريه بأني سأمر عليه في الصباح الباكر ليسافر معنا.. ولا تنسي أن تخبريه بـأن رامي سيكون معنا..

الفصل الثاني

في الصباح الباكر.. سـمعت فاطمـة أم سـمير كلاكس عربة الباشا المميز.. فأسرعت إلى حجرة ابنهـا لتوقظه وهي تؤنبه لأنه ما زال نائمـا وعربـة الباشـا تنتظره.. فما زالت الأم تسمى العربة السـوداء بعربـة الباشا برغم أنها تعلم أن الباشا قد مات منذ فترة.. وقـد بكته كما لو كانت تبكي على عزيز من أهلها..

قال سمير بلهفته: وافق أبي؟..

لقد طلب من أمه أن تستأذن من أبيه ليسافر مـع رامي إلى العزبة لتمضية بعض الأيام بعـد أن أخبرتـه وحيدة – بالأمس – بأمر الرحلة .. فهو يعرف أن والده سيرفض لو أنه أخبره بنفسه.. لأنه لا يوافق على علاقته برامي.. لأنها ليست متكافئة ويرى أنها ينبغي أن تكـون في حدود الكلية والمذاكرة .. بينما الأم ترى أن علاقـة ابنها برامي ستفيده في مستقبله فمن جاور السعيد يسـعد

كما تقول الحكمة الشعبية.. فقالت وهي تخفض صوتها: أخفيت عنه خبر سفرك مع رامي.. وقلت له إنك مسافر في رحلة مع الكلية.. فوافق بشرط أن تكون الأخيـرة .. فامتحان الليسانس قد اقترب .

قفز من السرير واحتضنها وهو يقول : ربنـا لا يحرمني منك يا ست الحبايب..

قالت : أسرع .. قبل أن يستيقظ أبوك ويحاصرك بالأسئلة ويعرف أنني كذبت عليه..

قفز على سلالم البيت. تذكر أن رامي ينتظره منذ فترة في السيارة وهو يكره الانتظار.. سيعاتبه قبـل أن يعاتبه ويقول له:

- لماذا لم تصعد – كعادتك – وتشـرب الشـاي معي؟

فتح عم حسن باب العربة ليبصر زينـب هـائم يفوح منها العطر تجلس وحدها فقال: - أين رامي؟

- فضل أن يسافر بعربته..

وخشيت أن يقول لها : سأسافر معه..

فقالت : لقد أشفق رامي علي من السفر وحدي .. فقال لي: خذي سمير معك حتى يسليكِ بحكاياته الكثيرة..

أراد أن يركب بجوار السائق.. ولكنها طلبت منه أن يجلـس بجوارهـا .. جلـس صـامتا .. احتوتـه بنظراتها .. تساءل داخلهـا.. هـل يسـتطيع الجـالس بجوارها أن يلعب الدور الذي اختارته له.. وهو إشـعال غيرة أبو ريشة؟ أرادت أن يتكلم كمـا لـو أن حديثـه سيجعلها تعرف الإجابة .. ينبغي أن ترفع الكلفـة بينهـا وبينه.. وينطلق في الحديث.. تـذكرت حكايـة زوجـة المستشار معه التي راودته عن نفسها والتي حكاها لهـا

رامي فقالت وهي تشعل سيجارة وتنظـر إليـه نظـرة جانبية: ما زالت امرأة المستشار...؟

ولم تقل تطاردك..

فطن سمير إلى أن رامي قد حكى لها حكايته مع امرأة المستشار التي تسكن الشقة التي فوق شقة أسـرته في بيت المنيرة فأوشك أن يقول لها حكاية من تأليفي .. ولكنه سمعها تقول : أنت كابني رامي ..

وكأنها قالت: أنا أمك.. تضايقت من نفسـها.. لا تريد أن تتذكر في هذه اللحظة أنها أم قالت: أنت تعرف أنني صديقة لرامي.. ورامي يحكي لي غرامياته..

وخجلت من نفسها بعد أن قالـت: غرامياتـه.. فتحت النافذة . نظرت في الطريق الزراعي.

قالت للسائق: لا تسرع يا عم حسن

برغم أنه لم يكن مسرعا.

تأملت الخضرة التي تبدر الطريق.. هل يمكن أن يحبها سمير؟ تذكرت وحدتها التي عاشتها فـي أيامهـا الأخيرة مع الباشا عندما كان يقول لها الجنس معطـل.. أريد أن أوفر طاقتي لأصل إلى كرسي الوزارة.. وجدت نفسها تقول : الباشا كان في شبابه زير نساء!..

وضحت الدهشة على وجه سمير. لا يذكر أنها قد أساءت للباشا بكلمة أمامه. وما قالته عن الباشا لا مناسبة له الآن.

تملكتها رغبة في أن تعري سمير فقـد ضـايقها وقاره..

قالت ضاحكة في شيء من التهتك: مـا زالـت زليخة تصنع لك صينية البسبوسة؟!

خشي أن تظن به الظنون وهو يحـب أن تكـون صورته بيضاء أمامها فأسرع يقول: زوجها المستشـار يشرح لي بعض القضايا القانونية الصعبة..

قالت ضاحكة في سخرية : القضايا الصعبة..

شعرت بأنه تضايق فقالت لتزيل ضيقه : أعرف أنه قريبكم..

- كيف عرفتِ؟

كأنه وجد بسؤاله فرصـة ليهـرب مـن هـذا الموضع .. سمعها تقول : أعرف زليخة..

- من زليخة؟

- امرأة المستشار

قال في براءة : - ليست زليخة!..

ضحكت من قلبها . فهم سمير من ضحكتها أنهـا تشير إلى قصة امرأة العزيز وسيدنا يوسف فصمت قليلا ثم قال: كيف عرفتِ هذه المرأة؟

- من حمام سباحة نادي الجزيرة.. ترتدي المايوه ولا تخجل من جسدها المكتنز .. امرأة متصابية..

قال بسرعة: يخاف أبي على أخوتي البنات منها يقول عنها إنها شيطان ..

أشعلت سيجارتها من سيجارتها وهي تقول: وأنت ملاك؟

- بمجرد أن تنادي على أخت من أخوتي البنات يقول لي أبي: - اصعد إلى هذه المجنونـة ولا تجعلهـا تنزل..

وكما لو أن سمير هو ابنها فقالت بخوفها عليـه: يلقي بك في النار..

قال في ثقة: لا تخافي علي ..

وكأنه قال : أنا مش سيدنا يوسف..

تذكرت أنه شهد حادث الاعتداء على عبد الناصر في المنشية ولم يخف.. تريد فارسا لا يخاف.. يخطفهـا على حصانه ويشق بها أيامها القادمة ويصل بها إلى بر الأمان.. ولكنه بلا خبرة.. وعلي أبـو ريشـة صـاحب خبرة.. تحب في علي خبرة الزمن.. ولكن سمير جعلها تشعر بأنها مازالت صبية تتحدى الذئاب.. ولكنـه فـي عمر رامي .. لا ليس مثل رامي.. سمير نضج مبكرا.. بالنهار يلقي بنفسه في قلب أحداث الثورة التي تتلاحق.. وفي الليل يجيء إليها .. ويحكي ما شاهده فـي النهـار ويحلل ويشرح ويوضح ما غمض ويقول أخبارا تصـبح في الصباح عناوين صحف.. حتى أنها قد ظنت – فـي لحظة – أنه من رجال مخابرات الثورة.. لقد جنـدوه.. تتمنى – الآن – أن يكون كـذلك .. حتـى يحميهـا .. ويحمي ابنها.. أبو ريشة أنـاني.. إذا شـعر بـالخطر يهرب.. لم يعزها في وفاة زوجها.. انتظر حتى عـرف اتجاه الريح.. ولكن سمير ما زال بكـر الأحاسـيس ..

وهي ما زالت شابة .. أولى به من أن تقول : تتزوجها.. ولكنها وجدت نفسها تقول دون أن تدري : تتزوجني؟

وتنبهت إلى فلتة لسانها فضـحكت .. فضـحك سمير كما لو كان يسمع نكتة.. اغتاظت من سمير لأنـه استقبل كلمة "تتزوجني" بضحكة فقالت في عصـبية :- امرأة المستشار من أصل متدنٍ.. كانت تعمل مديرة لبيت زوجته الأولى .. ونسجت شباكها حوله.. وجعلته يطلق زوجته ابنة الناس ويتزوجها .. والآن تريد أن يطلقها..

وأوشكت أن تقول : لتتزوج شابا في عمر ابنها..

ولكنها ابتلعت كلامها وقالت: امرأة خطيرة..

وكما لو أن نطق اسمه – في هذه اللحظة – يعني أنه أصبح رجلا لا تستطيع المرأة الخطيـرة أن تقتـرب منه.. فقال : أنا سمير يا طنط!

تضايقت من كلمة " طنط " فقالت : أنا صـغيرة السن يا سمير..

وبعد أن قالت هذه العبارة شعرت بأنها أخطـأت فقالت دون تفكير.. كما لو أن مجرد كلامها سيزيل أثـر هذه العبارة من نفسه.. فقالت : وأنا صـغيرة تزوجـت الباشا.. أتعرف لماذا تزوجني؟ لأنه كان يرى في الملكة فريدة.. كان يحب الملكة فريدة..

قال سمير بسرعة: وأنا أحب الملكة فريدة..

قالت فرحة : صحيح..

- كنت وأنا صبي أقف في شارع قصر العيني.. ساعات طويلة انتظر مرور موكبها.. وهي تخرج مـن قصر عابدين..وعندما ثـارت علـى فـاروق وطلبـت الطلاق .. تظاهرنا في الجامعة وهتفنا: خرجت الطهارة من بيت الدعارة.. كانت فريدة أول تمرد على القصر

ووجدت زينب هانم تقول وهي منفعلة : ولكني لم أتمرد عندما أفسد الملك فاروق شـوكت.. لـذا فرحـت عندما رحل فاروق

يعرف أنها حزنت لرحيل فاروق فقال مندهشـا: فرحتِ؟

- فرحتُ لأني تصورت أن شوكت سيعود إلي .. ولكنه حبس نفسه في حجرته وبذلت المستحيل لأجعلـه يسترد شوكت الذي يحب الحياة.. ولكنني فشلت وأطلـق على نفسه رصاص مسدسه..

قال سمير : رصاص بندقية الصيد..

تجاهلت ما قال وقالت : قال للثورة بانتحاره " لا .."

قال سمير ليجاملها: كان شجاعا..

- جر علينا المتاعب ووضعنا في القائمة السوداء

قال سمير بسرعة : - لقد سألت مسئولا كبيـرا عن صحة هذا فقال غير صحيح أن عائلة شوكت باشـا موضوعة في القائمة السوداء

واستمرت في حديثها كما لو أن سمير لـم يقـل شيئا قائلة: وأنت تعرف.. ماذا جرى لرامي؟

وشعرت بأنها ستضعف.. و لكنها مـا لبثـت أن تذكرت أن سر قوتها الحقيقي هو أنها لـم تخـف مـن الذئاب.. وصارت بنت أفندينا المرأة الحديدية التـي لـم تذرف دمعة واحدة على قبر زوجها وهي تدفنه.. هـذه المرأة ينبغي أن يرونها الآن.. تقدمها لهم فـي الحفلـة الساهرة التي تقيمها في العزبة.. وتدعو لهـا صـديقتها الأميـرة وبعـض رجـال الثـورة.. وعلـي أبو ريشة .. تثبت للثورة أنها ما زالت المرأة القوية التي لا تخافهم وما زالت تقيم حفلاتها الساهرة ولم تتغير، ولا تجلس لتنتظر مكالمة تليفونية في سراي المنيرة.. ومـن منطلق هذه القوة تعقد صفقتها مع علي أبـو ريشـة ..

تعطيه المال .. وتأخذ نفوذه ويشهد سمير عبد الكريم عقد الصفقة ليجعلها تكسب بأفضل الشروط..

نظرت في الساعة. تريد أن تسابق الزمن.. تطير لتصل للعزبة.. لتبدأ في ترتيبات الحفلة الساهرة.. يغني المطرب الجديد صاحب الصوت الذهبي الذي اكتشـفه.. لترقص معه وحيدة.. وتعلن للصحفيين أنها حفلة من أجل انتصار الثورة المباركة.. ووجدت نفسها تصـرخ فـي السائق الذي يقود عربتها بسرعة:

- أسرع يا عم حسن..

الفصل الثالث

فوجئ سمير عبد الكريم بحركة غير عادية فـي العزبة.. فهم منها أن زينب هانم ستقيم حفلة.. أصـيب بالذهول .. تقيم حفلة في العزبة وهو الذي يخاف من أن ينتحر رامي حزنا على أبيه الباشا. شعر بأن زينب هانم تتجنب الحديث معه.. لا تريد أن تحدثه حتى لا يعترض على إقامة الحفلة . خاف أن يصل إلى رامي خبر الحفلة فينتحر.. أحس بمسئوليته عن صديق عمره. أسرع إلـى زينب هانم التي كانت منهمكة فـي إصـدار التعليمـات قال:- حفلة يا زينب هانم!

قالت في نبرة غير نبرتها الرقيقة : وساهرة..

- ورامي..

- هذه الحفلة من أجل رامي..!

صمت. كأنه يقول بصمته. لا أفهم ما تقولين..

قالت زينب هانم في انفعال : أنا ليس عندي غير رامي .. ولا أستطيع أن أعيش إذا أصابه أي سـوء .. وواجبي أن أحميه من شرهم..

وأوشك أن يقول : ستتدهور حالته ولكنه قـال : سيغضب..

قالت بلهجة قاطعة : رامي ما زال صغيرا.. ولا يعرف مصلحته..

وقالت لتجعله يكف عن الكلام: أنا أعلم بمصلحته منه..

وأنقذها من المزيد من الحوار ظهور مصـطفى الكاشف الذي وصل مـن القـاهرة قالـت بمجـرد أن أبصرته: أريدها حفلة غير مسبوقة يا كاشف..

قال كما لو كان جنديا:- تمام يا أفندم

نظرت إليه، كأنها تسأله عن سـر هـذه اللغـة الجديدة فقال : نحن في عصر العسكر يا برنسيسة..

ضحكت.. تضايق سمير.

قال مصطفى الكاشف : سنقيم وليمة كبيرة ندعو إليها المماليك وندير رءوسهم بالشواء ونطلـق النيـران عليهم.. ولن يفر أحد منهم..

وقال بنبرة جادة : ستحاصر أسوار القلعة..

ضحكت زينب هانم وهي تقول : أتظن أنك فـي عصر جدك الكبير مصطفى الكاشف الذي كان يعمل عند محمد علي الكبير

تصور سمير أن مصطفى سيضحك ولكن نبرتـه ازدادت جدية وهو يقول : لم تتغير الدنيا كثيرا..

وأبصر على وجه سمير عدم الرضـا فقـال: لا تسألي يا برنسيسة الفيلسوف الصغير.. فمنذ التقيت بـه

حاولت أن أقنعه بأننا فـي أيـام اللاأسـئلة ولكـن دون جدوى..

ونظر إلى سمير الذي بدا علـى وجهـه عـدم الموافقة على كلامه وقال الزمن سيقنعك يا صغيري بأنه لا فائدة كما قال سعد زغلول باشا!.

وأخرج سوطا من جيب معطفه وقـال: عنـدما أصل إلى هنا.. لا بد أن يظهر صديقي هذا.. الفلاحـون يحبون أن تشوى ظهورهم بهليبه..

ونظر إلى سمير وقد وضح الغضب على وجهه: هذا تراث .. وأنا أحب الأصالة.. جدي الأكبر مصطفى الكاشف صاحب هذا الاختراع الساحر منذ أيـام محمـد علي الكبير.. عندما يظهر الفلاح .. لا بـد أن يظهـر الكرباج ووصيته لأولاده وأحفاده ألا نلقي هذا السوط من أيدينا إذا أردنا النجاح..

وتحسس السوط كما لو كان يتحسس ظهر قطـة صغيرة يدللها.. ونظر إلى زينب هانم وقال: أتعرفين يا برنسيسة .. أنا أحببت سمير كما لو كان ابنـي.. كلمـا أنظر إلى عينيه وأرى بريقهما أشعر بأن ابني الذي مات بعث فيه..

لم يعجبها أن يقول عن سمير صديق رامي أنـه ابنه فقالت غاضبة : أنا لست برنسيسة يـا كاشـف أنـا واحدة من الشعب .. الصبية التي كانت ترعى حيوانات الباشا.. لا تذكر كلمة برنسيسة مرة ثانية.. نحـن فـي ثورة..

قال: حاضر يا برنسيسة..

قالت له: لا وقت عندنا.. الترتيبـات لا بـد أن تنتهي على الفور!

انحنى وهو يقول : السمع والطاعـة يـا بنـت أفندينا..

وانسحب بخطوات نظامية كما لو كان جنديا فـي الجيش..

قالت زينب هانم لسمير : برغم هذا الجنون فأنـا لا أستطيع أن أستغني عنه..

أراد أن يقول لها: لأنه سوطك .. ولكنه صمت..

شعرت بأن سمير يريد أن يقول كلاما لا تريد أن تسمعه فقالت بسرعة لتجعلـه لا يقولـه: أعـددت لـك مفاجأة .. حذر..

- رامي وصل..

قالت بسرعة : أحضرت لك حلة من باريس..

اضطرب.. فهم أنها لا تعجبها حلته. شعرت بأنها قد أهانته.. أشعرته بأن ملابسه التي يرتديها ليست فـي مستوى حفلة تقام في عزبتها فقالت: لا أقصد.. سأرتدي

فستان سهرة.. وأنت ابني .. لا بـد أن ترتـدي حلـة سهرة..

- لن أحضر الحفلة..

- غضبت؟

- أنا لا أحب مثل هذه الحفلات وغيـر مسـتعد نفسيا لأن...

قاطعته قائلة: أعرف أن الحفلـة مفاجـأة لـك.. فكرت فيها في الطريق.. أنت جعلتني أفكر فيها..

قال مندهشا: أنا؟!

- لقد أشعرني حديثك في السيارة بأنني قويـة.. صدقني يا سمير لم أشعر بأنني قوية منذ انتحر زوجـي إلا في هذه اللحظة.. وأنت بجواري في العربة.. فقررت أن أتحداهم..

أوشك أن يقول لها: أنا لا أوافق على تحـديهم.. ولكنه لاذ بصمته وهي تقول: أنا مازلت بنت أفنديا.. لا بد أن تصلهم هذه الرسالة حتى لا يقتربوا من رامي..

وقالت في رجاء : سمير لا تخذلني .. ستحضـر الحفلة.

ابتسم وهو يقول : سأحضر بشرط..

قالت بسرعة:

- سأعفيكِ من حلة السهرة..

***

شعرت وهي تتزين أمام المرآة كما لـو كانـت عروسا تزف.. وعريسها هو سمير عبد الكريم.. نظرت في المرآة وهي تتزين للحفلة الساهرة أخرجت أكثر من فستان من دولاب ملابسها.. ماذا ترتدي في أول الليلـة وفي آخرها؟ تنادي سمير تستشيره كما لو كان عريسها..

تريد أن تسترد شبابها بزواجها من شـاب مقبـل علـى الحياة. لقد عرفت سمير منذ كان تلميذا فـي الابتـدائي يدرس مع ابنها. فقد كانت تشعر بالعطف عليه؛ فابنها لم يكن يحتاج إلى العطف.. لأن الباشا كان يحيطه برعايته إلى حد التدليل المفسد.. ولكن سمير لم يكن يجـد أحـدا يرعاه فاهتمت به.. حتى شعرت بأن ابنها رامي يغار من رعايتها له.. من حقها بعد أن أصبح رجلا أن يرعاها.. لقد كبر وأصبح صحفيا مرموقا في الجامعـة.. يـرأس تحرير مجلة لشباب الجامعات.. ويقابل رجـال الثـورة ويحظى بثقتهم.. نضج أكثر مما كانت تتوقـع.. ومـن حقها- الآن – أن تقطف ثمرتها.. وخاصة أنهـا تشـعر بالوحدة.. ولا تطمئن إلى المستقبل.. وتخـاف مـن أن تنهشها الغربان.. تزينـت.. وبالغـت فـي زينتهـا .. وخرجت إلى الحديقة التي ازدانت.. تريد أن يكون سمير أول من يراها.. وتسأله هل أعجبه فسـتانها؟ فوجئـت بالعمدة عبد التواب يجلس مع سمير عبد الكريم.. قال لها

العمدة بفرحة: تعرفت على الأستاذ سمير عبد الكـريم.. زين الشباب كما أخبرتني .. وأكثر

بدا على وجهها الدهشة فقال: أنسيت أنك حدثتني عنه؟!

تذكرت أنها كانت تريد أن تزوجه مـن قريبـة للعمدة تملك مائة فدان وهي في مجال عطفهـا عليـه.. ولكن الآن تريد أن تستحوذ عليه ويصـبح خاتمـا فـي إصبعها أوشكت أن تقول له: كان هذا فـي الماضـي.. ولكنها لاذت بصمتها وهو يقول : خير عريس..

ارتبك سمير: تذكر أن رامي قال له إن أمه قـد اختارت له عروسا غنية.. قريبة لعمدة بلدهم..

قال العمدة: نريد أن نقرأ الفاتحة..

وقبل أن يقول سمير شيئا قالت بسرعة هذا حديث سابق لأوانه يا عمدة.. سمير سيسافر إلى فرنسا ليحصل على الدكتوراه..

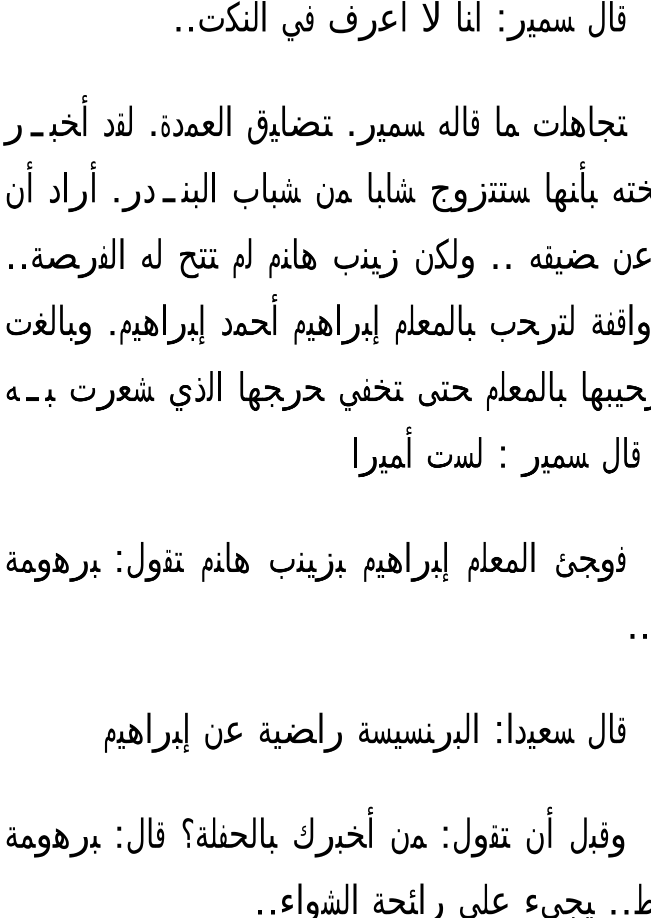
اندهش سمير. لم يفكر في السفر لباريس ليحصل على الدكتوراه. واندهش أكثر وهو يسمع العمدة يقـول: تنتظره العروس.. ما زالت صغيرة..

أرادت زينب هانم أن تنهي الحوار.. فقد خشـيت أن يقول سمير شيئا يضايق العمدة الذي يرعى مصالحها وخاصة في أيام الإجراءات الاستثنائية فقالت: ابنة أختك تستحق أميرا..

أراد أن يقول سمير: لن أتزوج..

ولكنه قال: وأنا لست أميرا

وضحكت، وكأن سمير قال نكتة.. قالت: لم أكن أعرف أنك خفيف الظل هكذا..



قال سمير: أنا لا أعرف في النكت..

تجاهلت ما قاله سمير. تضايق العمدة. لقد أخبـ ر ابنة أخته بأنها ستتزوج شابا من شباب البنـ در. أراد أن يعبر عن ضيقه .. ولكن زينب هانم لم تتح له الفرصة.. هبت واقفة لترحب بالمعلم إبراهيم أحمد إبراهيم. وبالغت في ترحيبها بالمعلم حتى تخفي حرجها الذي شعرت بـ ه عندما قال سمير : لست أميرا

فوجئ المعلم إبراهيم بزينب هانم تقول: برهومة وصل..

قال سعيدا: البرنسيسة راضية عن إبراهيم

وقبل أن تقول: من أخبرك بالحفلة؟ قال: برهومة كالقطط.. يجيء على رائحة الشواء..

وقال في نبرة جادة: ولا تنسي يا زينب هـانم أن المعلم إبراهيم أحمد إبراهيم لا يتأخر عن الواجـب ولا يحتاج إلى دعوة..

قالـت ضـاحكة : وخاصـة أن أكـابر البلـد سيحضرون..

أبصر المعلم إبراهيم العمدة عبد التواب جالسـا فأراد أن يقول له إنه أصبح مهما فقال: لقد عرفت بخبر وصول زينب هانم للعزبة لإقامة الحفلة مـن المركـز.. يخبرونني بكل صغيرة وكبيرة

ونظر إلى العمدة ليرى تأثير كلامه عليه .. ولكنه وجده قد قام من جلسته.. وبرغم هذا قال : دبـة النملـة أسمعها في هذه البلد..

وأوشك أن يقول: لم أعد أنام منذ تولى العسـكر السلطة.. ولكنه صمت عندما أبصر سمير عبد الكـريم الذي يكتب في مجلة التحرير سلسلة مقالات عن الأحياء

العشوائية تحت عنوان: هنا يسـكن الشـعب يـا وزراء الشعب.. فلا يمكن أن يكتب هذا الكلام بكل هذا التجاسر إلا إذا كان واحدا من رجال الثورة .

فطنت زينب هانم إلى أن إبراهيم لم يكمل كلامه خوفا من سمير فقالت ضاحكة: لا تخف ..سمير صديق رامي..

قال المعلم إبراهيم.. اعذرني يا سمير بك.. أولاد الحرام كثيرون ومحسوبك قلبه خفيف..

وكما لو أن زينب هانم كانت تنتظـر مـا قالـه لتمتدح أخلاق سمير؛ فأسرع إبـراهيم يقـول: الكتـاب يعرف من عنوانه.. وعنوانه البرنسيسة..

خافت أن يكون بعبارته يلمح لوجوده في العزبـة دون أن يكون ابنها رامي معها فقالت لتجعله يصـمت: ماذا تريد يا إبراهيم؟

اندهش من سؤالها فقال ليحول السؤال إلى نكتة: القرب!

بعينك يا تاجر التراب..

أعرف أن عيون البرنسيسة لا تقدر بمال..

وأخرج دفتر شيكاته من جيبه.. ووقع على شيك وقال : شيك على بياض!

تضايقت منه لأنه أعطاها الشيك أمـام سـمير. تخاف أن تهتز صورتها في عيني سمير.. فتناولت الشيك منه.. وألقت به في النار التي أمامهم. قبل يـدها وهـو يقول : تصرفات برنسيسـة.. وتصـرفات برهومـة.. تصرفات فلاح جلف..

أبصر سمير عبد الكريم علي أبو ريشة أمامهما. فهب واقفا يرحب به.

انتهزت زينب هانم الفرصة وقالت لإبراهيم: أنت غبي.

أعذري الفـلاح عنـدما يكـون فـي حضـرة البرنسيسة..

كلامك ألماظ يا برهومة..

الفلاح استنار..

وقالت بصوت خفيض : ماذا تريد؟..

أن يصل إليهم أنني لست من رجال العهد البائد..

وأكملت كلامه قائلة: وعلى استعداد أن تكون بناء الثورة!

قال مهللا:

الألماظ وصل يا جدعان!!

أسرعت زينب هانم تتركه حتى لا يسترسل فـي حديثه ويفضح اتفاقهما بحماقته. واتجهت إلى علي أبـو ريشة الذي كان منشغلا بالحديث مع سمير عبد الكـريم فقال لها علي أبو ريشة: رامي كأبيه..

فقد ظن أن سمير هو رامي.. كانت زينب هـانم قد أخبرته بأن رامي شكل أبيه..

ارتج على سمير. حاول أن يقول له إنـه لـيس رامي وإنه سمير عبد الكريم صديق رامي ولكنه لم يتح له فرصة راح يتحدث عن عظمة شوكت باشا وذهولـه لأنه اختار الهروب من الحياة برغم أنـه يعـرف حبـه الشديد للحياة.. ونضاله من أجل أن تقوم الثـورة.. فقـد كان عين الأحرار على الملك ولـو عـرف جواسـيس القصر أمره لكان مصيره رصاصة تستقر في قلبه فـي ظلام الليل..

وقال وهو يشعل سيجارا: المرحوم والدك.. كان شخصية نادرة خسرتها الثورة..

وقبل أن يقول: كان مرشحا للـوزارة.. سـمعت زينب هانم تقول في دلال أنا عاتبة عليك وقبل أن تكمل عبارتها وتقول: لم تعزني في المرحوم قال بسـرعة: لا أستطيع أن أتأخر عن تلبية دعوة لبنت أفندينا وخاصـة لكي أرى رامي.. كنت أريد أن أرى الباشا الصغير..

فطنت إلى أنه يعتقد أن سمير هو رامي فقالـت ضاحكة ليس رامي .

نظر أبو ريشة لسمير فقال سمير في اعتـداد: - سمير عبد الكريم صحفي.. صديق رامي.

قال أبو ريشة في ثقة: أنا لم أخطئ عندما قلـت لك الباشا الصغير فأنا واثق أن لا فـرق بينـك وبـين رامي..

قال زينب هانم تجامله: أنت على صواب دائما..

لا تجاملينى يا بنت أفندينا..

أوشكت أن تقول إنها تريد أن تنسى أنهـا بنـت أفندينا حتى تسامحها الثورة علـى علاقتهـا بفـاروق.. ولكنها صمتت عندما قال المعلـم إبـراهيم: الصـحفي العبقري..

قال أبو ريشة : كما لو أنه وجد فرصة ليظهـر تواضعه: ليس إلى هذا الحد..

قال إبراهيم: وأكثر..

اغتاظت زينب هانم من تدخل المعلم في الحديث فقالت ساخرة : تاجر التراب

قال المعلم إبراهيم، كما لو أنها لم تسـخر منـه: تاجر التراب. لا يريد أن تضيع منـه الفرصـة يسـأل ويعرف.

قال أبو ريشه في شيء من الود فهو يعـرف أن المعلم من الأثرياء: تريد أن تسألني إلى أين نمضي؟

قالت زينب هانم مغتاظـة: لـيس هـذا وقـت السياسة..

قال أبو ريشة: دعيه.. سأجعله يرتاح..

وجدها فرصة لينافقه فقال ألم أقل إنك عبقـري: تعرف سؤالي قبل أن أسأله..

لم يعلق على كلمة العبقـري، وبـدا أنـه سـعد بسماعها وهو يقول: تقصـد إلـى الرأسـمالية أم إلـى الاشتراكية.؟

تضايقت زينب هانم منه لأنه جعل أبـو ريشـة يقول لها دعيه.. لذا عندما سمعته يقول :التراب جبـان بدلا من أن يقول رأس المال جبان قالت: مثل صاحبه..

قال المعلم : بصراحة أنا خائف..

قال أبو ريشة كما لو أنه مـن رجـال الثـورة: المواطن الشريف لا يخاف..

قال بصوت خفيض حتى لا يسمعه سـمير عبـد الكريم فقد خاف أن يكون مـن كتـاب التقـارير: أولاد الحرام يكتبون العرائض والثورة حسنة النيـة تريـد أن تطهر..

قالت زينب هانم ساخرة: تظن نفسك من الأسرة المالكة!

تجاهل ما قالته زينب هانم وقال: أنا خائف مـن أن يعتبروني من الأعداء لأنني بنيت قصرا للملـك فـي انشاص.. لقد أرسلت لهم برقية أضع نفسي...

قاطعته زينب هانم في تهكم: وكل ترابك..

واستمر في حديثه..

تحت أمرهم.. أنا صاحب خبرة في البناء وعلـي استعداد أن أبني هرما جديدا!

قال الصحفي الكبير: هناك مشروع..

قال إبراهيم: السد العالي.. أعرف ما يفكرون فيه

قال أبو ريشة ضاحكا: الرجل الجاهز..

جندي سلاحه صاحٍ..

قالت زينب هانم ساخرة: في المعركة..

قال إبراهيم : وفي أول الصف..

قال أبو ريشة كما لو كان من رجال الثورة: كن مستعدا..

قال إبراهيم: تمام يا أفندم..

لم يعجب سمير عبد الكريم تهافت المعلم إبراهيم على تقديم الولاء للثورة فقال موجها حديثـه للصـحفي الكبير:

لا تعجبني الزفة

تأكد إبراهيم بعد أن قال سمير هذه العبارة أنه من كتبة التقارير.. يقول هذا حتـى يسـتدرجه إلـى سـب الثورة.. ويجد مادة يكتبها فقال في انفعال: أنا لست مـن هؤلاء أنا أحب الثورة.. ومن رجالها المخلصين..

قالت زينب هانم تدافع عن سمير: أنت يا رجـل على رأسك بطحة!

أنا رجل حملت التراب على كتفي..

لم يقل سمير أنك حملت الطوب..

أنا ثوري..

قالت زينب هانم في غضب: معلم إبراهيم.

قال المعلم إتكتمت!

قال أبو ريشة كما لو أنه لم يسمع ما قاله إبراهيم: في كل الثورات يحدث هذا.. وعلي الثورة إلا تقع في فخ النفاق!

قال سمير في اهتمام تعتقد أنها متيقظة..

قال أبو ريشة بثقة: أنا واثق أن هناك رجـلا لا ينام الليل..

قال المعلم بانتهازية : من هو؟

قال أبو ريشة بخفة ظله: مش حاقولك..

قال سمير في انفعال: هذه الثورة.. ثورة جيلـي لقد كنا ونحن نذاكر القانون في كلية الحقوق مع بعـض زملائي نحلم بالثورة.. ونفكر في اغتيال الملـك وهـو

يمشي في شارع قصر العيني .. وفجأة استيقظنا من نومنا لنجد الثورة قد قامت.. فنزلنا فرحين نوزع الشربات..

وانشغل علي أبو ريشة عن حديث سمير بحديث هامس في أذن زينب هانم. تضايق سمير لأنه انصرف عن حديثه فقالت زينب هانم وقد أحست بضيقه: معجب بي.. يغازلني..

قال سمير بصوت بدا فيه انفعاله : خيانة الثورة خيانة لنا

قالت زينب هانم وهي تتصنع الدلال: أنا الثورة..

قال إبراهيم: من يخونها يخون مصر..

قالت زينب هانم ضاحكة: ألم أقل.. أنا مصر

قال سمير دون أن يدري: مصر فوق الجميع..

لم يعجب أبا ريشة أن يصل الحوار إلـى هـذه الصورة فقال لينهيه ورائحة الشواء تغمرهم: نحن فـي حفل شواء والسياسة مفسدة للشواء.

وضحك المعلم إبراهيم في اللحظة التي دخل فيها السيد الشرقاوي أحد رجال الثورة.. تجمـدت ضـحكته عندما أبصر أمامه الرجل الـذي يـرى صـورته فـي الصحف ويخطب في الإذاعة باسم الثورة.. فقفـز مـن مقعده واندفع نحوه يصافحه بحرارة.. أراد أن ينافقه فقال بصوت عال: مفاجأة الحفل الساهر..

قال السيد الشرقاوي ساخرا: لست مغنيا..

ورغم أنه قد ضحك بعد أن قال عبارتـه إلا أن إبراهيم قد تملكه الخوف.. لقـد جانبـه التوفيـق فقـال معتذرا: أنا لم أقصد يا باشا

قال السيد الشرقاوي غاضبا: قمنا بالثورة لنقضي على الباشوات..

سمعها المعلم إبراهيم كما لو أنه قال: لقد قامت الثورة لتقضي عليك فسقط قلبه في قدميه..

قالت زينب هانم لتنقذ إبراهيم من المأزق الذي وقع فيه:

أنت مفاجأتنا السارة..

فتح السيد الشرقاوي عينيه على اتساعها.. يسمع – لأول مرة – كلاما جميلا من زينب هانم فقال سعيدا:

لقد قامت الثورة فعلا!

تذكر الأيام التي أمضاها في العزبة هاربا من البوليس السياسي فقال ليبرر سعادته:

في هذه العزبة عشت أحلى أيام نضالي..

تملك زينب هانم الزهو.. جعلته حاكما.. وبدلا من أن تقول له:

جعلت منك حاكما قالت:

الباشا كان يتنبأ لك بأنك ستكون من الحكام..

قال وقد فطن إلى ما تعنيه بكلامها:

ولا يمكن أن ينسى الشرقاوي صاحب الفضل..

وتذكر أنه كان يعلمها ركوب الخيل فقال:

ما زلت فارسة؟!

قالت ضاحكة:

ومازلت ماهرة..

ونظر الشرقاوي إلى علي أبو ريشة فقد أحسـن أنه ينسج شباكه حولها

فقال:

ولا تحتاجين لمن يعلمك الفروسية الآن؟!

قالت تغيظ أبو ريشة.. فلم تعجبها نظرته المتعالية التي تقول لها إنه فوق المنافسة:

والفضل لك..

شعر الشرقاوي بصدق ما أحس به عندما أخبره أبو ريشة بأنه سيلبي دعوة زينب هانم لحضور حفلتها ويترك كل أعماله.. ولكنه أصبح من الحكام يستطيع أن يصرعه بضربة قاضية.. ويأخذ زينب هانم من بين أسنانه.. فضحك.. لا يريد أن يفسد استمتاعه بعودته للعزبة منتصرا.. شعر بنشوة النصر.. أبصر علبة سيجار أبو ريشة.. مد يده .. تناول سيجارا وهو يقول أحب تدخين السيجار في علبتك بالرغم من أنني لا أحب رائحته!!

أشعل أبو ريشة ولاعته الذهبية.. ومد يده ليشعل للشرقاوي سيجاره.. وضع الشـرقاوي سـيجاره علـى المنضدة التي أمامه وقال في اهتمام:

أصحابك بدءوا اللعب معنا!!

أطفأ أبو ريشة الولاعة.. تضايق من حركتـه.. يعرف أنه يحب المباغتة فقال ضاحكا يرد له حركته:

تقصد أصحابك الأمريكان..

تجاهل الشرقاوي ما قاله علي أبو ريشة.. وقـال ليخيفه:

الرجل غاضب!

ضحك أبو ريشة.. يريد أن يقول بضحكته أنه لا يخاف من الرجل الكبير مثله.. وقال بصوت عال لتسمه زينب هانم: الأمريكان. وأنت سيد العارفين.. أصلهم كاو

بوي .. ومن المصلحة ونحن نتعامل معهم ألا نـذكرهم بأصلهم حتى لا يطلقون النيران من مسدساتهم!

قال الشرقاوي وهو ينظر إلى زينب هانم التـي انتبهت إلى حديثهما:

ليتهم هم الذين يطلقون النار.. فيكون لنا شـرف اللعب مع الكبار.. ولكنهم يتركـون ابنـتهم المدللـة.. إسرائيل .. تلعب بالنيابة عنهم.

قال أبو ريشة ليبدو أهم منه في عينـي زينـب هانم:

اختلف معك يا جنـرال.. لـيس الأمـر بهـذه البساطة..

خافت زينب هانم من أن ينتصر أبو ريشة علـى الشرقاوي فقالت:

ليس وقت الاختلاف يا علوة.

اغتاظ أبو ريشة من زينب هانم لأنها لا تريد أن يكمل كلامه فكتم غيظه في صمته وتضايق الشـرقاوي من كلمة علوة، ترفع الكلفة بينها وبين أبو ريشـة فقـال ضاحكا يخفي ضيقه:

زينب هانم محقة يا علوه.. هذه ليلة الغناء..



عبد المنعم الغريب لوحيدة..

أنا خائف .. جتتي بتترعش!

من آيه يا عبيط؟!

أنا مش متعود على الناس الهاي.. عمـري مـا دخلت عزبة..

دي عزبتي يا واد..

أنت صاحبة العزبة..

أصل احنا صحاب من زمان.. أنا والست الهانم.. مابتقدرش تستغنى عني. بنشرب الشاي مع بعض . كل يوم في الجنينة تحت تكعيبة العنب.. أمـال أنـا جبتـك إزاى.. قلت لها يا زينب هانم فيه مطرب صوته ألمـاظ سمعته في حفلة كنت بارقص فيها.

صحيح أنا صوتي ألماظ..

دلوقتي تشوف لما تغني ويعجبوا بيك.. ما تخافش ها دخل معاك ومش هاسيبك .. وهارقص وانت بتغني.. وهاخليهم يسأفولك

قال يستدر عطفها: أنا يتيم يا وحيدة.. إتربيـت في ملجأ.. وماليش أم ولا أب.. ولا حد.. وخايف لحسن أفشل

احتضنته وهي تقول بشهامة ابنة البلد: أنا أهلـك يا خويا.. ومش هاتفشل..

وانفتح الباب ودخل مصطفى الكاشـف وفـوجئ بهذا المنظر فغضب؛ فهو يحب وحيدة ويغار عليها فقال: ا .. ا

وقبل أن تتكلم وحيدة وتشرح لـه الأمـر قـال مصطفى الكاشف : أنت مين يا ولد؟

ارتج على عبد المنعم فقال متقلش ولد.. أنا عبـد المنعم الغريب

طظ..

قال عبد المنعم وقد شعر بأن كرامته قد جرحت : أنا لا أسمح لك..

وقبل أن يكمل عبارته قال له الكاشف: إخرس يا كلب..

وكأن عبد المنعم قد أصيب بالشلل فلـم ينطـق بشيء.. وكما لو أن مصطفى الكاشف انتهـز الفرصـة وقال: أخرج بره..

وقبل أن يقول عبد المنعم: تطردني .. انـدفعت وحيدة تحميه بجسدها فقد تصورت أنه سيمسكه من خناقه ويخرجه من الحجرة ليطرده رجاله من العزبة وقالـت: اطردني أنا!

وقبل أن يقول الكاشف شيئا. انفتح الباب لتـدخل زينب هانم قالت للمغنـي دون أن تنتبـه لمـا حـدث: استعد ..ستغني بعد قليل. وحيدة تمتدح صوتك.. وأنا أثق في ذوقها.

والتفتت إلى مصطفى الكاشف الذي قال : صوته جميل فعلا..

قالت زينب هانم: سمعته..

قال الكاشف : سمعته في حفلـة مـن الحفـلات وأعجبت به

اندفع المغني قائلا: ما سمعنيش يا ست هانم وأنا مش هاغني..

وكأنه لم يقل شيئا فقالت : سترفع رأسي .. رجال الثورة والكاتب الكبير علـي أبـو ريشـه سيسـمعونك دلوقتي..

قالت وحيدة ترجوه أن يغني: زينب هانم

وكأنها قالت: زينب هانم هاطلعك فوق

قال المغني وهو يكاد يبكي : أنا أهنت يـا سـت هانم..

فطنت زينب هانم إلى أن مصطفى قد أساء إلـى المغني لأنه يحب وحيدة ويغار عليها فقالت للكاشف دون أن تسأله: اخرج..

انحنى الكاشف في خضوع قائلا وهو يخـرج : السمع والطاعة يا برنسيسة..



قال السيد الشرقاوي وقد رفع الكلفة بينـه وبـين زينب هانم: الطرب يا زنوبتي.

انزعج سمير عبد الكريم من عبارة الشرقاوي

تصورت زينب هانم أن انزعاجه يرجع إلى أنها لم تستجب لرغبته في ألا يكون هناك غنـاء ورقـص.. فقالت لتبرر لسمير عدم الاسـتجابة لرغبتـه: وصـية الباشا.. لقد ترك رسالة قال لي فيها.. لم أختـر لحظـة ميلادي.. لذا سأختار رحيلي .. فلا تحزني .. وأقيمـي فرحا.. لأني استطعت أن أقول إن الحياة فيها كـل هـذا الظلم.. والألم الفـادح.. لا .. وامتلكـت الشـجاعة لأن أتركها في الوقت الذي أريده .. افرحي يا زينب.

قال أبو ريشة : شوكت باشا كان فيلسوفا..

قال سمير بصوت خفيض: الحياة عمار الدنيا

قال الشرقاوي وقد سمع عبارة سمير فقال: ليس وقت الفلسفة.. رأسنا أصابها الصداع من الكلام.

قالت زينب هانم : الباشا كان يحب الفلاحين.. ما رأيكم نطعم الذين يحبهم أولا..

قال سمير عبد الكريم: حتـى يشـعروا أن فـي بلادهم ثورة..

قال المعلم إبراهيم الـذي كـان صـامتا: هـذه شيوعية..

قالت زينب هانم وكأنها لم تسمع عبـارة المعلـم إبراهيم: سيسعد الرجل الكبير عندما يسمع أننا احتفلنـا بنجاح الثورة ونجاته في المنشية بإطعام الغلابة..

قال الشرقاوي في حماس: فكرة هايلة.

قال أبو ريشة: ثورة على الثورة..

ونظرت زينب هانم إلى سـمير وكأنهـا تقـول بنظرتها سيسعد رامي..

ودخل سيد أحمد.. قالت له: افتحوا الأبواب للناس الغلابة.. ليأكلوا الأول

لم يصدق سيد أحمد – الفلاح الذي يلقبونه بالفلاح الفصيح – ما سمع فلم يتحرك.. وعندما كررت زينـب هانم كلامها مرة أخرى.. جرى سيد أحمد وهو يقـول: تحيا زينب هانم نصيرة الغلابة..



قالت زينب هانم: والآن نبدأ الغناء..

قال الشرقاوي : والرقص..

ودخلت وحيدة في بدلة الرقص ومعها عبد المنعم.. اتفقت معه على أن يرقص وهو يغني .. وفوجئت به بمجرد أن سمع تصفيق الجالسين يقول: سأغني لكم الأول.

شعرت وحيدة بأنه قد طعنها وقالت وهي تتماسك: سأرقص بعد أن يغني..

وغنى عبد المنعم أغنية من تلحينه.. فلم تعجب المعلم إبراهيم فقال له: نريد أن نسمع أغنية لأم كلثوم

قال عبد المنعم: لا أحفظ أغاني أم كلثوم

قال إبراهيم: الذي لا يحفظ أغاني أم كلثوم لا يصلح لأن يكون مغنيا ..

قال الشرقاوي لإبراهيم : لا تصادر حرية فنان..

قال إبراهيم: لا أقصد..

قال الشرقاوي: اعتذر له

أنا آسف يا أستاذ عبد المنعم

وقال السيد الشرقاوي ليرفع من معنويات المغني: عبد المنعم صوته جميل.. والثورة في حاجة إلـى هـذا الصوت..

قال أبو ريشة : مغني الثورة

قالت زينب هانم: هذه شهادة ميلاد الك يا منعم..

ولم تتمالك وحيدة نفسها وزغردت..

الفصل الرابع

قالت زينب هانم لسمير وهي تدخله حجرة النـوم الواسعة:اخترتها لك لأنها حجرة عزيزة علي .. عنـدما كنت أغضب من شوكت كنت أنام فيها..

وخرجت.. أسرع سمير يطفئ النور.. يريـد أن ينام.. أرهقته ليلة الحفلة.. يدفن تعبه في نومه.. ولكنـه وجد أحداث الرحلة المثيرة تقفز أمام عينيه كما لو كانت امرأة لعوب تشاغله.. وصوت زينب هانم يرن في رأسه وهي تقول له: أنا لم أعش حتى الآن.. ملابسي السوداء التي ارتديتها ليست من أجل الحداد على الباشا إنما على عمري الذي مضى دون أن أجد الرجل الـذي يعطينـي الأمان.. أنا صغيرة .. تزوجت الباشا ولم أبلغ السادسـة عشرة.. تزوجني لأنه يرى في الملكة فريدة.. وتنفجـر بالبكاء.. خيل له أنها تنام في الحجـرة معـه.. يسـمع صوت البكاء.. تملكه الخوف..أشعل نور الحجرة.. نظر

حوله كما لو كان يبحث عنها. لم يجدها.. ضـحك مـن وهمه.. قفز من السرير.. نظر في المرآة..

لم يجد نفسه.. وجد إنسانا آخر.. يرتدي جلبابـا ليس جلبابه.. قالت له لا أعرف أين حقيبتك .. وأعطتـه جلبابا.. خيل له في هذه اللحظة – امرأة أخرى.. ليست أم صديق عمره رامي.. التي يحترمها .. إنها قالت لـه: إنني أنام في الحجرة المجاورة.. خاف أن تشـعر بأنـه أضاء نور الحجرة.. وتجيء ولا يعرف ماذا يقول لهـا؟ أسرع يطفئ النور ، يتستر بالظلام ويخرج إلى حديقـة العزبة التي أحبها.. يجلس في الهواء الطلق.. يـتخلص من اختناقه.. فوجئ بالصباح يغمره بنوره.. ارتاح لنور الصباح.. جلس على مقعد بين النخيل.. أغمض عينيه.. يريد أن يسترخي.. سمع صوت بكـاء مكتـوم انشـغل بزقزقة الطبيعة وهي تستقبل يوما جديدا عن البكاء، شعر كما لو أنه عصفور يقفز مع العصافير من شـجرة إلـى أخرى.. لم يكن يقفز بجسده.. كانت روحه التي تقفـز..

وكان التعب يغافله ويمنع روحه مـن أن تقفـز علـى الأغصان التي تتراقص!

وفجأة ارتفع البكاء.. قفز من مقعـده.. أبصـر نرجس ابنة مصطفى الكاشف التـي قـدمها لـه تبكـي بحرقة..

فوجئت نرجس بسمير عبد الكريم يقـف أمامهـا وهو يرتدي جلباب الباشا فقالـت بصـوت عـال فـي اندهاش : الباشا!

فطن إلى أنـه ارتـدى جلبـاب الباشـا فشـعر بالخجل .. قال يبرر لها ارتداء جلباب الباشا: الهانم..

وتنبه بعد أن قال الهانم أنه سيقول كلاما قـد لا تفهمه وتخبر أباها الكاشف فيجد الكاشف فرصته ليسيء لعلاقته بزينب هانم. فقد شعر بأنها ابتلعت دموعهـا .. قال لها: ماذا بك؟

قالت بصوت خفيض: لا شيء

قال باستغراب : في الصباح الباكر .. تجلسـين بين الأشجار وتبكين؟

قالت في ألم: ماذا أملك غير البكاء بين الأشجار؟

وصمتت، وكأنها تقول بصمتها: لا تسمعني غير الأشجار في هذه العزبة؟

قال لها وقد شعر بالتعاطف معها :- أنا أسمعك

قالت باسمة: أنت شجرة يا سي سمير؟!..

ضحك.. ضحكته جعلتها تشعر بالارتياح فقالـت بصوت خفيض: مصطفى الكاشف

صمتت

قال: ضربك؟

قالت منفعلة: ضرب الفلاحين الغلابة بالكرباج!

الذين أطعمتهم زينب هانم قبل الضيوف؟

لم يغفر لهم هذا.. عذبهم وهو يقول لهم: كيف تدخلون على الباشوات دون إذن مني .. وتأكلون الخراف؟

أراد أن يقول: من صاحب العزبة؟ ولكنه قال: من صاحب الكلمة هنا؟

قالت: أبي..

قال مندهشا: وزينب هانم؟

قالت: تقول ما تشاء.. ولكنه يفعل ما يريد.. أبي مستبد.. ويكره الفلاحين

تَملّى وجهها فبدت له كزهرة أنضجها الحزن فقال : أنت تحبين الفلاحين؟

وهزت رأسها وهي تقول : أهلي

وتبكين؟

لا أملك غير الدموع

قال: سأخبر الهانم

قالت: وكأنه لسعها : لا .. لا تفعل يا سي سمير

وقبل أن يقول شيئا قالت: أنا أحب أبي.. لا أريد أن تغضب منه زينب هانم

وحاول أن يقنعها بأن الواجب أن يخبـر زينـب هانم فقال: العدل..

العدل الذي جاءت به الثورة.. سمعت جمال عبد الناصر يخطب ويقول ارفع رأسك يا أخي فقـد مضـى عهد الاستبداد

قال لها وقد أعجب بهـا: أنـت تـذهبين إلـى المدرسة؟

وأبي يقول لي لست من طينة الفلاحـين.. أنـت حفيدة جدنا الأكبر مصطفى الكاشف.. الذي اختاره محمد علي باشا الكبير ليقيم العدل.. ولكن عدل أبي كثيرا مـا يكون ظلما..

قال: أنت فلاحة..

شربت من مياه النيل.. ولفحت الشمس جلـدي.. انظر إلى الوشم على ذراعي..

أبصرت زينب هانم نرجس وهي تعري ذراعهـا لسمير.. فقد استيقظت مبكرا كعادتها في العزبة بـرغم نومها المتأخر.

ودخلت حجرة سمير فلم تجده. وأخبرهـا سـيد أحمد بأنه يجلس تحت الأشجار فـي الحديقـة فقالـت :

تجلس مع نرجس.. ولم تكمل عبارتها: وقالـت: وأنـا أبحث عنك.. فقال كما لو كان يدافع عن نفسـه: كانـت تبكي..

نرجس..

ونظرت زينب هانم إلى نرجس نظرة غاضـبة : ماذا يبكيك؟

لم تستطع أن تخفي سبب البكـاء فقالـت: أبـي ضرب الفلاحين بالكرباج لأنهم دخلوا علـى الضـيوف دون إذنه..

وتنبهت أنها قد وشت بأبيها.. فانفجرت بالبكاء.. واندفعت تجري تحتمي بالأشجار..

أوشكت زينب هانم أن تقول لـه : تجلـس مـع فلاحة لتعري لك ذراعها..

ولكنها قالت: الكاشف أصيب بالجنون..

أبصرت الكاشف يقف أمامها وهو يقول: الكاشف أعقل الذين يعملون في خدمة البرنسيسة..

أنت هنا؟

لا يمكن أن تكون زينب هانم مع سمير بك في الحديقة ومصطفى الكاشف غير حاضر.. لو حدث هذا ما كان مصطفى الكاشف يستحق أن يكون حفيد جده الأكبر..

وقال لسمير، وكأنه انتهز الفرصة ليعرفه بتاريخه.. فقد قرر عندما أبصره يدخل مع زينب هانم العزبة أن يزوجه ابنته نرجس فقال: أنت من قراء التاريخ.. سمعت حديثك وأنت تتحدث عن الجبرتي شيخ المؤرخين. أنا أحب هذا المؤرخ العظيم لأنه أنصف جدي الأكبر روى أنه كان يضع صناع الكنافة الذين يغشون على صوانيهم والنار مشتعلة ليعاقبهم.. كان

مهموما بالعدل.. وأنا مهموم بالعدل يا سي سمير مثـل جدي الأكبر..

قالت زينب هانم وقد تضايقت من حديثـه مـع سمير فقد رفع الكلفة بينه وبين سمير فقالت: أنـت كمـا أنت.. لم تتغير

قال الكاشف: أخبر الهانم يا أستاذ سمير.. ولـم يكمل عبارته وضحك..

قالت: ماذا يضحك؟

البرنسيسة لا تعرف الثورة؟

قالت: و أنت تعرفها؟

الثورة توزع الأرض علـى الفلاحـين. باسـم الحرية.. وتسمح بالمظاهرات في شوارع القاهرة تهتف بسقوط الحرية.. أنا لا أقول إنها تفعل هذا في الخفـاء.. تفعله في العلن..

ونظر إلى سمير: أنت تعرف الحقيقة؟

ثم قال: لماذا؟ أقول لك سياسة وأنـا أنفـذ هـذه السياسة.. زينب هانم تفتح الأبواب للفلاحين ليأكلوا قبـل الضيوف.. حتى يعرف المسئولون أن الثورة قد وصلت إلى العزبة وتصل الأخبار للرجل الكبير ونظر إلى زينب هانم وقال: هذا جميل .. أنت صاحبة العزبـة تفعلـين هذا.. ولكن ماذا أفعل أنـا.. الرجـل المسـئول عـن الانضباط .. يقوم بواجبه.. حتـى لا ينفلـت الزمـام.. وتغرق السفينة في النيل.. أدعوهم للإفطار بالكربـاج.. أنفذ سياسة الثورة..

قالت: مجنون

أنا أعقل العقلاء..

وكأنه قال: الثورة سياسة..

انفعل سمير وقال: كذب

واتجه بحديثه لمصطفى الكاشف: لمـاذا قامـت الثورة؟

قال مصطفى: هل تسمح لي الهانم بأن أرد على سمير بك؟

لا تريد أن يتجاوز حدوده ويصبح ندا لـه فـي الحوار فقالت غاضبة: اذهب .. ولا تفعل هذا مرة أخرى

قال مصطفى في خضوع: السمع والطاعة يا ربة العفة والصون

وانحنى وتركهما وانصرف

قال سمير : أقترح أن تطيبي خاطر الفلاحين

قالت لتبدي إعجابها بسمير : فكرة..

لا بد أن يعرفوا أن التي فضلتهم عـن ضـيوفها الكبار لا ترضى بأن يضربهم ناظر عزبتها بالكرباج..

فقالت : تعال معي

اذهبي وحدك..

لا تتخلى عني

قال بسرعة، كما لو أنه يذكرها ويذكر نفسه بأنها أم رامي: كيف أتخلى عن أمي؟

شعرت بأنه يطعنها بعبارته.. فجذبته من يده ليجد نفسه وسط الأجراءِ قد أصابهم الرعب لأنهـم ابصـروا الهانم تدخل عليهم فقالت لهم: لا تخافوا

ولكنهم ازدادوا خوفا.. فلم تجد ما تفعله سوى أن تخرج ما في حقيبتها من مال وتلقي به إليهم.. توقعت أن يتزاحموا يلتقطوا ما ألقته مـن مـال ولكنهـا وجـدتهم يتجمدون في أماكنهم ولا يتحركون..

صرخت فيهم وهي تشير إلى المال الملقى علـى الأرض: خذوا

قال سمير لهم: الهانم تحبكم..

فلم يتحرك واحد منهم.. اقترب منها سيد أحمـد وقال: لا بد من أن يأذن لهم مصطفى الكاشف..

قالت في عصبية : أنا الهانم

قال سيد أحمد:

لا يعرفونك يا ست هانم

وجدت نفسها تصفعه وهي تصرخ: من أنت حتى تقول لي هذا؟

قال سمير عبد الكريم : لا يقصد.. خانه التعبير.. يقصد أن...

قال سيد أحمد مقاطعا: لا تدافع عني يـا أسـتاذ سمير.. أنا أقصد ما قلت.. فالهانم لم تدخل هذا المكـان

الذي يعيشون فيه من قبل.. لذا لم يروها.. يسمعون عنها دائما.. ولكن يرون كرباج الكاشف..

أعجبت بحديثه فقالت كأنها لم تره من قبل: مـن أنت؟

قال : أنا إنسان يرفض الظلم..

أنت سيد أحمد الذي تتولى خدمتي في كل مـرة أجيء فيها إلى هنا..

لأني أحب فيك الإنسانية الطيبة

تذكرت أن مصطفى الكاشف قد قال لها أن هناك فلاحا متجاسرا وطلب منها أن تأذن له بأن يتخلص منـه لأن وجوده خطر على الأجراء لأنـه يحرضـهم علـى التمرد وقد سماه الفلاح الفصيح

فقالت: أنت الفلاح الفصيح؟

قال : لا أستحق هذا اللقب

وقالت: وهي تشير إلى الفلاحين: يحبونك

وأنا أحبهم لأني أحبك

قل لهم.. أن يأخذوا..

بشرط

نظر إليه سمير بإعجاب وقال: أي شرط يا سيد أحمد؟

قال لزينب هانم: أن تناوليهم بيدك المال لا أن تلقي به على الأرض لأنهم ليسوا بعبيد

قالت زينب هانم : أنت على حق..

ثم قالت وقد وضع الإعجاب به على وجهها: لماذا يريد الكاشف أن يتخلص منك؟

قال بلا خوف: لأني أحب

تحب؟!

أحب نرجس..

قالت زينب هانم: والكاشف كاره للبشر.. والـذي يكره لا يعرف معنى الحب قررت أن تأخذه معها إلـى القاهرة فقالت: ما رأيك ؟ تسـافر معـي إلـى سـراي المنيرة..

أنا لا أحب أن أترك أرضي..

ستعيش في السراي معي..

جذوري هنا يا ست هـانم.. وأخـاف أن تقتلـع جذوري من أرضي وأموت!

قالت ضاحكة: تخاف على حبك؟

صمت..

لا تخف .. سنأخذ نرجس معنا..

ضحك كطفل وقال: ويبقى الكاشف في العزبـة ليعذبهم.

لا تخف .. سيجيء معنا .. ليعذبه حبك لابنتـه نرجس..

قال سيد أحمد: أنا لا أحب أن أعذب من أنجـب حبيبتي نرجس

قالت زينب هانم: كان الكاشف محقا في تسميتك الفلاح الفصيح..

تذكرت رامي . تتمنى أن يكون فصيحا مثل سيد أحمد.. طاف الحزن في نفسها. طلبته من العزبـة فـي الصباح ولكنه رفض أن يحدثها. عرفت أن خبر الحفلـة الساهرة قد وصله وغضب فانخطف قلبها قالت لسمير : سنسافر إلى القاهرة على الفور..

قال سمير وقد شعر بما دار في رأسها: اشـتقت لرامي..

الفصل الخامس

طرق سيمر باب جناح رامي المغلق. لـم يفـتح رامي له الباب. خاف أن يكون خبر الحفلة الساهرة قـد وصله وفعل في نفسه شيئا.. فراح يضرب الباب الخشبي بعنف وهو يقول.

- افتح يا رامي .. أنا سمير..

فتح رامي له الباب. قال سـمير بنبـرة وشـت بخوفه:

- أرعبتني..

قال رامي:

- أنا كالعفريت أمامك..

أوشك أن يقول له: أمك منزعجة.. ولكنه قال:

- حصلت على سبق صحفي.. قابلـت بعـض رجال الثورة..

- القتلة!

وكأنه لم يسمع ما قال وهو يقول:

- وأجريت بعض الأحاديث الصحفية.. والتقيـت بعلي أبو ريشة..

أوشك رامي أن يقول لـه ، الطـاووس.. فهـو يعرفه من زيارته لأبيه في السراي ولكنه قال:

- في الحفلة الساهرة..

فوجئ سمير عبد الكريم بعبارته.. فهم من طريقه نطقه بعبارته بأنه غاضب وأنه أغلق باب جناحه الذي لا يغلقه عادة.. احتجاجا على إقامة الحفلة.

فقال ليتجاوز اللحظة:

- تصور عندما رآني أبو ريشة ظنني أنت!

ولم يتح لرامي فرصة لأن يقول شيئا

واستمر في حديثه قائلا

لقد قال لي :أنت مثل أبيـك.. باشـا صـغير .. وحاولت أن أقول له إنني لست رامي .. ولكنه لم يتح لي الفرصة.. أنت تعرفه لا يتـيح لمـن يحدثـه فرصـة الحديث ..

وراح يتحدث عن عظمة الباشا وأن الثـورة قـد خسرته..

يعرف أن الحديث عن أبيه يسعده فقـال ليسـعد رامي:

- الباشا رشح ليكون وزيرا..

- أبي رفض الوزارة

فهم سمير أنه يقصد أيام الملك فقال:

- رشح الآن .. أيام الثورة..

قال رامي في استهزاء:

- من رشحه؟!

ونظر إلى سمير وقال:

- الخونة!

خاف سمير أن يكون قد قصده بكلمة الخونة. فقد خان صديقه.. وسافر مع أمه إلى العزبة وحضر الحفلـة الساهرة فأوشك أن يقول: أنا لم أخنك ولكنك قال:

- أنا لم أخطئ !

قال رامي باسما:

- تقصد ذهابك للعزبة بدون أن أكون معك..

- أنا الذي طلبت منها أن تصـحبك معهـا فـي السفر..

فلم أعد أحب العزبة ولا السفر إليها..

أراد سمير أن يغير الحديث فقال:

- سكرتيرة التحرير تسأل عنك

- مارلين مونرو..

- برح الشوق بها ولم تحتمل غيابك

- ثريا مجرد زميلة أعاملها معاملة طيبة..

- أنا أداعبك..

- عيبك أنك تجعل من الحبة قبة!

- وأنت!

- أعرف نفسي.. والذي يعرف نفسـه جيـدا.. يعرف حقيقة مشاعره.

- ومن تحبها الآن؟

- حبة البركة..

وكما لو أن سمير يسمع الخبر لأول مرة فقال:

- حبة البركة ابنة طباخ باشا!.

قال رامي:

- نعم..

- أبن الباشا يحب ابنة طباخ باشا!

وقبل أن يقول رامي شيئا قال:

- وزينب هانم؟

قال رامي

-الحب يا كاتب المشاعر لا يحتاج إلى إذن.. ولا يعرف الفوارق.. الحب طوفان..

قال سمير:

- ستقلب السراي رأسا على عقب!

قال رامي:

- شيء لا يهم..

- من أين جاءت شجاعتك يا صديقي؟

- الحب يا صديقي..

فرح سمير. الحب سيخرجه من عزلته فقال:

- لن تحبس نفسك في الحجرة بعد ذلك

- سأحبس حبة البركة معي في الحجرة!.

وضحك، كأنه قال نكتة

أحس سمير بأن مزاجه قد اعتدل.. ينتهز الفرصة ويحدثه عن رفضه لشرب الشاي مع أمه كعادتـه كـل صباح بعد أن عادت من العزبة فقال له:

- زينب هانم تحبك..

قال رامي في استغراب:

-تحدثني عن أمي؟!

- لماذا لم تشرب معها الشاي؟

- لأني خائف أن تفلـت منـي كلمـة تجـرح إحساسها..

- أنت تعرف أنها خائفة عليك.. ولقـد أقامـت الحفلة حتى يبتعدون عنك..

قال رامي:

- أعرف أن أمي حزينة على أبي أكثر مني.

وتود لو تخفيني عنهم في عينيها..

احتضن ذراع رامي بيده وهو يقول:

- هيا بنا ننزل لنشرب الشاي..

أبصرا زينب هانم تقـف فـي الحديقـة، كأنهـا تنتظرهما..

تقدم منها رامي وهو يقول:

- صباح الخير..

قالت الأم بفرحتها:

- صباح الخير يا حبيبي.

وأخرجت كل ما معها من أوراق مالية ودستها في جيبه؛ قال رامي:

- معي أكثر من حاجتي..

وقبل أن تقول زينب هانم له شيئا.. أبصرت عربة الأميرة تدخل من بوابة السراي. جمدتها المفاجأة في وقفتها.. كانت تريد أن تدعوها للحفلة الساهرة التي أقامتها في العزبة ولكنها عدلت في اللحظة الأخيرة. وأقنعت نفسها بأن إقامتها لا بد أن تكون قد حددت في قصرها

فلا يمكن أن تتركها الثورة حرة تتحرك كما تشاء..

فتح السائق باب العربة لتجد الأميرة تقف أمامها باسمة وهي تقول لها:

- مفاجأة..

شعرت بالتعاطف معها.. أخذت الثورة منها عزها الملكي .. قالت زينب هانم:

- مفاجأة سارة..

- من وراء قلبك يا زوزو.

شعرت زينب هانم بتأنيب الضمير .. كانت زيارتها لها في الماضي يوم عيد.. والآن تشعر بعدم الحماس فقالت لها:

- اعذريني .. المفاجأة أربكتني..

قالت الأميرة في انكسار:

- تعودت..

قالت زينب هانم في تعاطف:

- الأميرة ما زالت أميرة..

ضحكت الأميرة ساخرة:

- الأميرة السجينة..

وقبل أن تقول زينب هانم شيئا قالت لها:

لم أترك قصري منذ فتـرة .. لا أحـد يمنعنـي ولكني لا أشعر برغبة في الخروج.. الناس قد تغيرت..

خشيت أن تكون قد قصـدتها بعبارتهـا فقالـت بحماس:

- شرفِتني بزيارتك..

- أريد أن أبوح لك بسر.

خير يا حبيبتي

حازم عبد الصادق

خفضت الأميرة صوتها وهي تقول:

- زارني ..

قالت زينب هانم:

- يريد الاستيلاء على قصرك

- يريد الاستيلاء على قلبي..

- يحبك حازم عبد الصادق الذي اشتهر بالعنف.. لا بد أنه كان يحمل مدفعا..

- يحمل باقة ورد!

- هبطت الرقة عليه فجأة.. وأنت تحبينه؟

قال في نبرة حزينة:

- أنا لم أعرف الحب في حياتي .. لقد تعـودت على أن أسمع دقات قلوب الآخرين، ولكن دقات قلبي...

وقبل أن تكمل كلامها قالت لها زينب هانم:

- محبوبة دائما..

وفرت دمعة من عينيها وهي تقول:

- أنا خائفة يا زينب..

- أمارة الحب .. الدموع..

قالت الأميرة:

- اصدقيني.. وأنت صاحبة خبرة.. هل يمكن أن يجيء الحب في ليلة واحدة؟

قالت زينب هانم بسرعة:

- ومن نظرة واحدة..

قالت الأميرة فرحة:

- أعترف لك أن النوم قد طار من عيني .. أريد الفارس الذي يقتحم قصري.. ويحملني علـى فرسـه.. وهذا ما فعله حازم.. اقتحم قصري وحررني من سجني.

- سأقابل حازم الآن.. وأريـدك معـي.. لقـد أخبرته بأنني لن أكون وحدي وستكونين معي فرحب .. وقال إنه قد سمع عنك من صـديقه السـيد الشـرقاوي المعجب بموقفكِ منه أيام مطاردة البوليس السياسي لـه ويسعده أن يراكِ.

قالت زينب ضاحكة:

- أخاف أن أنافسك

- لا داعي للهزل.. الشرقاوي يحبك.. ويريد أن يتزوجك..

قالت زينب هانم في لهفة:

هل أخبر حازم؟ كنت أشعر بحبه وهو يعلمني ركوب الخيل.. ولكنه لم يفصح عنه.. أخيرا اعترف

قالت لتجعلها لا تسترسل في الحديث:

- هيا بنا لنقابل حازم لكي تخبريني: هل هو الحب أم مجرد نزوة؟!

وركبت معها العربة وسمعت الأميرة تتساءل كما لو كانت تسأل نفسها:

- هل سيخرجني من سجن نفسي ؟!

لتقول لها زينب هانم:

- ويرعى مصالحك في زمن معادٍ..

وتوقفت سيارة الأميرة أمام قصر من قصور الملك المصادرة..

الفصل السادس

- كلهم عرايا.!

قال حازم عبد الصادق هذه العبارة دون أن يظهر على وجهه أي إحساس بأنه يقول عبـارة لا ينبغـي أن يقولها أمام الأميرة وصديقتها زينب.. شعر من صـمت الأميرة بأنه قد أخطا التعبير فقال للأميرة:

إلا أنت يا مرمرتي..

وضحك ضحكة بلهاء وهو يقول:

-وهذا ما جعلني أحب أميرتي..

وعندما أحس بأن الأميرة لم يظهر على وجههـا أي شعور بالسعادة بعد أن قال أحـب أميرتـي.. قـال ليشعرها بأنها تجلس أمام رجل مهم والمفروض أن تكون أسعد النساء لأنه يحبها فقال:

- شاهدت بعض الأفلام ..

قالت زينب لتلفت نظره إلى أنها موجـودة مـع الأميرة:

- الأميرة تحب مشاهدة الأفلام السينمائية..

فرقعت ضحكته وهو يقول موجها حديثه للأميرة:

- لا يمكن أن تكون من نوعيـة الأفـلام التـي شاهدتها..

أحمر وجه الأميرة وقالت:

- أكره هذا النوع من الأفلام..

- لو شاهدتِ ما شاهدته لشعرت أميرتي بمتعة..

وصمت ولم يقل: لأني أشاهد ما كـان فـاروق يشاهده..

شعرت الأميرة بالتقزز.. كادت أن تقول له: أنت مراهق .. ولكنها ابتلعت عبارتها. خشيت أن تفقده وهي التي تبغي حمايته.

خافت أن يكون وجهها قد أفصح عن تقززهـا.. فقالت بسرعة:

- كنت وأنا مراهقة أشعر بالتقزز

قال حازم باسما:

- أنا لا أقصد هذه الأفلام التي تروج في أوربـا وتهرب خلسة لمصر..

قالت زينب هانم وقد تضايقت من إهماله لها في الحديث:

- أية أفلام تقصد؟!

- الأفلام التي صورها البوليس السياسـي لكـل الشخصيات التي يحب فاروق أن يراها عارية..

وقال ضاحكا:

- المرحوم كان مغرما بـأن يـرى خصـومه عرايا..

وقالت زينب هانم:

- والأصدقاء أيضا..

ونسى عبد الصادق أنه قد قال منذ قليل- إنه كان يشعر بالمتعة وهو يشاهد هذه الأفلام فقال:

- شعرت بالتقزز!

تنبهت الأميرة إلى أنه قد قال من قبل – أنه كان يشعر بالمتعة – فنظرت إلى زينب .. وكما لو أن زينب هي التي نظرت إلى الأميرة فقال لزينب:

- هل تظنين أنني مجنون؟

ارتبكت زينب. ضحكت الأميرة. قال حازم عبد الصادق متخابثا:

- أنا أحب أن يشاع عني أنني مجنون لأمارس حريتي أفعل أي شيء أريد أن أفعله.. ونظر إلى زينب وقد ازداد ارتباكها وقال:

- هل يتصور أحد أنني أستقبل أميرة في قصر من قصور فاروق بعد أن كان طردناه.. في موعد غرامي؟ مجنون الذي يفعل هذا..

وقال ضاحكا:

- أنا هذا المجنون !!

قالت زينب تنافقه:

- سيد العاقلين..

وقالت الأميرة دون أن تقصد شيئا:

- والجنون فنون..

أعجبته عبارة الأميرة، فأمسك يدها وقبلها وهـو يقول:

- أميرتي .. اسمحي لي أن أرفع قبعتي إعجابـا بعبارتك..

وقفز من مقعده فجأة وقال:

- أنا مجنون بالعدل .. وأتساءل وأنا أحكم علـى الناس.. هل من الضروري أن أراهم عرايا؟!

احمر وجه الأميرة. وقال: يصحح مـا يريـد أن يقوله:

- لا أقصد عرايا من ملابسـهم.. عرايـا مـن أكاذيبهم.. وما يخفي حقيقتهم .. لقد كان فـاروق يـرى

الناس عرايا ليلهو ولكننا نراهم عرايا لـنحكم بالعـدل.. نريد عصرا من الحب..

واحمر وجهه بعد أن ذكر الحب .. وجلس ، كما لو أن جلوسه سيخفي خجله وقال بصوت خفيض:

- الحاكم لا بد أن يعرف الناس ليحكم بالعدل!

قالت زينب:

- وأنتم تحكمون بالعدل؟.

قال غاضبا لزينب:

- لا أحد يستطيع أن يحكم بالعدل.. لا عدل على الأرض يا زينب..

وجدت زينب نفسها تقول دون وعي:

- فاروق كان على حق..

وكأن الدنيا انهارت فوق رأسها.. قال منفعلا:

- لو كنت في المحكمة لحكمت عليك بالإعدام .. خيانة عظمى.

قالت الأميرة فزعة:

- زينب لا تقصد..

ضحك حازم بمكر وقال:

- وأنا لست مجنونا حتى أصدق أن زينب هانم تدافع عن الملك فاروق أمامي..

استردت زينب أعصابها وهو يقول:

- ألست أنا المجنون.. أدعو أميرتي لزيارتي لأول مرة وأتحدث هذا الحديث السخيف؟!

ووجه حديثه للأميرة وقال بنبرة عاشق:

- لو زارت الأميرة حجرتي في بيـت العائلـة لوجدت صورها تملأ جدران الحجرة التي كنت أسـتذكر دروسي فيها..

قالت زينب هانم لتتأكد من أنه قد غفر لها فلتـة لسانها..

- ما زالت صورها معلقة على الجدران؟.

- رفعتها من على الجدران.. ووضـعتها فـي قلبي!

وأمسك يد الأميرة بجسارته وقربها مـن قلبـه قائلا:

– امسكي قلبي لتتأكدي من صدقي..

جذبت الأميرة يدها من يده برفق. قال وهو فـي حالة هيام:

- هناك لحظة لا أنساها

وتهدج صوته بالحب وهو يقول:

- عندما كنت في زيارتي لأحد الأصـدقاء فـي الحرس الملكي وأبصرت أميرتي وهـي تـدخل قصـر عابدين ووقعت نظرتي في نظرتها وأحببتها..

قالت زينب هانم:

- من أول نظرة !

قال حازم للأميرة:

- تذكرين.. لقد ابتسمتِ.. وكانت أرق ابتسـامة صادفتها في حياتي.. ابتسامة القمر.

قالت زينب هانم:

- أنت شاعر..

قال لزينب غاضبا:

- لا أحب أن يقول لي أحد أنني شاعر.. أكـره الشعراء لأنهم يكذبون!

ونظر للأميرة وقال:

- أتعرفين أنني قد اشتركت في الثورة وعرضت نفسي لحبل المشنقة لأجلس معك هذه الجلسة..

قالت الأميرة:

- لا أحب المبالغة يا صادق..

- صادق من فمك كالسكر..

وقال كما لو كان ابن بلد:

- وأنا باموت في السكر .. يا سكر..

ثقل كلامه على صدرها.. أوشكت أن تقول له : أنا لا أحب هذا السلوك السوقي.. ولكنها تـذكرت أنهـا تريد أن تسافر إلى أمريكا بأموالهـا ومجوهراتهـا ولا يستطيع أن يساعدها غيـره.. أرادت أن تطمـئن علـى قدرته على تحقيق ما تريد فقالت له بدلالها:

- نحن أعداء..

- احتج .. نحن حبايب..

- ألا تخاف منه؟!

فهم أنها تقصد الرئيس فقهقه وهو يقول:

- أنا بلدوزر .. والثورة محتاجة لبلدوزر ليسحق ما يعترضها..

قالت زينب هانم:

- لا يعترض أحد على ما تريد؟..

- من أجل هذا سأتزوج الأميرة..

وانفتح الباب ودخل من يحمل التليفون وهو يقول:

- الرئيس!

أمسك سماعة التليفون وقال وقد اضطرب بعض الشيء:

- سأجيء على الفور.. حاضر..

قالت الأميرة:

- يعرف أنك هنا وأنا معك..

قال وقد شعر بأهميته:

- لم أخبر أحدا.. خرجت من الفيللا من البـاب الخلفي.. ووضعت النظارة السوداء على عيني وركبـت عربة زوجتي الصغيرة بدون حراسة وجئت لمقابلتك في هذا القصر المصادر.

قالت زينب هانم:

- يعرف كل شيء..

- قال حازم في افتخار:

- يسمع دبة النملة..

ضحك وهو يقول في زهو:

- يبدو أن هناك حريقا قد شب وعربة الإطفـاء ينبغي أن تسرع.

قالت الأميرة وهي تضحك:

- عربة إطفاء أم بلدوزر؟!

وقال وهو يضع نظارته السوداء على عينيه ويهم بالخروج:

- لا فرق .. المهم أنني لا أستطيع أن أتأخر ثانية واحدة عنه وهو لا يرفض لي طلبا!

وقال للأميرة:

- أكملي كأسك.. هذا القصر قصرك.. وسيكون عش زواجنا!

وبعد أن ذهب حازم قالت الأميرة:

- جبان.. يخاف منه..

في الوقت نفسه قالت زينب هانم:

- شجاع..

نظرت الأميرة إلى زينب كما لو كانت تسألها بنظراتها لماذا قلت إنه شجاع فقالت زينب:

- أول اختراق ملكي للثورة..

ابتسمت الأميرة وكأنها قالت بابتسامتها: لا أفهم!

قالت زينب: موضحة!

- الحب. وجيش الثورة كله لا يقوى عليه..

قالت الأميرة خائفة:

-يتخلصون منه في الوقت المناسب..الثورة بـ لا رحمة حتى لو زعموا غير ذلك!

قالت زينب هانم في اقتناع:

- ليس مع حازم..

قالت الأميرة:

- أعرف أنه قادر

ثم قالت كما لو كانت ما تريده قد تحقق:

- أريد رجلا قويا.

ورشفت رشفة من كأسها وقالت:

- عندما فتحت له الباب.. قلت لنفسـي .. هـذه فرصتك يا مرمـر أن تهربـي مـن مصـر بأموالـك ومجوهراتك..

- والآن..

- أريد أن أتزوجه..

- الحب يا حبيبتي يصنع المعجزات..

- ولكنه ما زال مراهقا..

قالت زينب هانم:

- أبصرت في عينيه الصدق..

قالت الأميرة كما لو كانت تحدث نفسها:

- والجنون..

قالت زينب لتجعلها تضحك:

- والجنون فنون يا أميرتي

قالت الأميرة بنبرة حزينة:

- لم أعد أميرة.. رحل فـاروق وانتهـت أيـام الملكية وأريد أن أطوي هذه الصفحة وأصـبح مواطنـة عادية.. أعيش مع الناس على الأرض حتى لا أتعذب.. إن ما يعذبني أنني ما زلت أعيش في الماضي.. كارثتنا أن نيرون أشعل الحريق في مملكتنا بحماقته وهرب ولم يفكر في غير نفسه.. وتركنا للنار.. وهل يستطيع حازم أن يطفئ النيران التي تشتعل في نفسي؟

وأغرورقت عيناها بالدموع فقالت لها:

- أتبكين؟!

قالت وهي تغالب دموعها:

- أمضي الليالي ساهرة.. لا تريحني سوى دموعي وتجعلني أنام.. لقد فكرت في الانتحار.. قالت في ذعر:

- الأميرة تنتحر؟

- ولكني عجزت... ليتني استطعت وارتحت..

وقالت الأميرة وهي تتنهد:

- ما يؤلمني أنني كنت ثائرة على سلوك الملك الطائش.. وكان يلقبني بالأميرة الشيعية من كثرة حبي للفقراء وزياراتي الكثيرة للملاجئ والمستشفيات.. وبرغم هذا اعتبروني من أعداء الشعب.. إني أكرههم.. أكرههم.. وتمنيت – في لحظة- لو أنهم قد علقوا على المشانق في الميادين..

قالت زينب هانم:

- ولكن حب صادق يغفر لهم..

قالت الأميرة منفعلة تكشف عن كره عميق لهم:

- لا يمكن..

قالت زينب هانم وقد شعرت بالخوف عليها:

- لا تذكري هذا أمام أحد.. جواسيسهم في كـل مكان..

تملك الأميرة – فجأة – الشعور بالخوف.. لا تثق في أحد.. ربما تكون زينـب واحـدة مـن جواسيسـهم وتستدرجها في الحديث لتعرف ما تخفـي فـي داخلهـا وتكتب تقريرا عنها لهم فقالت بسرعة: أنا لم أقل شيئا..

قالت زينب مندهشة:

- لا غريب معنا .. أنت خائفة مني؟

تنبهت الأميرة إلى أنها قد أخطـأت فـي حـق صديقتها فقالت تعتذر لها:

- الجواسيس في كل مكان..

- معك حق.. جعلونا نشك في أنفسنا..

احتضنتها الأميرة وهي تقول:

- سامحيني..

قالت زينب:

- الحرص مطلوب..

وتنبهت زينب هانم إلى أن مـن مصـلحتها أن تتزوج الأميرة من حازم لأنه من أقوى الرجـال الـذين حول الرئيس وما لا يستطيع أن يفعله السيد الشـرقاوي يستطيع أن يفعله حازم فقالت:

- اسمعي كلمة امرأة مجربة.. خلاصك في حب صادق.. فأشعليه حتى يصبح خاتما في إصبعك.

قالت الأميرة ضاحكة:

- خاتم سليمان..

- ويقول : شبيك لبيك .. عبدك بين أيديك.. وتجدين نفسك مسافرة إلى أمريكا وحقيبة مجوهراتك في يدك..

أمسكتها من يدها وهي تقول:

- صحيح .. حازم عبد الصادق يستطيع أن يحقق لي هذا؟!

- ولا أحد سواه..

قالت الأميرة باسمة:

- وتتزوجين السيد الشرقاوي..

- الشرقاوي ليس فارسا مثل صادق..

- حبك له سيجعله فارسا..

قالت زينب هانم ضاحكة:

- الأميرة أصبحت خبيرة في الحب!.

الفصل السابع

فوجئت زينب هانم بالسيد الشرقاوي يقف أمامها عندما فتحت باب شقتها الخاصة بحـي جـاردن سـيتي فشعرت بالاضطراب.. تتوقع أي إنسان إلا الشرقاوي..

تهرب – عادة إلى شقتها هذه عندما تريد أن تخلو إلى نفسها.. لقد جاءت – في الصباح البـاكر- لتنتشـل نفسها من الدوامة التي تحتويها.. لقـد أقامـت حفلتهـا الساهرة في عزبتها لتعقد اتفاقا مع علـي أبـو ريشـة مستخدمة سمير عبد الكريم.. ولكنها اكتشفت أن علي أبو ريشة ليس بالرجل السهل. وأن سمير عبد الكريم لـيس بالجواد الذي تراهن عليه.. ليظهر السـيد الشـرقاوي – فجأة – في حياتها.. يحضر حفلتها بدون دعوة منهـا.. وتخبرها الأميرة بأنه قد اعترف بحبه لها لصديقه حازم عبد الصادق ويريد أن يتزوجها!!

وها هو – الآن- يجيء إليها في شقتها التـي لا يعرفها أحد بلا موعد..

تأملت وجهه الأسمر وهو يقف على عتبة الشقة.. وجدت ابتسامته قد ازدادت مكرا.. طـاف فـي رأسـها عندما كانت تشعر بحبه لها دون أن يفصح عنـه وهـو يعملها ركوب الخيل في العزبة.. عندما كان مطاردا من البوليس السياسي.

شعر الشرقاوي بأنها لا تريد أن يدخل فقال:

- لن آخذ من وقتك الكثير..

تنبهت إلى أنها قد تركته واقفا على باب الشـقة أكثر مما ينبغي فقالت:

اعذرني .. المفاجأة..

قال ليعتذر لأنه قد جاء لشقتها الخاصـة بـدون موعد:

- أرجو أن لا أكون قد أزعجتك!

ودخل إلى البهو.. ليقع نظره على صورة زيتيـة كبيرة لزينب هانم تتصدر البهو الكبير.. فوقف يتأملهـا وهو يدخن سيجارا.. فقالت له لتـذكره بأيـام العزبـة: رسمها رسام فرنسي زارنا في العزبة، نظر إلى وجهها كما لو أنه يقارن بين الصورة عندما كانت فـي سـراي العزبة والآن وهي تستقبله في شقة صغيرة!

نبهتها نظرته إلى أنها بلا مكيـاج.. ينبغـي أن يراها في كامل زينتها وهو قادم ليعترف بحبه لها فقالت بسرعة:

- أتركك قليلا مع بنت أفندينا..

وأسرعت إلى حجـرة نومهـا.. ووقفـت أمـام المرآة.. وقد تملكتها رغبة في أن تستحضر بنت أفنـدينا لتقول له إنها مازالت المرأة القوية برغم الثورة..

اختارت فستانا من أيام العز. . وراحت تتـزين كما لو كانت عروسا تزف لعريسها.. وفجـأة شـعرت بالخوف.. كما لو كانت صبية تلتقي بالحب – لأول مرة – طاف في رأسها عندما كانت صبية تخـرج للخـلاء لتلاقي الذئاب.. فاندفعت خارجة من حجرتهـا يسـبقها عطرها الفواح.. أبصرته ما زال واقفا أمـام صـورتها فضحكت في شيء من السعادة.

قال الشرقاوي يبرر لها وقوفه أمام صورتها:

- تذكرني بأحلى أيام العمر..

قالت بدلالها الأنثوي:

- عندما كنت تعلمني ركوب الخيل وأفوز فـي السباق..

وجلست.. تصغي إليه.. سيبوح بحبه لها وتسيطر على مشاعرها.. وترفض.. ويرجوها أن تعطي نفسـها

فرصة لتفكر.. وتعده بأن تفكر ولا ترد عليـه بسـرعة وتعذبه بالانتظار.. ليعرف أنها ما زالت سـيدة العزبـة وهو أجيرها.. فوجئت به يقول:

- معذرة .. لقد حضرت حفلتك بـدون دعـوة.. أخبرني أبو ريشة فدعوت نفسي.. كنـت أريـد أن أرى العزبة وأتذكر أيام النضال..

اغتاظت.. فوجدت نفسها تقول له: حفلتك يا سيد بنبرة.. ذكرته بأيام كانت فيها سيدته وهو أجيرها الـذي يحمل التراب فوق كتفه..

وتناديه "يا سيد".. وبرغم أنه يرتدي حلة إنجليزية فاخرة ويتعطر بعطر باريسي ويدخن سيجارا كوبيـا إلا أنه قد شعر بالتضاؤل .. فتضايق.. يذكرها بأنهـا قـد ولدت في " زريبة" وأن "بنت أفندينا" من اختراع علـي أبو ريشة.. ولكنه شعر بالعجز .. لا يستطيع أن يؤلمهـا لأنها حبه الأول.. كل ما استطاعه هو أن يضحك وهـو

ينظر إلى الصورة الملونـة.. وكمـا لـو أن ضـحكته أفصحت عما عجز أن يقوله.. فقالت زينب هانم وهـي تحاول كتمان انفعالها:

- الدم الملكي يا سيد يجري في عروقها..

قهقه الشرقاوي وهو يقول:

- ليس في صالحها يا زنوبة.. لقد رحل فـاروق ونصادر كل ما ينتمي إليه..

وضحكت زينب هانم وهي تسمعه يذكرها باسمها زنوبة عندما كانت صبية ترعى حيوانـات الباشـا فـي العزبة.. ولم تستطع ضحكتها أن تخفي عصبيتها ولاذت بالصمت.

كان السيد الشرقاوي وهو يقف علي عتبة الشـقة قرر أن ينتهز الفرصة ويحدثها عن حبه الذي ظل حبيسا في صدره ويبرر كتمانه بأنه لم يكن يستطيع أن يخـون

الرجل الذي أخفاه عن عيون البوليس السياسي.. ولكنـه عندما سمع ضحكتها العصبية.. قرر أن يؤجـل حـديث الحب والزواج إلى وقت آخر تكون أعصابها أكثر هدوءا حتى لا ترفض الزواج منه وخاصـة أن حـازم عبـد الصادق ينتظره في عربته أمام العمارة.. يريد أن يعرف نتيجة مقابلته للأميرة .. فقد أيقظه مبكـرا مـن نومـه وأخبره بعنوان شقة زينب هانم وطلب منه أن يذهب إليها ويسألها عن رأي الأميرة فيه .. أوشك أن يرفض هـذه المهمة.. ولكنه قبلها.. فهو يريد أن يعرف هـل أحبـت الأميرة حازم حقا كما يقول له؟! لقد راقت لـه الأميـرة ويريد أن يصادقها.. وهو لا يستطيع مـا دامـت علـى علاقة بحازم.. فقال لزينب هانم:

أنا في مهمة..

تصورت أنه سيبوح لها بحبه فقالت في شيء من الدلال:

- مهمة حب؟!

قال بنبرة جادة:

- حازم والأميرة..

فهمت أنه يريد أن يعـرف رأي الأميـرة فـي حازم.. بعد اللقاء الذي تم في قصر فاروق المصادر..

فقالت تغيظه كما لو كانت تحدثه هو ولا تـتكلم عن حازم:

- سقط في الاختيار!!

فرح الشرقاوي.. أوشك أن يقول لها : أعرف.. لا يمكن أن تحب الأميرة مجنونا كحازم.. ولكنه قال:

- حازم واثق من أن الأميرة قد وقعت في هواه..

قالت ساخرة:

-إذا كان صديقك واثقا ..فلماذا أرسلك؟

وقبل أن يقول: ليتأكد.. قالت:

-صديقك مغرور..

ضحك، وكأنه يقول بضحكته: ومجنون

قالت، وكأنها تتحدث عن نفسها:

-كيف تحبه أميره؟

قال ليؤكد لنفسه أن رغبة قد تحققت:

- حازم فشل في الاختيار..

واتجه إلى الباب وهو يقول:

- تأخرت على حازم.. ينتظرني فـي العربـة..
أرادت أن تستوقفه لتذكر له الحقيقة وتقول له أن حازم قد

نجح بجدارة.. أحبته الأميرة وتريد أن تتزوجه.. ولكنه لم يتح لها الفرصة لتقول شيئا واندفع خارجا..

تذكرت أنه عرف عنوان شقتها الخاصة التـي لا يعرفها أحد فقالت:

- كيف عرفت عنوان شقتي.. وأننـي موجـودة فيها الآن؟!

قال ضاحكا:

- الحب يا زينب هانم.. حازم يحب الأميرة.. لذا أمر بمراقبة كل أصدقاء الأميرة.. ليعرف كـل كبيـرة وصغيرة عنها..

وأسرع ينزل على درجات السلم دون أن يركـب الأسانسير فقالت غاضبة:

تراقبونني؟!

توقعت أن تسمع شيئا.. ولكنها لم تسمع ما يشير إلى أنه قد سمعها فقالت بصوت عال:

- كلاب!!

وشعرت بعد أن قالت هذه الكلمة بأنها لم تشف غليلها.. فأسرعت تنزل في أثره على درجات السلم.. تريد أن تسأل حازم: هل من حقه أن يتجسس عليها من أجل نزوته؟ ولكنها لم تجد عربته .. ركبت عربتها وراحت تجري في شوارع جاردن سيتي.. تبحث عن عربة حازم لتجد نفسها أمام سراي المنيرة.. لتدخلها.. لتبصر نرجس تبكي.. تصورت أن مكروها قد أصاب ابنها فقالت بخوفها:

- رامي!!

قالت نرجس تطمئنها:

- سيد أحمد يا ست هانم

- ماذا أصابه؟

قالت نرجس:

- مفيش يا ست هانم .. اتخانقـت معـاه مـن شوية.. مش عاوز يدافع عن حبه.. ويتكلم مع أبويـا.. واقف يتفرج عليه وأنا باتعذب .. الحـب مـش لعبـة.. الواحدة منا لازم تدافع عن حبها..

ولم تسمع بقية كلامها وسرحت زينب هانم فـي حالها.. تعرف أن السيد الشرقاوي يحبها منذ كان يعلمها ركوب الخيل.. وأخبرتها الأميرة بأنه قد اعترف لصديقه حازم عبد الصادق بحبه وأنه يريد أن يتزوجها.. وعندما طرق بابها شعرت بأنه قادم ليعترف لها بحبه.. ولكنها لم تمكنه من الاعتراف.. عاملته بطريقة لا تليق بمن جـاء ليعترف بحبه ويطلب منها الزواج.. لقد أخطأت في حقه وفي حق نفسها..

أمسكت نرجس من يدها .. تريد أن تمشي معهـا في الحديقة لتبثها همها.. فقد شعرت بأنها تفهم بفطرتهـا في أمور الحب أفضل منها.. تحكي لها التفاصيل وتطلب مشورتها.. ولكنها فوجئت بالرجـل المبـروك.. "أبـو خطوة".. يخرج من الغابة.. مـتجهم الوجـه.. دون أن يضحك ضحكته الطفولية التي تسبقه عادة فقالت له فـي اضطراب:

-خير يا مولانا.

قال يحذرها:

-رامي يا زينب..

قالت نرجس بسرعة تطمئنها:

- رامي بيذاكر دروسه يا ست هانم في أمان ا في أودته مع سي سمير..

قال الرجل المبروك:

- رامي في خطر يا زينب!

واختفى بسرعة بين الأشـجار الكثيفـة. أرادت زينب هانم أن تجري خلفه . تستوقفه ليوضح لها من أين سيجيء الخطر؟ .. ولكنها سمعت نرجس تقول لها:

- اصعدي يا ست هانم إلى رامي فـي حجـرة مكتبه حتى تطمئني عليه..

أسرعت زينب هانم تصعد إلى جنـاح رامـي.. دفعت باب حجرة مكتبه بعنف على غير عادتها.. ارتبك سمير.. قال سمير مندهشا:- ماذا جرى؟!

قالت الأم بخوفها على ابنها:

- أنت بخير يا حبيبي؟..

قال رامي باسما:

- كما ترين..

نظرت إلى سمير.. فهم من نظرتها أنها تسـألـه عن حديثهما قبل أن تدخل عليهما فقال ليهرب من ذكـر الحقيقة:

- كنا.. نناقش قضية..

- ما هي ؟!

صمت سمير. قالت زينب هانم:

- أخبرني .. ولا تخفي عني شيئا..

خشي رامي أن يقول سمير لها بأنه قد توعد قتلة أبيه بالانتقام فقال:

- قلت له إنني لن أعيش في بلد ألغت القانون..

التقطت أنفاسها.. قائلة:

اتفقت مع عمك عزيز باشا على السفر

قال رامي مرحبا:

- لندن.. أحب بلاد الإنجليز.

وكأنها انتهزت الفرصة وقالت:

- لا تتكلم..

نظر رامي لسمير يريد منه أن يدافع عنه فقـال سمير:

- رامي في حاله.. لا يتكلم مع أحد..

قالت الأم بكل خوفها عليه:

- الجامعة كلها جواسيس يا حبيبي

قال رامي لتكف عن الحديث الذي لا يحـب أن يسمعه:

- متي ستصل جلنار من لندن؟

- غدا..

- سأستقبلها معك في المطار.. اشتقت إليها

ونظرت إلى سمير وكأنها تقول له: وأنت فقال:

- سأكون مع رامي..

قالت الأم وهي تخرج من الحجرة:

- لا تترك رامي يا سمير

وضحك رامي وهو يقول:

- أنا الذي لن أتركه!

وضحكت الأم وهي تغلق الباب خلفها..

الفصل الثامن

- قبضوا على رامي !

وبعد أن قالها سمير.. صرخت الأم.. شعر سمير من صراخها بأنه قد أخطأ.. وليس متأكدا مـن القـبض عليه .. لقد أخبره أحد الزملاء بأن بعض الرجـال قـد اصطحبوه إلى خارج حرم الجامعـة وأركبـوه سـيارة ومضوا به ..

وعندما قالت الأم: يا مصـيبتي .. وجـد نفسـه يقول:

- أنا غير متأكد..

صرخت الأم فيه:

- أين رامي؟ لماذا لم يأت معك؟ ألم أقل لـك لا تتركه؟

ارتبك سمير. قالت الأم وهي تتمالك نفسها:

- اتكلم .. لا تخفي شيئا..

وكما لو أنه المسئول عن اختفاء رامـي فـراح يدافع عن نفسه قائلا:

- اتفقت معه على أن ينتظرني حتى أعود مـن المطبعة بعد أن أعطي أمـر طبـع المجلـة.. ونجـيء للسراي معا ونذهب إلى المطار لنستقبل جلنار.. وعندما عدت للجامعة لم أجده في المكان الـذي اتفقنـا عليـه.. بحثت عنه في كل مكان فلم أجده وقال لي أحد الـزملاء أنه قد شاهده مع بعض الرجال..

- قبضوا على ابني

قال سمير وهو لا يصدق أن رامي قـد قـبض عليه:

- لا يمكن .. رامي إنسـان طيـب.. لا يـؤذي ذبابة..

قالت منفعلة:

ألم يقل لك إن الرجال قد اصطحبوه إلى خـارج الجامعة.. وأركبوه سيارة؟.. مـاذا يكـون هـذا غيـر الاعتقال؟ قلبي يحدثني..

ورنت في رأسها عبارة " أبو خطوة" وهو يقول: رامي في خطر يا زينب.. فقالت في فزع:

- لا يمكن..

في الوقت. الذي قال فيه عبارته هذه قال سمير:

- أنا أشك في كلام هذا الزميـل.. لـيس فـوق مستوى الشبهات.. سمعته سـيئة.. يقولـون عنـه إنـه يتجسس على الطلبة..

- هو الذي وشى برامي؟!

- رامي لا يتكلم في السياسة.. لا بد أنه قد ذهب مع بعض الأصدقاء.. وقبل أن تسأله عما قاله له عنـدما دخلت عليهما حجرة المكتب.. وصلهما صـوت جلنـار وهي تقول:

يذهب مع بعض الأصدقاء ولا يستقبلني..

شعر سمير بالخجل.. كما لو أن جلنـار تقصـده بكلامها فقال :

- كنت سأستقبلك..

- ومن معك يا حضرة الصحفي؟!

- رامي..

- وأنا؟

وأوشك أن يقول : سامحيني..

قالت الأم كما لو أنها تحتج على موقـف ابنتهـا اللامبالي بأخيها:

- قال لك إنه كان يبحث عن رامي..

قالت جلنار ولم تعجبها الضجة التي تحـدثها الأم لأن رامي لم يذهب لاستقبالها في المطار:

- رامي لم يعد صغيرا.. حتى تخافون عليـه.. الشباب في أوربا .. قاطعتها الأم:

- نحن في مصر

- وأنا أعرف أخي جيدا.. لا يحـب الـوداع أو الاستقبال.. إلا إذا كانت الدنيا قد تغيرت بعد الثورة..

قال سمير كما لو كان يحدثها عن نفسه:

- كان مشتاقا لك.. ولكن يبدو..

وانفجرت الأم بالبكاء..

قالت جلنار وهي تنظر إلى أمها وهي تبكي:

- أمي تبكي ... الدنيا فعلا قد تغيرت..

ارتبك سمير. قالت جلنار لأمها:

- بدلا من البكاء الذي لا فائـدة منـه.. اسـألي أصحابك الذين استقبلوني في المطار كأميرة.. لا بد أنهم يعرفون الحقيقة، هل قبض عليه أم لا؟!

قال سمير وهو ينظر إلى زينب هـانم يرجوهـا بنظرته أن تفعل:

– كلام معقول..

واسـتجابت الأم لرغبتهمـا وأمسـكت سـماعة التليفون تحدث الأميرة.. تطلب منها أن تسأل حازم عن رامي.. ولكنها تذكرت أنها قالت للسيد الشرقاوي غيـر الحقيقة بشأن لقاء الأميرة بحازم عن رامي.. وخشيت أن يكون هذا الكلام قد وصلها وغضبت.. وهي- الآن –

في حالة نفسية سيئة لا تسمح لها بأن توضح لها الأمـر وتقول إنها لم تكن تقصد حازم بهذا السقوط في الاختبار بل تقصد السيد الشرقاوي .. ولم يتح لها الفرصة لتوضح الحقيقة له.. فأعادت السماعة إلى مكانها.. لتسمع جرس التليفون .. وترفع السـماعة ليصـلها صـوت السـيد الشرقاوي قائلا:

- لا تقلقي .. رامي في ضيافتنا!!

وتصرخ قائلة:

- اعتقلتم ابني..

ويغمى عليها..

الفصل التاسع

- خائن!!

قالها رامي عندما فوجئ بسمير يقـف أمامـه.. وأغمي عليه لم تندهش الأم لأن ابنها أغمي عليه فهـي تعرف مدى حب رامي لسمير فهو لا يحتمـل أن يقـول لصديق عمره في وجهه كلمة خائن فأغمي عليه وسيفوق بعد قليل.. ولكن جلنار اندهشت.. وأجهشت حبة البركـة بالبكاء.. وتجمد سمير عبد الكريم في وقفته. لا يتصـور أن يزور رامي صديقَ العمر في المعتقل ليتهم بالخيانة.. فلم يستطع أن ينطق بكلمة سوى: أنا!!

وقبل أن يقول الضابط الذي أحضر رامـي مـن زنزانته إلى الحجرة التي يقابل فيها زواره لسـمير مـن الأفضل أن تخرج .. قال سمير:

-سأخرج..

وقالت حبة البركة في نبرة عدائية:

- أحسن..

قالت الأم متعاطفة مع سمير:

- سمير لا شأن له بما حدث لرامي

وعندما أبصرت الدهشة على وجه حبة البركـة قالت:

- رامي لا يعرف الحقيقة..

لقد أخبرها السيد الشرقاوي بأن رامي قـد فقـد أعصابه في مناقشة مع بعض الطلبة فـي بوفيـة كليـة الحقوق وهاجم الثورة واتهم أعضاء مجلس الثورة بأنهم قتلة لأنهم قد تسببوا في قتل أبيه شوكت باشا.. وقد سمعه أحد الذين يتجسسون على الطلبة فسجل له حديثـه فـي

جهاز التسجيل الذي يحمله في جيبه.. وأبلغ عنه.. فصدر القرار باعتقاله.

وقالت زينب هانم لسمير:

- لا تخرج .. رامي هزه الاعتقال.. ولا يعرف ما يقول..

فرت دمعة من عيني سمير واندفع خارجا..

وأفاق رامي – بعد قليل – وقـال وهـو ينظـر حوله:

- أين الخائن؟!

قالت الأم بحده:

- صديق عمرك ليس بخائن..

فقد رامي أعصابه قائلاً:

- من أخبرهم بأنني أقول علـيهم: قتلـة.. لقـد أخبرني المحقق بأنني لن أخرج من هنا حتى أكف عـن مهاجمة رجال الثورة واتهامهم بأنهم قتلة.. كيف عرفوا ياست ماما؟

صمتت زينب هانم لا تريد أن تخبـره – الآن – بما أخبرها السيد الشرقاوي.. قالت حبة البركة مندفعة:

- لا يوجد غيره.. لقد سمعته مرة يستفزه ويقول له بأنهم لا علاقة لهم بانتحار شوكت باشا.. مـن قتـل الباشا غيرهم؟

وقبل أن تقول: إنهم قتلة وقتلة.. قالت زينب هانم بصوت عال لتجعلها تصمت:

- حبة البركة..

قالت جلنار منزعجة من اتهام سمير بالخيانة:

- لا يمكن أن يخون سمير صديقه.. ليس من طبعه الخيانة.. أعرفه جيدا.. تضايق رامي لأن أمه رفعت صوتها على حبة البركة التي يحبها وأخته تدافع عن خائن.. فقال في انفعال يؤكد خيانة سمير:

- سمير يسكن في حارة ويتطلع للسكنى في جاردن سيتي ومن أجل هذا يعمل جاسوسا لهم..

غضبت زينب هانم قائلة:

- لا يصح أن تقول هذا الكلام.. سمير صديق عمرك

شعرت حبة البركة بأن هذا الكلام يمسها فقالت تدافع عن نفسها:

- السكنى في الحارة لا تجعل الإنسان يخون.. أنا أسكن في حارة ونظرت إلى رامي وهي تقول:

- لا يمكن أن أخون حتى لو قطعوا رقبتي..

تضايق رامي من معارضة حبة البركة لكلامـه فقال غاضبا:

- حتى حبة البركة..

تعرف انه يتأثر من دموعها فبكت حتـى يـرق قلبه.. وما تريده حدث. قال لها برقته:

- لا تبكي يا بركتي .. أعرف إخلاصك .. وأنا أحبك وسأتزوجك..

وفوجئت بأن يقول لها بأنه سيتزوجها أمام زينب هانم وهي تعرف أنها تكرهها وحرمت عليهـا المجـيء لسراي المنيرة.. ومجيئها اليوم لأنه قد طلب أن يراهـا وأصر على أن تجيء مع أمه لزيارته .. فشعرت بفرحة طاغية.. فقد نصرها على أمه.. وأرادت أن تعبر عنهـا فلم تجد سوى أن تمسك يده وهي تقول:

- صحيح يا رامي؟

فوجئت الأم بما أعلنه ابنها من أنه سيتزوج حبة البركة.. سيقضي على حلمها في أن يتزوج من ابنة أحد رجال الثورة حتى تمهد الطريق لكرسي الوزارة.. فقالت بنبرة وشت بغضبها:

- ليس وقت الدلع..

جذبت حبة البركة يدها من يده.. وكأنها تقول بحركتها هذه : يريدون أن يبعدوني عنك..

قال رامي في نبرة متحدية..

- لن يستطيع أحد أن يبعدك عني

اغتاظت زينب هانم من رامي.. لذا عندما قال: أريد أن أعرف .. كيف عرفوا أنني أقول: إنهم قتلة

قالت في نبرة غاضبة:

- ثرثرتك في بوفيه الكلية..

قال في نبرة حادة:

-يقتلون أبي .. ولا يريدون مني أقول كلمة..

قالت الأم وقد نفد صبرها:

- لم يقتل أحد الباشا

قال في عناد

- هم الذين قتلوه..

قالت الأم في انفعالة:

- ما لم تكف عن قول هذا الكلام الفارغ.. فلـن تخرج من هنا.. كما لو أن رامي قد أصيب بصدمة فقال:

- حتى أنت يا أمي!.

ولم يقو على أن يقول: معهم

قالت الأم بكل خوفها:

- أنا خائفة عليك يا حبيبي..

انتهزت حبة البركة الفرصة وقالت لتجعل زينب هانم ترضى عنها:

- اسمع كلام أمك يا رامي

ضاقت الأم بكلامها وقالت بلهجة حازمة:

– بركة.. اتركينا..

قالت حبة البركة وهي تنظر إلى رامي

- تطردينى..

توقعت أن يقول لها رامي .. لا تخرجي ولكنـه قال:

- ماما لا تقصد .. تريد أن تحدثني على انفراد،
اندفعت حبة البركة خارجه وهي تقول :

أنا أعرف أن كلكم ضدي تعاطفت جلنار مع حبة البركة وقالت:

- لن تخرجي وحدك.. سأخرج معك

قالت الأم بعد أن أغلقت الباب وهي تعـرف أن حديثها مع رامي لا بد أنه يسجل الآن:

رامي يا حبيبي.. هذه ثورة.. والثورة تفعـل أي شيء من أجل تأمين نفسها.. وحاول أن يقاطعها فقالـت في نبرة حازمة:

- اسمعني

قال في رضوخ

- حاضر

قالت بصوت حزين

- أبوك رحل عن دنيانا بإرادته وترك لي رسالة يعترف بذلك

- أعرف

- اختار هذه النهاية المأسـاوية دون أن يفكـر فينا.. ومن الطبيعي ألا يغفروا لنا ما حدث .. فلقد دوت الرصاصات التي أطلقها أبوك على نفسه في الخـارج.. واتهموا الثورة بأنها دموية ولا إنسانية.. ووضـعنا فـي قائمة الأعداء .. دون ذنب جنيناه..ونحن لسنا من أعداء الثورة.. ومن أجل هذا أقمت الحفلة في العزبة لأثبت لهم بأننا لسنا أعداء.

وشعرت بأنها تنزف وهي تقول:

- فَرِحتْ أمك وهي تنزف من الـداخل.. أنـت تعرف كم أنا حزينة على أبيك.. لم يكن مجـرد زوج.. كان كل أهلي..

وصمتت للحظة ثم قالت:

وهناك فارق بين حزني الخـاص.. ومصـلحة الوطن..

وأمسكته من يده كما لو أنه وطنها وقالت:

- أنا لا تهمني نفسي.. لقد أخذت من الحياة مـا يكفيني وأكثر وقدمت للوطن كل ما أملك.. وأبوك فـي عز صداقته للملك أخفى السيد الشـرقاوي عـن عيـون البوليس في عزبتنا. وكان عين الثورة على الملك.. أمـا أنت فالمستقبل أمامك.. وأنـت بطيشـك هـذا تجعلهـم يضعونك في معسكر الثورة المضادة.. وأنت من أحباب الثورة .. قمت بمجرد قيامها بتوزيع الشربات على الناس في الشوارع.

ودمعت عيناه وهو يقول:

- كنت أحبهم قبل أن يموت أبي..

- لقد أرسل لي السيد الشرقاوي التسجيل الـذي سجل لك في الجامعة سجله جاسوس من جواسيسهم فـي الجامعة..

وقال بطفولته:

- وسمعوا شتائمي؟!

- إذا كنت تحب أمك.. كف عن هذه الشتائم..

انتهز الفرصة وقال:

-بشرط..

مر يا حبيبي..

- حبة البركة..

أوشك أن تقول: لن تتزوج ابنة الطبـاخ ولكنهـا شعرت بأنه يمسكها من يدها التي تؤلمها فقالت:

-حاضر.. سأحب حبة البركة..

قال بفرحته:

- أنت أعظم أم..

- وتعدني..

- سأكف عن شتائمي

وشعر بتأنيب الضمير.. لقد اتهم سمير بالخيانـة ظلما فقال:

- لقد ظلمت سمير.. متى سأخرج لأعتذر له..

- الآن .. لقد وعدني السيد الشرقاوي..

- أنا أعصابي مرهقة

- ستسافر إلى لندن.. عمك عزيز ينتظرك

قبل يدها واحتضنته ودمعة تفر من عينيها وهـي تقول:

- ياحبيبي .. لم يبق لي من عمري سوى أنت!

وقال رامي وقد ابتلع دمعته:

- وأنت يا أمي الحبيبة.. كل عمري!

الفصل العاشر

{١}

-جلنار في حارة عمر؟!

- جلنار لم تغيرها أوروبا يا سمير..

ونظر سمير إليها وهي تتفرس حجرته البسـيطة بإعجاب.. وكأنه قال بنظرتـه : لمـاذا هـذه الزيـارة المفاجئة؟!

قالت بدلالها وهي ما زالت واقفة:

- أريد أن أعرف لماذا لم يعـد الحبيـب يـرى الحبيبة؟

ضحك: قالت:

- ضحكتك تقول : ليس عندك إجابة مقنعة!

قال يتلمس عذرا

- أنا مشغول بالصحافة والمـذاكرة.. فامتحـان الليسانس على الأبواب..

وتوقع أن تقول له: وجلنار ،ولكنها قالت:

- ورامي؟!

خفض نظرته.. يريد أن يهرب من الإجابة..

قالت:

- تغيرت؟!

قال منفعلا:

- تغير رامي.. فلماذا لا أتغير؟!

- من حقك أن تغضب .. ولكن إذا عرفت أنـه بعد أن أخبرته أمي بالحقيقة..بأنه ضـحية لجاسـوس.. شعر بتأنيب الضمير.. وسأل عنك ليعتذر اك

- وهل تضمد الكلمات الجراح؟!

وقال في انفعال:

- كيف أتسـامح وأجمـل شـيء فـي حيـاتي يغتصب؟!

-يغتصب؟!

يغتصبون حبي للثورة..

بدا على وجهها عدم الفهم .. فقال يوضح لها ما يقصد:

- كنت أحلم بالثورة.. وتحقق الحلم.. وتصورت أن الظلم قد رحل والعدل قد جاء .. وملأت به صفحات

مجلتي.. وفجأة حدث ما حدث.. أليس من حق رامي أن يصرخ بعد أن دخل حجرة أبيه ليجده غارقا في دمـه.. يضنون عليه بكلمة آه؟!

- أنت معه..

- ولكن لست معه فـي اتهـام صـديق عمـره بالخيانة.. أنا حزين..

- أنت متأثر..

- أنا أحبهم..

- الثورات هكذا..

قال وكأنه وجد فرصة ليحاكم الثورة التي يحبها:

- يسمحون بمظاهرات تهتف بسقوط الحرية وهم الذين جاءوا من أجل الحرية..

وقال وهو يعتصر ألما:

ماذا نقول للناس؟

قالت في حماس، كما لو كانت محامية للثورة:

- لتحمي حرية رغيف الخبز للفقراء..

- شاهدت بعيني وهم يهتفون بسقوط الحرية في شارع قصر العيني الذي طالما شهد مظاهراتنـا ونحـن نواجه رصاص الإنجليز ونهتف من أجل الحرية

- رومانسي..

- يهتفون بسقوط الحرية في حماية البوليس يـا جلنار!!

- من أجل حرية الرغيف..

- وحرية الكلمة؟!

- الخبز أولا يا حبيبي..

- أوربا..

-وجدت فيها الاستنارة

- الشيوعية..

قالت في حماس:

- إذا كان رغيف الخبز الشيوعية فأنا شيوعية..

- وحرية الكلمة ؟!

- تؤجل بعض الوقت

- اختلف معكِ.. حرية الكلمة هي التي ستجعل الناس يجدون رغيف خبزهم..

- ما رأيك في باريس؟

- بلد الحرية..

- تعلم الفرنسيون الحرية من خلال الرءوس التي تساقطت أثناء الثورة الفرنسية..

- تعلق المشانق..

- إذا كان هذا ضرورة ليأكل الناس..

أوشك أن يقول: أصبحت دموية ولكنه قال لها:

- لماذا لا تسافرين إلى موسكو؟

- أنا أحب أن أكون شيوعية في بلـد الحريـة.. أختارها بإرادتي..

نظر إليها يتأملها.. لقد غيرتها أوربـا كثيـرا.. قالت له باسمةً:

- هل ما زلت جلنار التي تحبها؟

فهم سؤالها فقال:

- ما دخل الفكر في الحب؟!

قالت وقد تذكرت ما جاءت من أجله:

- دعنا من هذا الحديث الآن.. رامي خرج مـن المعتقل..

صاح بفرحته:

- كنت واثقا من أن عدل الثورة لا بد أن ينتصر ويخرج رامي وقفز من مقعده وهو يقول:

- لا بد أن أراه الآن..

{٢}

وأبصر سمير .. رامي يجلس تحت تكعيبة العنب التي تتدلى منها عناقيد العنب في حديقة السراي.. كما لو كان ينتظره .. فاندفع نحوه.. وبمجرد أن أبصره رامـي قفز من مقعده وألقى بنفسه في صدره وبكى كما لو كان يبكي على صدر أمه.. وجد سمير دموعه تسـيل علـى وجنتيه وهو يقول:

لا تبكِ يا رامي!.

وعندما أبصر رامي دموع سمير قال له:

- لا تبكِ يا سمير!

وفجأة راح رامي وسمير يضحكان معـا.. أراد سمير أن يقول: اللهم اجعله خيرا.. ولكنه وجـد رامـي

يقول: تصور أن مدير المعتقل قال لي بعد أن صـدرت الأوامر بتنفيذ كل طلباتي .. ماذا تريد؟

فقلت له : أريد سمير عبد الكريم

قال: اعطني عنوانه وأنا أحضره لك!

قال سمير ضاحكا:

- تريد أن تعتقلني ..

قال رامي في نبرة جادة:

- اكتشفت وأنا في المعتقل أنني لا أسـتطيع أن أعيش بدونك وقبل أن يقول سمير شيئا قال:

- أنت غضبان مني .. أنا لم أكـن فـي حالـة طبيعية.. تصور أن رامي الذي يستحم مرتين في اليوم.. لا يستحم.. ويسجن في زنزانـة مظلمـة.. لقـد جـن جنوني .. لا أخفي عليك.. لقد فكرت في الانتحار حتـى

لا أسبب لأمي واك هذا الآلام.. لقد كانت فجيعتـي فـي الثورة كبيرة..

- أنت المسئول..

قال سمير مضطربا:

- أنا؟!

- خدعتني .. جعلتني أحب الثورة.. وأؤمن بأن الظلم قد رحل مع فاروق..

أوشك أن يقول: أنت تظلمها ولكنه صمت..

قال رامي بحزنة: أي عدل في أن يقبض علـى إنسان كل جريمته أنه تفوه بكلمة في الهواء!!

- أريدك أن تنسى..

- أنت لم تعش هذه اللحظات التي تتمنى فيها أن تخرج روحك من جسـدك .. ولكـن روحـك تعانـدك وتبقى .. لتتألم ألما لا قبل لك بتحمله

وصمت للحظة وقال بألمه:

- ما الفارق بين أيامهم وأيام فاروق؟!

وجد سمير نفسه يردد ما قالته له جلنار:

- من أجل أن يأكل الناس رغيف خبزهم

قال رامي ساخرا:

- أصبحت شيوعيا مثل أختي.. قرأت ما كتبتـه في مجلة التحرير عن عدالـة الاسـتيلاء علـى أرض الباشوات وتوزيعها على الفقراء.. فاغتظت منك..وألقيت من يدي المجلة فقد شعرت بأنك تخون مبـادئ العدالـة التي كنا نحلم بها معا ونحن نذاكر القانون.. وأخبرونـي بأن هناك زيارة لي.. ووجدتك تقف أمامي.. فلم أتمالـك

نفسي وصرخت بكلمة خائن.. ولما تنبهت لفظاعـة مـا قلت رحت في غيبوبة.. ولما أفقت شـعرت بـأنني قـد ارتكبت جريمة لا تغتفر.. وكـان مـن المفـروض أن أعتذر.. ولكن أبصرت العيون تحاصرني تتهمني بأني قد تهورت.. وأسأت إلى أعز صديق فرحـت أبـرر هـذه الكلمة بكلام سخيف.. لا أعرف كيف قلته.. ندمت عليه أشد الندم بعد ذلك.. سامحني يا صديقي..

تأثر سمير بكلام رامي فقال:

- أنت الذي تسامحني لأنني غضبت منك..كـان واجب الصداقة التي بيننا يحتم علي أن أشعر بوقع الظلم عليك.. وأضع نفسي مكانك.. وأسامحك مهما قلت..

واحتضنه سمير .. وقال رامي وهو يحتضنه:

- أنا مسافر إلى بلاد الإنجليز

وجد سمير نفسه يقول:

الإنجليز الذين كنا نهتف بسقوطهم في شارع قصر العيني وهم يحتلون وطننا..

قال رامي في مرارة:

- الوطن الذي يعتدي على حريتي ليس وطني!!

قال سمير ساخرا:

-وتتركني أعيش وحدي في هذا الوطن.

قال رامي منفعلا:

- لا تسخر مني يا صديقي.. الذي يحبس أنسانا.. لا يتورع أن يحبس شعبا.. وستكتشف بعد فوات الأوان.. أنهم أجهضوا حلم الحرية في داخلك.. لقد كنا في أيام فاروق نأمل في صباح تجيء فيه الحرية.. ولكنك ستكتشف أنهم قد أخذوا منك هذا الأمل

واختنق صوته بالانفعال:

- الذي حدث لي .. بداية سقوط الأمل .. وأنا لا أريد أن أرى هذه اللحظة؛ لأن هذا سيكون حكما أقسى من الحكم بالإعدام!!

واتجهت زينب هانم إليهما وهي تقول في اهتمام بالغ:

- السيد الشرقاوي.

قال رامي غاضبا:

- لا أريد أن أراه

قالت الأم ترجوه أن يقابله:

- الرجل يريد أن يعتذر لك بالنيابة عنهم..

هب واقفا وصعد إلى جناحه وهو يقول:

- لا أريد أن أرى أحدا..

ارتبكت زينب هانم. اتصل الشرقاوي بها ليعتذر لرامي فقالت تعاتبه:

الاعتذار ليس بالتليفون.. قـال لهـا: سـأجيء بنفسي.. لقد وقعت فـي مـأزق.. لا تريـد أن يعـرف الشرقاوي أن رامي يرفض مقابلته .. فمن المحتمـل أن تتزوجه ولا تريد أن تبدأ علاقة ابنها به بهذه الصورة

قالت تفكر بصوت عال:

- أقول للشرقاوي إن رامي مرهق الآن.. ويؤجل زيارته.. ويسافر رامي إلى لندن بسرعة..

قال سمير:

- أصعد إليه .. وأقنعه بمقابلته..

قالت الأم:

- لا فائدة ..أعرف عناد ابني ..

وقالت لسيد أحمد خادمها الخاص الذي كان قادما نحوها ليشكو لها الكاشف لأنه سجن حبيبته نرجس:

- اصعد أنت ونرجس بسرعة إلى جناح الباشـا وأعدا له حقيبة السفر.. لم يتحرك سيد أحمد قالـت لـه بصوت عال:

- قلت لك اصعد..

- نرجس محبوسة يا ست هانم

- محبوسة؟!

-أبوها حبسها

-مصطفى الكاشف !لماذا؟

- لأنها بتحبني..

قالت ضاحكة:

- عدو الحب..

وبكى وهو يقول: والكاشف بلا قلب قالت زينـب هانم:

- لا تبكِ واصعد إلى جناح الباشـا وسأسـتدعي الكاشف..

{٣}

-تحبس ابنتك يا رجل؟

-حتى تكف عن جنونها..

-كاره للحب..

- ولنفسي لو عصت الكاشف

قالت زينب هانم في اندهاش:

- لم أكن أعرف أنك تقسو إلى هذا الحد..

قال الكاشف:

- ليس عندي سوى القسـوة.. بضـاعتي التـي ورثتها عن جدي.. وهي التي تجعلني أجد مكانـا فـي عزبة الهانم وسراي المنيرة..

قالت زينب هانم:

- اترك سراي المنيرة

- وهذا ما كنت قادما من أجله..

تضايقت. لا أحد من عمالها يتجاسر على طلـب ترك العمل الذي تختاره له فقالت بنبرة وشت بضيقها:

- تطلب يا كاشف.

قال مصطفى الكاشف بسرعة:

-اعذريني يا هانم.. المدينـة أفسـدت ابنتـي.. وجعلتها تتمرد وتريد أن تتزوج من فلاح..

- هذا الكلام يا رجل انتهى منذ زمن

- اسمحيلي أن أقول لكِ .. بالنسبة للكاشف لـم ينته هذا الزمن !

قالت وقد نفد صبرها

- اذهب وأخرج ابنتك من سجنها..

أوشك أن يقول لها: تأذن لي سيدتي بأن أتركهـا بعض الوقت حتى يعود عقلها إلى رأسها.. ولكنه قال:

- أمرك يا ست هانم.. سأنفذ الأمر على الفـور لأن مهمة عائلة الكاشف أن تنفذ الأوامر حتى لـو كنـا نقطع شيئا من لحمنا!!

وانحنى وهو يقول:

- نحن عبيد إحساناتكم.. فهـل تكـون حسـنة مولاتي ألا تأمرني بأن أزوج ابنتي من هذا الفلاح، فقـد عرفت أن مولاتي وعدته بأن يتزوج ابنتي وليس أمامي إلا أن أطيع أو أعصي فيكون الجزاء الطرد من الجنة.. ولا ترضى الهانم أن تكون نهايتي كإبليس!!

وضحك..

وقال عذرا لضحكتي فقد تذكرت أنه قال لابنتـي إن لي أكثر من جارية..

وكأنها فوجئت بما سمعت فقالت ساخرة:

- هارون الرشيد!!

وجد نفسه يقول باسما:

-كان أيام الباشا

تضايقت من تباسطه فقالت في نبرة حازمة:

- وأيام الهانم لا

- طبعا يا أفندم..

قال ليحسم أمر زواج نرجس:

- لقد اخترت لابنتي زوجا.. أرجو أن تتفضـل الهانم بالموافقة..

- من هو؟

- سمير عبد الكريم!

وانفجرت بالضحك..

لقد فكرت في سمير زوجا.. وابنتها جلنار تحبه.. والآن يختاره مصطفى الكاشف زوجا لابنته نرجس!!

قال مندهشا:

قالت زينب هانم:

- لا بد أنك قد أصبت بالجنون

- من حقي يا مولاتي أن أختـار لابنتـي زيـن العرسان..

- ضع عقلك في رأسك واذهب وأخرج نـرجس من سجنها.. ولا تفكر في سمير

- أمر مولاتي.. ولكني متظلم.. لا أستطيع إلا أن أفكر في زين العرسان .. صاحت فيه:

-قلت لك اذهب .. كما لو قالت له: اذهب عليك اللعنة!

وبعد أن ذهب .. ضحكت وهي تتصـور وجـه سمير عبد الكريم عندما تخبره بأن الكاشف قـد اختـاره زوجا لابنته نرجس...

الفصل الحادي عشر

تأميم قناة السويس.. شركة عالمية..

سمع سمير عبد الكريم صوت عبد الناصر وهـو يدوي كالرعد من المذياع. أبصر دموع أبيه الشيخ تسيل. لا يذكر أن رأى الشيخ يبكي من قبـل، انفعـل سـمير باللحظة التاريخية وبكاء الشيخ فقال وهو يقاوم دموعه:

- تبكي يا أبي؟!

قال الشيخ بدموعه:

- لم أكن أحلم بأن أعيش حتى أشهد هذه اللحظة التاريخية.. الآن أموت وأنا مرتاح..

قال سمير في زهو كما لو أنـه الـذي أصـدر القرار:

- حققنا الحلم..

انتقم جمال لجدك الذي دفن في القناة..

-ضربة معلم..

ثأر لدمنا الذي سال في حفر القناة..

وجلس الأب على مقعد في الصالة على غير عادته.. كان من عادته أن لا يتعشى وينام بعد صلاة العشاء مباشرة ليستيقظ في الفجر ليأخذ حماما باردا حتى في عز الشتاء ويذهب إلى المسجد ليصلي الفجر.. و بعد أن يعود من المسجد يوقظ أهل البيت ويعد لهم طعام الإفطار.. ولكنه بدا له أنه لن ينام.. أخذته لحظة الانفعال بالجماهير النشوانة التي كانت تملأ الصالة المنبعثة من المذياع الذي رفع صوته عاليا من شدة فرحه.. كما لو كان يوقظ الدنيا لتسمع أن عبد الناصر قد حقق المستحيل وأعاد القناة لأصحابها.

قال الشيخ:

- أين كان هذا الرجل ؟ لماذا لم يأت منذ زمن؟ كان ينبغي أن يجيء قبل أن تموت جدتي لتبـرد نارهـا وتفك حزنها .. أتعرف أن جدتك قد فقدت بصرها مـن كثرة البكاء على جدك الذي أخذوه عنوة مع من أخـذوه من رجال القرية وساقوهم كالعبيد وأجبروهم على حفـر القناة والسياط تلهب ظهورهم وظلت منتظرة..

ولكنه لم يعد، مات كل من أخذوهم من القريـة.. وعاد واحد منهم ليحكي لأهل القرية عن الأهوال التـي لاقوها.

ولم يستطع الشيخ أن يحبس دموعه التي سـالت مرة أخرى وهو يقول:

- السخرة هي التي شقت القناة جعلت السفن تعبر ليقيم الخديو إسماعيل احتفالاته التي فاقت ألف ليلة وليلة.

ويصرف بسفه لتغرق مصر في ديونها وتتحكم أوربا في مصيرنا.. ويدخل الاستعمار الإنجليزي بلادنا..

ووضح على وجه الأب التأثير الشديد وهو يقول:

- تصور يا سمير أنني عندما كنت أذهـب إلـى السويس وأنظر إلى مياه القناة كنت أشعر كما لـو أن دم الذين ماتوا في القناة يجري أمام عيني.. وكنت أدعو في صلاتي ألا أموت حتى نثأر لهم.. وتحقق هـذا الليلـة.. الليلة عيد .. ما رأيك؟ نصلي الفجر في سيدنا الحسـين وندعو لعبد الناصر بالنصر على الأعداء.. أوربـا لـن تتركه..

واستجاب لرغبة أبيه وذهب معه إلى مسجد سيدنا الحسين.. وبعد صلاة الفجر فطـرا معـا فـي مقهـى الفيشاوي.. وشربا الشاي الأخضر.. واشترى له هديـة من منتجات خان الخليلي.. تذكارا لتأميم القناة.. وعـادا إلى المنيرة وفرحة الناس تزفهما.. وما إن وصلا إلـى

البيت.. حتى عرف أن زينب هانم قـد سـألت عنـه.. فأسرع إلى السراي.. سيتصل برامي في لندن .. يسأله: هل ما زال يصر على تسمية الثوار بالقتلة؟! لقد ضربوا ضربة معلم وثأروا للمصريين الذين دفنـوا فـي قنـاة السويس.. تنبه بعد أن دخل من بوابة السـراي إلـى أن الوقت مبكر.. لم يتعود أن يذهب إلى السراي في هـذه الساعة المبكرة.. فسيدة القصر تنـام حتـى مـا بعـد الظهر .. ولكنه فوجئ بصوت زينـب هـانم يصـله.. أبصرها تجلس تحت تكعيبة العنب تتحدث في التليفون.. قال لها: مبروك لمصر.. برغم أنها كانت في الحـديث التليفوني تقول: مصيبة.. لم تجعلـه فرحتـه الغـامرة يستوعب أنها قالت مصيبة عن تأميم القنـاة.. فتـدفقت الفرحة في كلماته:

- اليوم.. يوم عيد يا زينب هانم.. عبد الناصـر أمم القناة.. والناس في الشوارع هايطيروا من الفـرح.. وجدت نفسها تقول:

- مبروك

- لم يشعر ببرودة كلمتها فقال:

- لم أنم من شدة فرحتي.. أبي الشيخ بكى من فرحته.. رأيته لأول مرة يبكي.. حكى لي حكاية جده الأكبر الذي مات في حفر القناة.

ولما أبصر في وجهها عدم الفرحة قال:

- انتقم جمال للمصريين..

قالت لتجعله يهدأ:

- اجلس..

لم يجلس سمير.. كما لو أنه يترافع في قضية ينبغي أن يكسبها فقال:

- تأخر هذا القرار كثيرا..

قالت زينب هانم:

- عزيز باشا كان يحدثني من لندن.. قال لي إن أوربا هائجة..

قال في حماس:

- شيء طبيعي أن تهيج أوربا.. أذهلتهم ضـربة المعلم..

ووقف وكأنه يخطب:

- أثبت لهم أن عبد الناصر "قصة البحـث عـن كرامة" كما قال أحد المؤلفين الأوربيين في كتابه الـذي صدر في أوربا.

ولم يظهر الحماس على وجهها فقال منفعلا:

- إذا لم يكن عبد الناصر قد فعل شـيئا سـوى تأميم القناة لكان هذا يكفيه ليدخل التاريخ..

وجدت نفسها تقول:

- حتى لو دمر مصر..

استفزته عبارتها فقال بانفعال دون أن يقصد مـا يقوله:

- حتى لو دمر مصر

- تنبه إلى أنه قد أخطأ فقال:

- التأميم يبني مصر من جديد ولا يدمرها

قالت في استغراب:

- أنت تحب عبد الناصر إلى هذا الحد؟!

- وعلى استعداد أن أموت من أجله..

- أمور البلاد لا تعالج بالشعارات

قال وقد شعر بالصدمة:

- لم أكن أتوقع يا زينب هانم.. وصمت..

قالت:

- أنا فرحت مثلك عندما سمعت ناصـر يـؤمم القناة ولكن عندما اتصل عزيز باشا من لندن وأخبرنـي أن أوربا هائجة.. شعرت بمدى الجريمة التي حدثت في حق المصريين.

- جريمة؟!

- أنت تعرف أن الباشا على صلة وثيقة بأشـهر ساسة أوربا.. وعلي علم بأسرار الموقف الدولي

وخفضت صوتها وهي تقول:

- عرف من مصادره الخاصة أنهم سـينتهزون الفرصة لتأديب ناصر.

وقبل أن تقول: ويسقطونه.. قال في غضب:

- لا تستطيع قوة في العالم إسقاط بطلنا القومي..

- يستطيعون لأنهم أقوياء..

- نحن الأقوياء بالحق..

- الحق لا قيمة له إذا لم يملك أسـباب القـوة.. نحن بلد ما زال الإنجليز يحتلون جزءا منه "القناة".

- أنتِ لم تشاهدي الدموع في عيني أبي الشيخ.. وأبي هو رمز لكل المصريين.

ولم يظهر على وجهها الاقتناع فقال منفعلا:

- انزلي يا زينب هانم إلى الشـارع لتشـاهدي بنفسك الناس..

قالت وقد فقدت أعصابها:

- الناس أصفار في مواجهة إنجلترا وفرنسا مـن يدري قد تكون إسرائيل معهما؟

وصمتت.. شعرت بأنها قـد أخطـأت.. فقـدت أعصابها دون مبرر.. وأشعلت سيجارة.. جـذبت نفسـا لتهدأ.. قالت لتنهي الحوار معه:

- لقد حدثني من مطار لندن.. وقال لي إنه قـد شعر بالخوف على ثورة مصر ومن أجل هذا قـرر أن يطير بسرعة. ويتحدث مع جمال عبد الناصر فهو يعرفه منذ كان ضابطا محاصرا في الفالوجة..

قبل أن يقول سمير شيئا قالت:

- الباشا وطني.. عرف بكراهيتـه للاسـتعمار وسافر إلى انجلترا ليفضح أساليبه..

أطفأت السيجارة وهي تقول:

- عندما تلقاه ستحبه

- وجد نفسه يقول:

- أذهب معك إلى المطار لاستقباله..

لن أذهب .. زوجته تكرهني

- وضحكت وهي تقول:

- تكره الفلاحين مثل مصطفى الكاشف.. تقـول إن دم الباشوات لا ينبغي أن يختلط بدم الفلاحين!!

وقالت في زهو:

- أنا ابنة فلاحة..

توقعت زينب هانم أن يبدي سمير إعجابه بهـا.. ولكنها فوجئت بجلنار تهجم على سـمير وتقبلـه وهـي تقول:

- ناصــر هــزم الإمبراطوريــة البريطانيــة وفرنسا .. ناصر بطل

قال سمير وقد شعر بالسعادة لأن جلنـار التـي تعيش في لندن تؤيده:

- أليس كذلك يا جلنار؟!

قالت جلنار:

- لقد هزمنا الغرب مرات عديدة.. جاء الوقـت لنهزمه مرة واحدة!

قالت زينب هانم وقد تضايقت من ابنتها جلنـار لأنها قبلت سمير أمامها:

- سندفع الثمن غاليا..

ورن جرس التليفون تصورته عزيز باشا فرفعت السماعة بسرعة وهي تقول:

- حمد ا بالسلامة يا عزيز..

سمعت من يقول:

- لا سلامة لخائن

شحب وجهها وهي تقول:

- من ؟!

- لهفتك على خائن أنستك صوتي

تنبهت إلى أنه الشرقاوي فقالت:

- السيد الشرقاوي .. أين أنت؟

- كنت مشغولا بإنقاذه من الاعتقال صدر قـرار اعتقاله.. ومن أجل خاطر عيون زينب هانم جعلته تحديد إقامة..

- عزيز.. ماذا فعل؟

- قادم لتنفيذ مؤامرة!

- مؤامرة؟!

- ينتهزون فرصة تأميم القناة ويدبرون انقلابا.. وضحك وهو يقول: ويتسلمون الحكم إنقاذا للوطن..

- عزيز باشا .. كان يحدثني..

قاطعها:

- التسجيلات أمامي.. براف ـو.. كنـت حـذرة، نجحت زينب هانم في الاختبار، اضطربت لاذت بصمتها فقال:

- لماذا أنت صامته؟ هل تريدين سماع صـوت الباشا وهو يحدثك وضحك وهو يقول:

- لم أكن أعرف أن صوتك في التسجيل جميـل هكذا..

- أريد أن أزوره..

- ممنوع يا حبيبتي.. على كل حال.. لا تخافي.. حددنا إقامته في قصره.. قالت منزعجة:

- أنا متأكدة من أن الباشا وطني.. كـان قادمـا ليقدم لكم نصائحه..

قهقه وهو يقول:

- من أجل هذا حددنا إقامته .. ليكون في متناول أيدينا.. عندما نريد أن نسمع نصائحه نذهب إليه..

وفجأة انفعل وهو يقول:

- يا زينب هانم يعتبروننا مجموعة شـبان بـلا خبرة في السياسة.. أصابنا التهور الذي سيقضي علـى مصر..

وقال ساخرا:

- الباشوات يريـدون أن نسـلم لهـم الحكـم.. ويعيدون فاروق إلى عرشه .. أخطأت الثورة لأنها لـم تعدم فاروق..

قالت في فزع:

- ستعدمون الباشا!!

- لا تخافي.. من أجـل عينيـك سـنحتفظ لـه برأسه..

- أريد أن أحدثه..

- الحرارة مقطوعة عن تليفونه..

تذكرت زوجته .. تريد أن تعرف هل هي معتقلة معه؟

فقالت:

- وزوجته؟

- كانت ذكية.. لم تحضر معه!

تذكر أنه قد قرأ تقريرا أرسل من لندن يقـول إن بعض أولاد الباشوات الذين يدرسون في لندن ومن بينهم رامي.. سينظمون مظاهرة في هايدبارك ضـد انقـلاب العسكر الذين سيخربون مصر فقال:

- أرسلي لرامي ليبعد عن شلة المشاغبين..

قالت في فزع:

- رامي فعل شيئا؟

- لم يفعل بعد..

ابني لا يحب السياسة. ولا شأن له بهؤلاء

- ملاك كأمه..

شعرت من نبرة صوته أنه يخفي شـيئا بشـأن رامي فقالت:

- أريد أن أراك..

قال ضاحكا..

- في شقة جاردن سيتي

فطنت إلى أنه عرف أنها لم تقل له الحقيقة بشأن علاقة حازم بالأميرة عندما زارها في شقتها الخاصة في جاردن سيتي فقالت:

- ليس وقت الهزل يا شرقاوي.

- لا أستطيع الحضور لأني أقـيم فـي غرفـة العمليات ولن أتركها حتى يتم النصر.

وجدت نفسها تقول وقد شعرت بالخوف من الأيام القادمة:

- ربنا ينصركم .. ويبعد عنك الخطر..

تذكر الخطر الذي يحيط برامي .. فقد أخفى عنها المعلومات الخطيرة التي جاءت بتقرير لنـدن.. والتـي تذكر أن رامي هو المحرض الأول على المظاهرة وهو الذي كتب العبارات التي تهاجم النظام في مصر.. فقـال جادا:

- تسافرين إلى رامي؟

فقالت تجامله:

- لا أستطيع أن أتركك في هذا الوقت.

شعر بالفرحة.. لقد بدأت تحبه فقال:

- من أجل هذا أحبك..

تملكها الخوف على رامي .. لا تستطع أن تعتمد على " أبو ريشة" فهو لا تحركه سوى مصلحته.. لـيس أمامها – الآن- سوى السيد الشرقاوي.. تستغل حبه لها لحماية ابنها فقالت:

- أنا خائفة على رامي..

قال لها:

- في عيني يا ست الكل..

وأنهى المكالمة..

رنت عبارة السيد الشرقاوي أرسلي لرامي ليبعد عن شلة المشاغبين.. في رأسها لا بـد أن رامـي فـي خطر .. لقد وصله خبر تحديد إقامة عمه عزيـز باشـا الذي يحبه .. فتحرك في داخله غضبه علـيهم.. كـانوا سببا في قتل أبيه، واعتقلوه لمجرد أنه قـال كلمـة فـي الجامعة، والآن يحددون إقامة عمه.. وهذه فرصته ليثأر منهم .. وهو لا يترك ثأره..

ووجدت الدم يغلـي فـي عروقهـا.. وراحـت تتوعدهم.. لو مسوا شعرة في رأسه.. ستقلب الدنيا فوق رءوسهم.. تعود إلى العزبة تحـرض الفلاحـين علـى

الثورة.. ولكن صوت الفلاحين لا يصل إلى القـاهرة.. تقود مظاهرة في المنيرة.. ولكنها ليست مؤثرة في حـي المنيرة.. تعيش في برجها العاجي.. لا بـد أن تصـبح المنيرة في قبضة يدها .. لتشعرهم بأنها عضمة ناشـفة ويعملون لها ألف حساب.. تستدعي مصطفى الكاشـف وتطلب منه أن يعمل على الفور لتصـبح المنيـرة فـي قبضتها.. تحركها كما تشاء.. نادت على خادمها الخاص سيد أحمد طلبت منه أن يبحث عن الكاشـف وأبصـرته يعري ظهره وهو يقول:

- انظري يا ست هانم.. الدم..

- الدم؟!

- كرباج الكاشف..

- لماذا ضربك؟

- لا أعرف.. قال لي إنني سبب كل المصـائب وسيضربني حتى أموت!

وبكى..

قالت زينب هانم في نبرة غاضبة:

- الدنيا مقلوبة .. وأنتم تلعبون..

نظر إليها نظرة بلهاء.. لا يعرف شيئا مما يدور فقالت:

- أتعرف أن ناصر أمم القناة..

-خبر يفرح يا ست هانم..

- الإنجليـ ـز والفرنسـ ـيون والإسـ ـرائيليون سيحاربوننا..

كفّ عن البكاء وهو يقول:

- نحاربهم يا ست هانم

اغتاظت منه فقالت له:

- اذهب يا غبي وأحضر الكاشف..

الفصل الثاني عشر

فوجئت زينب هانم بالأميرة تحدثها تليفونيا وتقول لها:

- أنتظرك عند الخياطة!

وأنهت المكالمة.. فهمت زينب هانم أن شيئا قـد جد بشأن رامي ولا تريد أن تخبرها بـه لأن التليفـون مراقب.. فأسرعت تجري على سلالم القصـر بملابـس البيت.. وقادت السيارة بنفسها لتجد الأميرة تنتظرها في حجرة نوم الخياطة.. ولم تتح لها فرصة لأن تسألها عما أخبرها حازم عن رامي وقالت لها:

- تزوجنا..

- أنت وحازم.. والرجل الكبير؟!

-سيضعه تحت الأمر الواقع..

- واثق من نفسه..

ضحكت الأميرة ضحكة أفصحت عن سـعادتها وهي تقول:

-بلدوزر الثورة

وأشعلت الأميرة سيجارتين وأعطتها واحدة وهي تقول:

- هذا الخبر السعيد الخاص بـي.. أمـا الخبـر السعيد الخاص بك..

قالت زينب هانم بدهشتها:

- خبر سعيد خاص بي..

-ابنك قاد مظاهرة في لندن ضد خراب مصر..

ولطمت زينب هانم وجهها بيدها وهي تقول:

- ابني؟!

وفوجئت الأميرة بلاطمها وجهها فقالت مندهشة:

- ابنك بطل يا زينب..

وكأنها لم تسمعها قالت:

- يخون مصر..

- مصر ليست العسكر..

- يقبضون عليه..

قالت الأميرة تسخر من قدرتهم علـى الوصـول إليه:

- رامي يا حبيبتي في بريطانيا العظمى.. بـلاد الحرية!

لاذت زينب بصمتها جذبت نفسا من سيجارتها.. تريد أن تستوعب ما قالته الأميرة.. فهمت الأميرة من صمتها أنها خائفة فقالت:

- لا تخافي.. اخترت حجرة نوم الخياطة لنتكلم بحرية..

وقالت في أسى:

- نهرب من بيوتنا لنتكلم..

وقبل أن تقول الأميرة ساخرة: هذه مصر التي تقولين إن رامي يخونها!! قالت زينب هانم كما لو أنها تحدث نفسها:

- لا بد أن خبر تحديد إقامة عمه قد وصله في لندن فطاش صوابه..

قالت الأميرة في عصبية وهي تطفئ سيجارتها:

- هم الذين خانوا مصر .. عرضوها للغزو..

قالت زينب هانم منفعلة:

- ولكن سموك قد تزوجت واحدا من الخونة!

ضحكت الأميرة قائلة : اخترت حارسا منهم..

بدا على وجه زينب هانم عدم الفهم فقالت توضح لها عبارتها:

- منذ استولوا على السلطة.. وأنا لا أنام.. خائفة من أن يقبضوا علي إلى أن طرق حازم بـابي.. فقلـت لنفسي لا تغلقي الباب فـي وجهـه.. ا أرسـله لـي ليحرسني حتى أنام مطمئنة في فراشي إلى أن أسافر إلى أمريكا بأموالي ومجوهراتي!!

وتملكت الأميرة الرغبة في أن تتكلم.. فهي تعاني الوحدة منذ قامت الثورة.. وتريد أن تتحدث إلى إنسـان يسمعها فراحت تتكلم:

- لا أنسى هذا الصباح الذي أيقظني فيه خادمي الخاص ليخبرني بأن الثورة قد قامت في البلد.. فارتديت ملابسي.. وقررت أن أهرب.. ولكن لم أتجاسـر علـى الخروج من باب القصر برغم أن أحدا لم يمنعنـي مـن الخروج وعدت إلى حجرتي.. وجلست أنتظر من يفـتح الباب.. ويأخذني إلى السجن ليحاكموني بتهمة الخيانـة ويحكموا علي بالإعدام ويشنقوني كمـا شـنقت الثـورة الفرنسية ماري أنطونيت.. فأنا أخت الملك!

وشردت زينب هانم.. تفكر ..هل سينجو رامـي من أيديهم؟!

واستأنفت الأميرة حديثها قائلة:

- حبست نفسي في قصري وشعرت بالكآبـة .. ففكرت في الانتحار.. ولكني لم أجد الشجاعة في نفسـي لتمتد يدي إلى المسدس وأطلق رصاصة على رأسي كما فعل زوجك الباشا..

تنبهت زينب إلى حديث الأميـرة وهـي تقـول عبارتها الأخيرة فقالت:

- المسدس المرصع بالألماظ!!

- تلقيته هدية من أحد أفراد العائلة الـذي يكـره فاروق وطلب مني أن أجربه في صدر فاروق!!

وأغرورقت عيناها بالدموع..

فقالت زينب باسمه:

- العروس تبكي في الصباحية!!

قالت الأميرة بنبرة وشت بحزن دفين:

- أنا أعيش في تمثيليـة. وأنـا لا أجيـد فـن التمثيل .. لا بد من حب حازم.. كانوا يقولون لي وأنـا صغيرة.. افتحي قلبك للحب.. يأتي الحب.. وتذكرت هذه النصيحة.. فوضعت صورته التي أهداها لي أمامي وقلت

لنفسي: افتحي قلبك للحب.. الحب إرادة يا مرمرتـي.. وحياتك متوقفة على حب حازم.. حتى يمكنك من السفر إلى أمريكا سالمة بأموالك ومجوهراتك.. وإذا اكتشـف أنك تخدعينه فسيكون مصيرك الرصاصة التي كان يريد أن يصيب بها رأس فاروق..

وقالت الأميرة وهي تطفئ سيجارتها بعصبية:

- وبدلا من أن أحبه ازددت كراهية له..

وأشعلت سيجارة وهي تقول:

- أنا أمثل عليه الحب.. وأنا خائبة في التمثيل.. وأخاف أن يكتشف أنني أمثل عليه..

- أنت تحبين فيه..

ولم تجعلها تقول: الفروسية وقالت الأميرة:

-أنا لا أعرف الحب يا زوزو في حياتي.. منذ نعومة أظفاري وأنا محاطة بالحب فتعودت على أن أحب ولا أحب.. آخذ ولا أعطي!.. ولا يمكن بعد هذا العمر الطويل أن تدب الروح في القلب الذي مات منذ زمن!

وطرقت الخياطة باب حجرة النوم المغلقة ودخلت وهي تحمل راديو صغيرا.. ينبعث منه صوت عبد الناصر مبحوحا وهو يردد:

- سنقاتل .. ولن نستسلم..

قفزت الأميرة من مقعدها وهي تطير من الفرح وراحت ترقص وهي تردد:

- انتصرنا.. انتصرنا.

وانفجرت زينب هانم بالبكاء..

قالت الأميرة مندهشة:

- تبكين يوم الانتصار؟!

-أخشى أن يصلوا إلى رامي.. يدهم طويلة

قالت الأميرة مذهولة:

- هذه انجلترا وفرنسا.. وإسرائيل أيضا.. هـل سيقوى ناصر عليهم؟ سيأكلونه قبل طلوع النهار

وأخذت نفسا من سيجارة وقالت:

- على كل حال.. سيتصـل بـي حـازم الآن.. وسأحدثه أمامك.. وأطلب منه أن يضع رامي في عينيه.. وأنت تعرفين أن طلباتي عنده أوامر..

ورن جرس التليفون.. وكان حـازم المتحـدث.. قال لها:

- أحدثك من بورسعيد المناضلة..

- ابن حلال..

- كنت تفكرين في حبيبك..

- ليس عندي غير حزومة!

- صحيح يا حبيبتي.. لن أهزم الأعداء وحـدهم بل سأهزم الدنيا!!

- زينب صديقتي معي..

- أم الخائن!

وكأنها لم تسمع عبارته قالت باسمة:

- تريد أن تطمئن على رامي..

قهقه وهو يقول:

- سنحضره لها في صندوق!!

ارتبكت للحظة ولكن ما لبثت أن سيطرت علـى ارتباكها وقالت:

- أمانة بين يديك..

وقالت بدهشة كما لو أنها تسمع للمرة الأولى:

- انجلترا وفرنسا وإسرائيل أيضا.. أنـا علـى استعداد أن أجند نفسي من أجل الدفاع عن شعب مصر.. هذه بلادي .. أموت من أجل مصر الحبيبة.. لا بد من أن نقاتلهم من بيت لبيت.. ونغرق جيوشهم في مياه القنـاة.. الرئيس يطلبك.. انتبه لنفسك يا حبيبـي ربنـا معـاك.. أخبرني بأخبار المعركة أولا بأول..

ووضعت السماعة.. وهي تقول في سعادة:

- لقد نجحت في خداعه..

وقالت لزينب هانم:

- أعجبتك؟

قالت زينب في اندهاش!!

- وتقولين إنك خائبة في التمثيل؟!

وأمسكت فنجان قهوتها بيدها وهي تقول:

- لا بد من البولتيكه حتى أنجو بنفسي ولا أُعتقل مع أفراد الأسرة المالكة بحجة تأمين الجبهة الداخلية..

وقالت وهي تنظر في الفنجان:

- نصرة في الطريق..

قالت في فرحة:

- العالم يتحرك ليعيد لنا الملك الذي ضاع..

وجدت زينب هانم نفسها تقول بدون تفكير:

- لن يعود فاروق..

قالت الأميرة بسرعة:

- قال ا ولا قالك .. فـاروق بـرغم أننـي لا أحبه.. إلا أنه ما زال رأس الأسرة.. عودته ضـرورية لنسترد مجدنا.. لم نعرف قيمته إلا بعد رحيله..

شعرت زينب هانم بأنها قد أخطأت.. وكما لو أن فاروق سيعود ولا تريد أن تفقده فقالت:

- أنا أحب فاروق.. فقد كنا أصدقاء.. وحضـر أحدى حفلاتي في سراي المنيرة ثم قالـت والسـيجارة تحترق بين أصابعها:

- ماذا قال لك حازم؟!

- قال لي: رامي مازال صبيا.. ونحن لا نعاقب الصبيان..

- أريد أن أسافر إليه..

- سأطلب منه إعداد طائرة خاصة.. بشرط..

- أمرك يا برنسيسة..

- أن تأخذي أموالي ومجوهراتي معك..

الفصل الثالث عشر

- زينب هانم مع الأميرة.. وأنا هنا أمير..

صاح مصطفى الكاشف بهذا وهو يعب الخمر في الكهف الذي اختاره بعيدا عن العيون في هذا المكان الذي تظلله الأشجار الكثيفة في نهاية الغابة.. ولا يستطيع أحد أن يصل إليه حتى لو كان الجن سيد أحمد.. عادة يهرع إلى هذا الكهف.. عندما يشعر بأنه قد أدى مهمته.. ألهب الظهور بكرباجه.. وأقام العدل كما كـان يفعـل جـده الأكبر.. ليكافئ نفسه بالفتيات الجميلات والخمر المعتقة والشواء!! ولكنه لا يفعل هذا الآن لأن زينب منعته مـن حمل الكرباج لأن هناك ثورة وعبد الناصر يحرر الناس ويعلمهم الكرامة.. ويسمع دبة النملة في مصر.. فيعرف أن مصطفى الكاشف يعصي أوامره.. فيعتقله كما اعتقل سيده رامي!. ولكنه بمجرد أن وصلته أخبـار الحملـة الأوروبية التي جاءت تؤدب ناصر. أخرج كرباجه الـذي

يخفيه.. وانتهز خروج زينب هانم السريع من السـراي ولوح بكرباجه وهو يعلن انتهاء عصر التمرد.. وشـعر وهو يسمع الأخبار التي تذيعها الإذاعات الأجنبية.. كمـا لو أن الجيوش التي تهاجم ناصر هي جيوشه فراح يلهب ظهر كل من يقابله في سراي المنيرة.. وأعطـى فـلاح الأميرة الفصيح سيد أحمد النصيب الأكبر.. وراح يقول: انتهى ناصر.. سترفعون الرءوس لأقطعها.. أنا الحجاج يا كلاب!!

وطلب من كروانة التي يخصها بإعزاز خاص أن تعد كهفه لسهرة حمراء.. وأعدتها كروانة.. دعت مليحة وزبيدة.. أجمل فتيات السراي.. تعرف أنـه يحـب أن يكون محاطا بالجمال.. لقد جلب عددا كبيرا من الفتيات من القرى المحيطة بالعزبة بحجة أن الحفلات السـاهرة في حاجة إلى فتيات جمـيلات يقمـن بخدمـة الأكـابر ضيوف الهانم.. وراح يتفحص الفتاتين كمـا لـو كـان نخاسا .. مليحة رومية الأصل.. لهـا جسـد رعـاش.. عندما تهزه تقتلع الأحـزان مـن أعماقـه.. وزبيـدة..

كالقشطة تغريه بالتهامها بعد أن تدور رأسه بخمر غنـاء كروانة.. وقال لكروانة:

- أين الباقي؟

قالت في شيء من الدلال:

- إلا يكفيك يا مولاي.. أنا؟!

- لكِ حق يا كروانتي .. أطربيني.. وأنـت يـا مليحة.. ارقصي.. وأنت يا زبيدة.. اسقيني من رحيقك..

وراح يعب خمره وهو يقول:

- أنا فـي جنـة مصـطفى.. خـارج الزمـان والمكان .. ولكن لا أحب الغلمان أحب الحور الحسان.. اسقيني يا زبيدة من شفتيك.. أريد أن أرتوي بالحب..

وقال فجأة: لا .. لا أريد أن أتذكر الحب.. الحب يذكرني بالفلاح الجاف الذي اسمه سيد أحمد الذي يتجاسر وينظر إلى سيدته نرجس..

وقال كما لو كان خليفة:

-نرجس.. ابنة حضرتنا.. أين السياف؟ مسرور .. اقطع رقبة هذا الفلاح الجاف.. الذي جعلني أحبس جميلة الجميلات نرجس في حجرة مظلمة.. وأجعل زهرتي الوحيدة تذبل.. أنا أفعل هذا؟ أجننت يا كاشف.. لا أنا في قمة عقلي.. لن يقطع مسرور رقبته.. لا أريده أن يموت مرة واحدة.. أريده أن يتعذب بالموت نسقيه السم.. ويموت خلجة خلجة.. غني يا كروانة.. وامتعيني بجسدك يا مليحة.. واسقيني يا زبيدة.. فهذه ليلة ما بعدها ليلة..

وقهقه وهو يقول:

- أريد أن تصبحن جميعا.. امرأة واحدة.. آكلها في وجبة واحدة ولكنه فجأة قال: أين وحيدة؟

قال وقد تعكر مزاجه:

- مليحة كفى واخرجي.. وأنت يا زبيدة اذهبي.. وأنت يا كروانتي اجلسي بجواري.. أريد أن أحـدثك.. أفتح قلبي لك.. فقلبي يميل لكروانتي..

قال بحزنه:

-تصوري وحيدة .. هذه الغانية تلاعبني.. أطلب منها الزواج تقول لي لا أتزوج من نخاس..أنـا تـاجر جوارٍ يا كروانة؟!

اغتاظت منه كروانة.. فهي تكره وحيـدة لأنهـا تشرب الشاي مع الهانم تحت تكعيبة العنـب كـل يـوم وتعاملها كما لو كانت خادمتها وهي تقدم الشاي..

فقالت:

- لا تستحق..

قال الكاشف:

- يا عبيطة أريد الزواج منها حتى أذلها..

- ولكنك تحبها..

قال في انكسار:

- نعم أحبها..

- بعد كل ما تفعله معك..

- قربي يـا كروانـة إذنـك حتـى لا تسـمعنا الجدران.. وحيدة الباب السري للهـانم.. وهـذا البـاب السري لا بد أن يظل مفتوحا أمامي حتى تظل الهانم في قبضتي.. زينب هانم لا تنسى أننـي أدخلتهـا حجـرة الأشباح وعذبتها وهي صبية في العزبة قبل أن تتـزوج شوكت باشا..

وقال وهو يرشف رشفة من كأسه:

- أنام وأنا مفتوح العينين.. أخاف لو أغمضت عيني أن تغدر بي وتجعل سيد أحمد يقتلني وتعطيه نظارة السراي.. وتزوجه من نرجس.. من أجل هذا لا أريد أن أموت.. أريد أن أعيش.. عندي أموال كثيرة.. والنساء جميلات.. أريد أن أستمتع بالحياة..

وراح يعب خمره كما لو كان يعب ماء.. ووقف وهو يترنح:

- أنا لن أموت.. جدي الكاشف الأكبر لم يمت.. روحه في جسدي.. عائلة الكاشف عائلة أبدية!!

وراح يرقص وهو يغني بصوته الأجش:

- أنا جدي الأكبر.. أنا أبدي.. أبدي!!

وسقط على الأرض..

الفصل الرابع عشر

طلبت زينب هانم من سائقها أن يجري بسرعة.. كما لو كانت تريد أن تهرب مما سمعته في نادي الجزيرة.. لم تمارس رياضتها كعادتها في كل صباح.. بل لم تكمل شرب فنجان الشاي.. لقد فوجئت بالنادي وقد انقلب رأسا على عقب.. يتحدثون في شماتة عن سقوط مصر أمام جيوش الإنجليز والفرنسيين والإسرائيليين.. وتأديب عبد الناصر الذي تجاسر وأمم القناة.. ويذكرون أن بعض الباشوات قد كتبوا مذكرة لمجلس قيادة الثورة يطلبون فيها تسليم الحكم لهم لإنقاذ البلاد من الدمار.. ويؤكدون أن عبد الناصر سيستسلم لطلبات الباشوات فقد تحدث مع مصطفى النحاس باشا وطلب مشورته.. وعدل عن محاكمة زوجته زينب الوكيل بعد أن أمر بجرجرتها للمحكمة لأنها رفضت المثول أمام محكمة الثورة.. وسيؤلف مصطفى النحاس باشا حكومة إنقاذ كحكومة ٤ فبراير أيام الحرب العالمية الثانية.. ليلغي التأميم ويعيد

الأرض التي استولت الثورة عليها لأصحابها الباشوات.. ويفرج عن الباشوات الذين اعتقلوا .. تـذكرت عزيـز باشا.. فرحت.. سيفرج عنه.. أوشك أن تقول لعم حسن: اذهب إلى قصر عزيز باشا.. ولكنهـا ابتسـمت.. مـا يرددونه في النادي مجرد أحلام. توقفت العربة، نظـرت من نافذتها. أبصرت الشارع مزدحما بالناس والسيارات، بدا لها الأمر كما لو أن أهل القاهرة يرحلون.. سـمعت صوت انفجار.. شعرت بالخطر.. لا بد أنهم قد دخلـوا القاهرة والناس في هروب جماعي.. تتجه مباشرة إلـى العزبة وتقيم هناك حتى يسلم عبد الناصر الحكـم إلـى حكومة الباشوات.. تذكرت ابنها رامي الذي قاد مظاهرة في هايدبارك.. أصـبح بطـلا.. سـتتحدث الصـحف والإذاعات عنه ويقولون عنها إنها أم البطـل.. وصـلها صوت عبد الناصر من الشارع وهو يخطب في الأزهر: سنقاتل.. انقـبض قلبهـا.. لا يمكـن أن يسـلم الحكـم للباشوات.. سيقاتل حتى لو هـدم مصـر فـوق رءوس المصريين!!

تذكرت ما قاله البعض في نادي الجزيرة للشامتين: لقد جننتم.. تريدون أن تعلقوا في الميادين على المشانق بتهمة الخيانة.. جواسيس عبد الناصر المنتشرة في النادي هي التي تطلق هذه الشائعات حتى تتكلموا وتعرف الثورة مشاعركم الحقيقية.. شعرت بدوار.. لم تعد تفهم شيئا.. أمسكت رقبتها كما لو كانت تمسك رقبة رامي.. تموت ولا يمسون شعرة في رأس رامي.. تذكرت ما قالته الأميرة لها من أن حازم عبد الصادق قال لها إنه سيضعه في عينيه.. تريد أن تطمئن عليه.. تحدثه تليفونيا.. انقطع الاتصال التليفوني بين مصر وإنجلترا.. سافر إليه.. المطار قد أغلق .. ولكن الأميرة قد وعدتها بطائرة خاصة.. شعرت بأنها مسجونة في العربة.. نظرت من وراء زجاج نافذة العربة إلى الناس.. تختنق بالزحام تمشي العربة للتوقف.. تريد شيئا من الموسيقى.. كانت موسيقى راقصة.. ذكرتها بوحيدة وهي ترقص في حفلتها التي أقامتها في العزبة.. وحيدة امرأة تختلف عن كل النساء اللائي التقت بهن في

النادي .. لا تتكلم في السياسة ولا تملك أرضا ولا تختنق في عربة سوداء.. حسدتها لأنها لا تركب هـذه العربـة المكيفة.. تريد أن تفتح باب العربة وتنزل إلى الشـارع لتتنفس.. فكرت في أن تذهب إلى وحيدة في بيتها وتسمع شيئا من حكاياتها المسلية لتضحك من قلبها وتنسى مـا سمعته في النادي.. وتخاف أن تحاسب عليها لأنهـا قـد سمعته.. ولم تدافع عن الثورة.. سيتصـل بهـا السـيد الشرقاوي ويقول لها: لقد حذرتك.. كانوا يريدون اعتقالك ولكني منعتهم.. شعرت بأنها في حاجـة للشـرقاوي.. يحبها.. والحب هو الأمان.. ينبغي أن تتزوجه حتى ينجو ابنها من جبروت عبد الناصر.. من أين جاء عبد الناصر بهذا الجبروت؟! تكتشف الآن.. أن هؤلاء الذين يحيطون بعربتها .. ويمنعونها من التقدم هم سر قوته.. تملكتهـا رغبة في أن تمشي في الشارع وتختلط بهم.. وتأخذ منهم ما تقاوم به الهزيمة التي تشعر بها الآن.. وبمجـرد أن توقفت العربة في شارع المنيرة فتحـت بابهـا ونزلـت منها.. قال لها عم حسن بخوفه عليها:

- خطر يا هانم..

قالت في لهجة حازمة:

- عد إلى السـراي.. وسأمشـي فـي شـوارع المنيرة..

وبمجرد أن ذهبت العربة.. شعرت بالخوف كما لو أنها قد سقطت في بحر وهي لا تعرف العوم تذكرت الأميرة.. لا تستطيع أن تمشي كما تمشـي هـي الآن.. شعرت بقوتها.. راحت تضرب بقـدميها فـي الشـارع المزدحم.. الناس يتجمهرون تصورت- للوهلة الأولى- أن الناس غاضبون لأن عبد الناصر قد ورطهم في حرب مع قوى لا قبل لهم بها.. شعرت بالزهو.. ابنها رامـي الذي يخطب في لندن يدافع عن حقهم في الحياة.. شعرت برغبة في أن تصرخ فيهم وتقول لهم ابني يعرض نفسه للخطر من أجلكم.. أبصرت بائعة تترك الناس التي تلتف حولها وتقول لها:

- أهلا بالقمر..

ارتبكت زينب هانم قالت بائعة القوطة:

سمعت من يقول للبائعة:

- أنا مستعجل يا وطنية:

تذكرت أن طباخها ذكر اسمها مرة أمامها فقالت كما لو كانت تعرفها:

- أنت وطنية؟

- خدامتك يا ست هانم؟

وفجأة رنت زغرودة.. والتفتت لتجد وحيدة

وهي تقول:

-ست هانم.

وكما لو أن زغرودة وحيدة في شارع الماوردي كانت تعني الانتصار.. سمعت من يقول: منصـورة إن شاء ا .. وكما لو أن النصر أصبح في أيديهم.. وبرغم أن أخبار الإذاعة تقول إن بورسعيد ما زالت تقاتل مـن بيت إلى بيت والمعركة شرسة فإن الناس فـي شـارع الماوردي اعتبروا أن النصر قد تحقق.. ومادام النصر قد تحقق فلا بد أن تكون هناك علاقة بين النصر وظهـور هذه السيدة الأنيقة في شارعهم.. لم يكن أحـد يعرفهـا باستثناء وحيدة التي يلقبونها بشيخة حارة المنيرة وتعرف أكابر البلد..ومادامت وحيدة تعرفها .. وزغردت عنـدما أبصرتها فلا بد أنها على علاقة برجال الثورة وتعـرف أكثر مما تذيعه الإذاعة فقال أحدهم بصوت عال: مندوبة الثورة!! ومادامت هي مندوبة الثورة فلا بد أن تكون لها علاقة بجمال عبد الناصر الذي طرد الملك وأخذ حقهـم من الأغنياء ويحارب أوربا الآن من أجلهم فقـال أحـد الرجال بصوت جهير: بلغي عبـد الناصـر.. المنيـرة معك.. وكلها على استعداد للسفر إلى القنـاة لمحاربـة

الأعداء.. وكانت في هذه اللحظـة. طـائرات الأعـداء تخترق سماء القاهرة والمدافع تطاردهـا.. توقعـت أن يخاف الناس ويجرون إلى بيوتهم.. ولكنها فوجئت بهـم يهللون بالفرحة.. ويلوحون بقبضاتهم في اتجاه الطائرات كما لو كانوا سيسقطون الطائرات بقبضـاتهم.. وعنـدما دوت صفارة الإنذار متأخرة.. انفتحت النوافـذ وأطـل الناس ونزل الكثيرون من بيوتهم.. وراحوا يتزاحمـون وهم يراقبون طائرات الأعداء والمدافع تطاردها..

وكما لو أن صوت المدافع أسكر الناس فصـرخ أحدهم : ا أكبر سقطت طائرة في النيل.. فاندفع الناس يجرون في اتجاه النيل .. و أرادت أن تجـري معهـم.. لترى الطائرة وهي تسقط في النيل.. استوقفتها وحيـدة.. خافت عليها من اندفاع الناس فقالت:

- من الأفضل أن تعودي للسراي..

فوجئت وحيدة بالهانم تقول لها:

- أذهب إلى بيتك..

فرحت وحيدة.. تزور حجرتها. لم يزعج زينب هانم السلم المظلم المتآكل وهي تصعد إلى الحجرة. أرادت وحيدة أن ترتب السرير بسرعة.. ولكن الهانم ألقت بنفسها عليه.. وأغمضت عينيها تريد أن ترتاح.. وكما لو أن قمة الترحيب بزينب هانم أن تفتح الراديو لتسمع عبد الناصر وهو يخطب في الأزهر فالإذاعة تكرر خطابه.. وبمجرد أن فتحت وحيدة الراديو امتدت يد زينب وأسكتت صوت عبد الناصر.. انزعجت وحيدة ولكنها حرصت على أن تخفي انزعاجها الذي بدا على وجهها. بابتسامة.. راحت زينب هانم تفكر كيف تسيطر على المنيرة؟ أبصرت قطعة أرض فضاء في شارع الماوردي .. تشتريها وتطلب من المعلم إبراهيم أن يبني عليها مركزا ثقافيا.. كانت في الماضي تفتح أبواب عزبتها للشعراء والأدباء والفنانين.. وآن الوقت لتبني صرحا ثقافيا يحمل اسم شوكت باشا.. ويصل خبر المركز الثقافي لعبد الناصر.. ويعرف أن بنت أفندينا لا

تهزم.. ونظرت إلى وحيدة التي تدلكها وتعطرها بعطـر اشترته من حي سيدنا الحسين.. وملأت الحجرة برائحـة البخور التي تحبها.. شعرت بأن وجودها فـي حياتهـا ضرورة لكي تخرج مشروعها إلى حيز التنفيذ وتنتصـر في معركتها مع عبد الناصر.. لتصبح المنيرة في قبضة يدها.. فقالت في نبرة أفصحت عن سعادتها:

- حجرتك دمها خفيف مثلك يا وحيدة..

- تشرفت بست الستات..

- بدأت أغار منك.. يحبونك في المنيرة!!

- إيه الكلام اللي بتقوليه ده يـا سـت هـانم؟.. حبوني علشان أنا أعرف مندوبة الثورة..

ضحكت زينب هانم سعيدة.. وبدلا من أن تقول : أنا مندوبة عبد الناصر قالت:

- أنا عبد الناصر!!

قالت وحيدة في براءة:

- كلنا عبد الناصر..

تضايقت زينب هانم منها.. توقعت أن تقول لها: كلنا بنت أفندينا فتغير مزاجها فاكتشفت فجأة أنها في حجرة لا تليق بها وتنام على فراش غير نظيف.. وتتباسط مع غازية فقفزت من على السرير وأخرجت زجاجة عطر باريسي من حقيبة يدها وغسلت يديها بالعطر وخرجت بسرعة وهي تقول:

- سمير ينتظرني!

ولم تتح لوحيدة الفرصة لتخرج معها لتدلها على بيت سمير عبد الكريم القريب وقالت:

- أريد أن أعرف الطريق بنفسي!

فوجئ سمير بزينب هانم تقف أمامه في بيته وهو يرتدي البيجاما شعر بالخجل من نفسه وهو يرتدي

ملابس لا تليق باستقبالها في بيته..أراد أن يستأذن منهـا ليغير ملابسه.. ولكنها أمسكته من يده وقالت وصـوتها يختنق:

- رامي في خطر..

- ماذا جرى؟!

- قاد مظاهرة ضد عبد الناصر

كان قد بلغه الخبر فقال:

- اعتقال عمه أطار صوابه..

لم تستطع أن تكتم دمعة فرت من عينيها وهـي تقول:

- أنا لا أنام يا سمير..

- نكلم أبو ريشة..

- جبان.. لا يحب الدخول في مثل هذا الموضوع الشائك..

- السيد الشرقاوي..

- لا أريد أن أورطه..

وقالت وهي تشعل سيجارة:

- رأسي يكاد ينفجر .. أريد فنجان قهوة سادة

أراد أن يخرج من الحجرة ليجيء بالقهوة ولكنها لم تتركه يخرج وقالت:

- تجولت في شوارع المنيرة وأنا قادمة إليك

قال بدهشته:

-زينب هانم تتجول في المنيرة أثناء الغارة؟!

- وعندما انطلقت صفارة الإنذار نزل الناس إلى الشارع بدلا من أن يجروا إلى الخنادق..

قال في حماس:

- الناس مع عبد الناصر.. يعلنون تحديهم..

قالت وهي تبتسم ابتسامة ماكرة:

- من أجل هذا سأكافئ حي المنيرة على وطنيته التي أظهرها في وقت الشدة!

ولم يلحظ سمير ابتسامتها الماكرة وقال:

- هذا هو المتوقع منك.. فأنـت زينـب هـانم صاحبة التاريخ الناصع في حب الوطن والتضحية مـن أجله..

- سأبني قصر ثقافة في شارع الماوردي

فقال كأنه يهتف:

- تحيا زينب هانم

ولم تستطع أن تكتم ما في داخلها فقالت:

- هل ستهتف المنيرة لي يا سمير؟!

- طيبون أهل المنيرة

قالت في اهتمام

-سيتولى مصطفى الكاشف..

- لا .. أبعدي الكاشف عن المنيرة..

- أنا محتاجة لعقلية الكاشف في مرحلة البناء.

- الكاشف مكروه..

- أنت لا تحبه لأنـه يريـد أن يزوجـك ابنتـه نرجس.. على كل حال.. نرجس بنت جميلة وصغيرة!

تجاهل ما قالت وقال في انفعال:

- الكاشف كرباج.. والثقافة احترام آدمية الإنسان..

قالت متحدية:

- سأجعل الكرباج والثقافة يلتقيان!

قال بنبرة حادة:

- العنف والإنسانية لا يلتقيان يا زينب هانم

- أنا أكثر خبرة منك يا سمير..

وأوشكت أن تقول: المصري لا يعمل إلا بالكرباج ولكنها ابتلعت عبارتها ولاذت بصمتها وقالت وهي تتأمله:

- لا تريد الكاشف..

فهز رأسه في حماس فقالت:

- ما رأيك في سمير عبد الكريم؟!

فكر على مهل.. أريد المشروع أن ينجح من أجل أهل المنيرة..

وقامت لتخرج.. قالت له وهي على عتبة الشقة:

- المقاومة الشعبية في بور سعيد تحقق نصـرا ساحقا..

الفصل الخامس عشر

{١}

شعرت زينب هانم بأنها قد انتصـرت انتصـارا حقيقيا وليس كعبد الناصر الذي انتصر انتصارا سياسـيا كما تردد الإذاعات الأجنبية.. حدثها ابنها رامي من لندن وقال لها إن أحدا لم يمسه بسوء.. وعرفت أن عزيز باشا أصبح حرا.. ووحيدة أخبرتها بأن أهل المنيرة لا حديث لهم إلا مشاركتها لهم في وقت الخطر.. حـان الوقـت لتستثمر هذا النصر.. وتسيطر علـى المنيـرة وتلعـب بورقتها في مواجهة عبد الناصر.. تقيم احتفالا بمناسـبة الانتصار على العدوان الثلاثي.. لتحوز على رضاء عبد الناصر ويتركها تنفذ خطتها في حي المنيـرة ولا يقـف أمام طموحها!.

صاحت في مصطفى الكاشف:

- أريد السراي لؤلؤة في عيون الباشوات..

- قال الكاشف في خبث، يريد أن يعـرف مـن دعتهم:

- الباشوات كانوا زمان يا برنسيسة..

- رجال الثورة هم الباشوات الجدد!

غبي..

اذهب يا غبي.. ونفذ..

- تمام يا أفندم..

{٢}

وقفت زينب هانم تستقبل المدعوين.. كمـا لـو كانت ملكة.. ترتدي أغلى ما عندها.. وتتألق بمجوهراتها التي أخفتها عن العيون منذ قامت الثـورة.. وتعطـرت بالعطر الملكي الذي أهدتـه لهـا الأميـرة.. كـان أول القادمين المعلم إبراهيم أحمد إبراهيم.. أبصرته يرتـدي حلة فاخرة على غير عادته فأرادت أن تقول له: بـرغم الحلة الفاخرة فستظل معلما فقالت:

- أهلا يا معلم:

وضح على وجهه عدم الرضا بقولها: يـا معلـم فقالت تضاحكه:

- مهما فعلت فستظل معلما..

وكأنه انتهز الفرصة ليذكرها بوعدها القديم بـأن تساعده ليكون بناء الثورة:

فقال:

- المهم هم.. يعتبرونني معلمهم!

تذكرت أنها تريد أن تبني مركزها الثقافي الـذي ستقيمه في شارع الماوردي

فقالت في شيء من الدلال

- أتعرف يا برهومة..

- عيون برهومة..

- فكرت فيك..

- شرف كبير لا أستحقه!!

- وأنا أمشي في شارع الماوردي..

واقتربت منها كروانة.. تريد أن تهمس في أذنها دون أن يسمع الجالس بجوارها بأن مصـطفى الكاشـف سيقتل سيد أحمد بالسم.. تضايقت من رائحتها.. فدفعتها في عنف وقالت وهي تتعطر بعطر أخرجته من حقيبـة يدها:

-اذهبي و أرسلي سيد أحمد..

قال المعلم إبراهيم في اندهاش:

- الملكة كانت تمشي في شارع الماوردي علـى قدميها!!

- كنت أريد أن أرى الناس وبورسعيد تقاتل..

وقال كما لو أنها أم كلثوم:

- عظمة يا ست..

- وأعجبت ببطولتهم.. وأريد أن أكافئ المنيـرة على وطنيتها.. سأبني لهم مركزا ثقافيا.. وأنـت سـيد البنائين..

- رقبتي .. سيد البنائين لا يتأخر..

- وعد

- وهدية من برهومة..

وكأنها لم تسمع عبارته فقالت:

- اتفقنا يا معلم..

وأبصرت علي أبو ريشة يقف أمامهما وهو يقول في شيء من الغيرة:

- اتفقتم على خراب مالطة!.

قالت زينب هانم بنبرة عتاب لأنه لم يسأل عنهـا ورامي في خطر:

- اتفقنا على عمارها..

أرادت أن تغيظه وتقول له إنها قـد قـررت أن تتحدى صديقه عبد الناصر وتبني مركزا ثقافيـا تطلـق عليه اسم زوجها شوكت باشا.. ولكنها أبصرت عزيـز باشا يضحك.. ما زالت ضحكته تنطلق من القلـب.. لا يعرف الحزن.. تذكرت برقيته التي أرسلها لهـا عنـدما انتحر شقيقة شوكت وقال فيها : نكون أغبياء لو فكرنـا في أن الحزن سيعيد لنا حبيبنا الذي اختار نهايته بيـده.. وأنت من أذكى النساء..

أرادت أن تذكره ببرقيته .. ولكنها وجدته يقدم لها الأمريكي الذي التقى به في الطائرة ودعاه للحفل بعد أن أفرج عنه وراح يردد أغنية: عبد الناصر حبيبنا!

اندهشت لأنه يغني هذه الأغنية: بعد أن أعتقلـه عبد الناصر.. فقالت:

- يا باشا!!

وكما لو أنه كان ينتظـر هـذه الكلمـة لتفرقـع ضحكته.. وهو يقول:

- يا باشا تاكل بوغاشة!.

ضحكت زينب هانم..

نظر إلى الأمريكي الذي كان يتحدث مع علي أبو ريشة وقال:

-زرت الدنيا شرقا وغربا.. فلم أجـد ضـحكة تنطلق من القلب كضحكة المصريين!!

قال الأمريكي في اهتمام:

-ولكني لاحظت – في هذه المرة وأنا زائر دائم لمصر – أن ضحك المصريين لم يعد كما كان..

قال أبو ريشة في اهتمام:

- ماذا تقصد؟!

قال الأمريكي ساخرا:

أمموا الضحك!!

قال عزيز باشا ليحولها إلى نكتة!

- وحياة البيه والدك.. لا داعي للسياسة جتتـي مش خالصة!!

قال الأمريكي ليظهر لعلي أبو ريشة أنـه يـتكلم كأولاد البلد:

-راكبك عفريت يا باشا!

قال عزيز ضاحكا:

-ركباني الثورة!!

وراح يضحك حتى اغرورقت عيناه بالدموع..

قال الأمريكي ساخرا..

-سيوجهون لنا تهمة الضحك في زمن الحرب!!

قال عزيز:

- لا تخف يا عزيزي .. الأمريكي يكسب هـذه الأيام..

خشيت زينب هانم أن يتورط عزيز باشـا فـي حديث يحسب عليه فقالت لتغير الموضوع:

- سمعتم لندن؟

قال عزيز باشا في حماس:

برغم أن الإنجليز استعمرونا سنوات طويلة فهـم لا يعرفون المصريين جيدا.. يتصورون أن كلمات تذاع من إذاعة .. ستجعل شعب مصر يثور ويسقط ناصر..

وأبصر أبو ريشة ينصت إليه باهتمام فقـال: لا يفهمون أن عبد الناصر هو البطل المنتظر..

أعجب أبو ريشة بما قاله عزيـز.. فأشـعل لـه سيجارا.. ارتاح عزيز لرقته فوجد قلبه ينفتح له ويقول:

- بمجرد أن وصلتني أخبـار العـدوان بحكـم اتصالاتي بالدوائر السياسية العليا فـي لنـدن.. ركبـت الطائرة لأقابل عبد الناصر وأخبره بما وصل إلى علمي حتى يبني خطته على أسس واقعية..

قال أبو ريشة:

- لماذا لم تتصل بي؟

قال عزيز باشا ضاحكا:

-أخذوني من الدار إلى النار كما يقولون

وانصرفت زينب هانم عن حـديثهما للترحيـب بضيوفها.. ولكن جذب انتباهها عزيز باشا وهـو يقـول لعلي أبو ريشة: طلقت زوجتي الإنجليزية لأنهـا سـبت ناصر.. فوجدت نفسها تقول:

- وغرام هانم؟

قال ضاحكا:

- غريمتك التي تكره الفلاحين.. طلقتهـا منـذ زمن.. وتزوجت سكرتيرتي الإنجليزية..

وكما لو أنها تؤكد لنفسها أنه قد طلقها فقالت:

- وطلقت الإنجليزية؟!

وقفزت إلى رأسها فكرة الزواج منه وهـو يهـز رأسه.. فهو يحب رامي.. ورامي يحبه.. وهـو أنسـب رجل تتزوجه ليرعى ابنها.. وينبغـي أن تعـيش بقيـة عمرها من أجل رامي.. فأصاخت السمع له.. تريـد أن تسمعه جيدا حتى تصل إلى قرار.. لم تـره منـذ فتـرة طويلة.. فوجئت به يقول لعلي..

- لم أغضب عندما اعتقلوا ابن أخي لأنه هـاجم الثورة في الجامعة.. لو كنت منهم لفعلـت هـذا .. لأن

سلامة الثورة.. أهم من ظلم مواطن.. وعندما أخبروني وأنا معتقل في قصري بأنـه قـد قـاد مظـاهرة فـي هايدبارك.. غضبت وقلت لهم: هذه خيانة!!

فار الدم في رأس زينب هانم.. ابنها يعرض نفسه للخطر من أجله وهو يتهمه بالخيانة.. لقد تغير عزيز .. لم يعد يحبه.. أخطأت عندما فكرت في الزواج منه..

قال أبو ريشة:

- الثورة لا تظلم:

ولم تستطع زينب هانم أن تكتم غضبها.. فقالـت في انفعال وهي توجه حديثها لعزيز بالرغم من أن علي أبو ريشة هو الذي قال: الثورة لا تظلم:

- ماذا يكون الظلم غير هذا؟ يقبضون على شاب في مقتبل العمر لمجرد أنه تفوه بكلمة في لحظة غضـب حزنا على أبيه..

قال أبو ريشة في نبرة هادئة:

- لا تنسي يا زينب هانم.. أنهم قد أفرجوا عـن رامي.. وسمحوا له بالسفر إلـى لنـدن.. ليقـف فـي هايدبارك ويخطب ضدهم واتصل بك منذ أيام وأخبـرك أن أحدا لم يمسه بسوء!

وأوشكت أن تقول: يستحقون.. ولكنها أبصـرت سمير عبد الكريم يقف أمامها فقالت وهي لم تتخلص من انفعالها:

- أين أنت؟ لماذا تأخرت؟

وقبل أن يقول سمير شيئا قال أبو ريشة:

- هكذا الصحفي .. وقته لا يملكه!

قال سمير في انفعال:

-تركت الصحافة..

قال علي:

- أنت صحفي من قمة رأسـك إلـى أخمـص قدميك.. كيف تترك الصحافة؟

- غضبت من رئيس التحرير!!

قال أبو ريشة ضاحكا:

- غضبت من سامي حنين. المحرر يغضب من رئيس التحرير؟!

قال سمير وهو ما زال منفعلا:

- حصلت على سبق صحفي.. فنشره كما لو أنه الذي حصل عليه لم يذكر اسمي..

- أي سبق؟

- نبوءة الفقير الهندي التي نشرتها مجلة العلـم سنة ٢٩ أثناء زيارتـه لمصـر ونزولـه فـي فنـدق

سميراميس.. وتنبأ فيها بأن ثورة ستقوم في يوليـو ٥٢ وسيحكم مصر أولادها الأحرار!!

- أنت صاحب هذا السبق؟ .. عبد الناصر اهـتم به..

وقال سمير ليؤكد أنه صاحب السبق الصحفي:

- وعرفت أن عبد الناصر طلب البحث عن هذا الفقير الهندي ودعوته لزيارة مصر إذا كان حيا..

قالت زينب هانم في دهشة:

- عبد الناصر يهتم بقراءة الطالع؟!

قال عزيز باشا لزينب هانم ساخرا:

- أبو خطوة ما زال حيا؟ .. أرسليه إليه..

تجاهل أبو ريشة ما قاله عزيز باشا وقال لسمير:

- كان ينبغي أن تدافع عن حقك..

- يكفي أنني أسقطه من نظري.. كنـت معجبـا بفكره الاشتراكي وإيمانه بحقوق الناس ولكنني اكتشفت أن ما يكتبه غير سلوكه..

ربت أبو ريشة على كتف سمير وقال له:

- أنت مازلت غضا..

قال سمير في حماس:

- الكاتب موقف..

قالت زينب هانم لعلي:

- سمير على حق..

قال أبو ريشة، كما لو أنه يدافع عن نفسه:

- الصحافة غير خيال الشعراء

قال سمير بجرأة:

- أختلف معك يا أستاذ علي..

قال عزيز باشا:

- أنا معجب بك يا سمير

وقال الرجل الأمريكي الذي كان صامتا:

- وأنا غير معجب!

وقال المعلم إبراهيم بدون تفكير:

- وأنا مع الأمريكي

وكأن المعلم إبراهيم قال نكتة.. فضحكوا جميعـا إلا سمير..

فقال المعلم إبراهيم في نبرة جادة يبرر لهم لماذا قال هذا الرأي:

- أنا مع الرئيس الأمريكي الذي طرد إسـرائيل من بورسعيد!!

{٣}

فتشت كروانة عن سيد أحمـد فـي الحديقـة.. فوجدته يجلس وحيدا تحت شجرة.. دق قلبها وهي تقول:

- سيد

تضايق منها. لا بد أنها قادمة تشكو من نرجس.. تتشاجر معها دائما فقال:

عاوزة ايه؟

ستخبره بأن الكاشف سيقتله.. لـن تسـتطيع أن تسكت أكثر من ذلك..

قالت:

- مصطفى الكاشف

- ماله؟

- عاوز يقتلك

ضحك.. قالت:

- أنا بتكلم جد.. هايقتلك بالسم

- وعرفتِ إزاي؟

- سكر في الحفلة التي عملها في أيام في الخـن بتاعه شمتان في عبد الناصر عشان بيضربوه وقال لازم يخلص منك بالسم

- وعرفت زينب هانم؟!

مارضتش تسمعني..

- وأنت إيه اللي خلاكِ تجيلي وتخوني الكاشف.. وأنتِ أقرب البنات ليه..

- عشان باحبك يا سيد..

- بـس أنـتِ عارفـة أنـي باحـب نـرجس وهاتجوزها..

-كفاية علي إني أشوفك قدام عنيه.. أنـا خايفـة لحسن يعملها الليلة دي وقبل أن تتركه أبصرت نـرجس تقف أمامها وهي تقول:

- ا .. ا .. زينب هانم قلب الـدنيا عليـك .. وانت قاعد مع كروانة بتتساير معاها هنـا.. بقيـت زي أبويا بتحب غناها!!

واندفعت تجري حتى لا ترى كروانة دموعها..

قالت كروانة:

- أنا خايفة لاحسن تروح تقـول لابوهـا يقـوم يقتلني.. راجل ماعندوش قلب..

- ما يقدرش..

-مش هاتسبني يا سيد؟

-ما تخافيش مش هايقدر يمس شعره في رأسك

عارفة إنك جدع.. ربنا يخليك ليـه.. قـوم روح بقى للست هانم عاوزاك.. واوعى تاكل حاجة من إيده .. خليني أنا اللي أكلها قبلك..

عشان أموت وأنت ماتموتش.. حرص على نفسك يا سيد أنا عاوزاك تعيش..

وانفجرت بالبكاء وجرت..

{٤}

أبصرت زينب هانم.. الأميرة تدخل وبجوارهـا حازم، أسرعت ترحب بالأميرة كما لو أن الملكيـة لـم تسقط وهي تقول:

- صاحبة السمو شرفت السراي..

وتسابق الجميع في الترحيب بالأميرة، أبو ريشة الذي لم يترك مقعده..

تنبهت زينب هانم إلى أنهم لم يرحبوا بحازم كما ينبغي .. بدا لها أنهم لم يعرفوه؛ فقد كان يرتدي الملابس المدنية.. وخشيت أن يغضب فيتصرف تصرفا غير لائق فهي تعرف أنه غير متزن.. فبالغت في الترحيب بـه.. وانتهز المعلم إبراهيم الفرصة وأظهر الولاء له.. كما لو كان هو الذي قام بالثورة.. وبالغ في إعجابـه بصـوت

خفيض حتى لا يسمعه أحد إلا أن عزيز باشـا سـمعه فقال:

- يا معلم .. حرام عليك..

تجاهل حازم ما قاله عزيز باشا وقال لعلي أبـو ريشة:

- أنت هنا يا علوة.. وأنا أبحث عنك!.

وقال وهو يقترب منه:

- أريدك أن تساعدني في إقناعه

وخفض صوته بعد ذلك إلى حد أن علـي أبـو ريشة كان يسمعه بصعوبة.. وفجأة قال بصوت عال:

- إذا لم نأكلهم أكلونا!!

وأمسكه حازم من يده وهو يقول..

- الأميرة تريدك..

واتجه به إلى الأميرة التي كانت تجلس على مقعد في وسط الحديقة كما لو كانت تجلس على كرسي العرش.. قالت لعلي أبو ريشة عاتبة:

- لم تسأل عني منذ رحل فاروق بالرغم أنني أرسلت إليك أطلب الاستغاثة..

وقالت بشيء من الدلال:

خنت الكافيار يا روشة!!

ضحك أبو ريشة.. يريد أن يخفي ندالته في ضحكته وأشار إلى حازم وهو يقول:

- لست في حاجة الآن إلى روشة بعد أن وقعت الثورة في غرامك!!

ضحكت الأميرة ونظرت إلى حازم في إعجـاب الذي انتبه لها وهي تقول.

- فارس ولا كل الفرسان..

قالت زينب هانم لتضم صوتها للأميرة ولتغـيظ علي:

- عندما يظهر القمر تختفي النجوم..

ضحك أبو ريشة كما لو أنها لا تقصده بما قالت. ابتسم حازم في غرور، سعدت الأميرة بعبـارة زينـب فرشفت جرعة كبيرة من الكأس الموضوعة أمامها وقالت وهي منتشية:

- أين الرقص يا زوزو؟

أبصرت زينب هانم.. خادمها الخاص سيد أحمد فقالت:

- أين وحيدة ؟ لماذا تأخرت؟ اذهب إليها..

لم يتحرك من مكانه قالت له مندهشة:

- ماذا بك؟

- قال بصوت هامس:

- الكاشف احتفل بضرب ناصر!

وبرغم أنه كان يتحدث بصوت هامس قالت:

- اخفض صوتك..

تعرف أن سيد أحمد لا يكذب فأصغت إليه في اهتمام.. قال سيد أحمد:

- الكاشف سكر وقال أمام كروانة أنه سيتخلص مني بالسم!

لم تسمع أنه سيتخلص منه بالسم.. كانت ذاهلـة وهي تقول: احتفل بضرب ناصر

واندفعت تاركه ضيوفها وهي تقول : أيـن هـذا الرجل المجنون؟!

●

- كاشف

- أمرك يا ست هانم

- احتفلت؟!

ولم تستطع أن تكمل عبارة: بضرب ناصر

- نعم يا سيدتي

-أجننت ؟!

- أطارت الخمر عقلي فأقمت احتفالا

- تريد أن يشنقوني!!

-رقبتي فداء مولاتي..

- أنت تعرف أنهم يسمعون دبة النملة..

يشنقون الكاشف.. وأنا أستحق الشنق.. لأني كنت غبيا..

- لا تجعلني أراك الليلة

- سأذهب إلى الغابة.. وأحبس نفسي في الكهف

- ولا تخرج..

وقالت وهي تتركه وتعود لضيوفها:

- حتى أتدبر الأمر..

●

لم تحضر وحيدة بعد .. أطار ما فعله الكاشـف عقلها. لو عرف ناصر لانتهت وانتهى رامي.. جنون ما فعله الكاشف. لا بد من أن تصنع شيئا مجنونا تخفي فيه هذا الجنون. ليس في رأسها ما تفكر به. وجدت نفسـها تندفع نحو حازم الذي كان يضحك مع الأميـرة وهـي تقول:

- سأرقص الليلة بنفسي احتفالا بالنصر!

وأدارت موسيقى راقصة.. ورقصت كما لو كانت راقصة محترفة.. وكان أول المصفقين.. حازم.. فصفق لها كل الجالسـين.. تملكهـا الشـعور وهـي تـرقص بالانتصار.. اندفعت نحو حازم الذي كان منتشيا وجذبته من يده ليقوم ويرقص.. واستجاب لها وراح يرقص وهو في قمة الانسجام.. وشعرت بنشوة الانتصار.. فـأرادت ألا ينتهي الرقص الذي أشعرها بأن الثورة قد أصـبحت في قبضتها.. ولا خوف عليها مما فعله الكاشف ولكنهـا

أحست أن حازم قد تعب فأشفقت عليه.. فتوقفـت عـن الرقص ليجلس حازم وهو يقول:

- نصرنا يستحق أن يرقص لـه حـازم وهـو مريض بالقلب!

قالت الأميرة:

- لو كنت أعرف الرقص لرقصت معك احتفالا بالنصر!

رفع حازم كأسه سعيدا وهو يقول:

- نشرب كأس الأميرة الثائرة..

ورفع عزيز كأسه وقال:

- ونشرب نخب رقصة الثوار..

وقال لحازم:

- أنا في قمة السعادة لأني أعـيش الآن لحظـة تاريخية.. الأميرة والثورة والباشا..

ولم يجعله حازم يكمل كلامه وقال:

- وأنا لست في قمة السعادة.. لو كنت أعرف أن الخونة سيحضرون الحفلة ما كنت قد حضرت..

فقد عزيز أعصابه وقال:

- خونة.. من الخونة؟ أنا وطني أكثر منكم.. أنا عزيز باشا .. إذا كنتم لا تعرفون التـاريخ فهـذا لـيس ذنبي!!

تراجع حازم وهو يقول:

- غضبت يا باشا؟!

- ماذا تتوقع من رجل عاش العمر كله من أجل وطنه حين يسمع من ممثل ثورته..

قاطعه قائلا:

- وأنا لست ممثلا للثورة .. أنا حازم أمثل نفسي..

ولا أسمح لك..

- وأنا لا أسمح لنفسي بأن أتهم مواطنا شريفا بالخيانة..

- اسمح لي أن أقول لك يا جنرال أنني لا أفهمك..

قال حازم:

- وأنا لا أفهمك.. لماذا أنت ثائر؟

- لأنكم تتصورون أن من لم يلبس الحلة الصفراء فهو خائن..

ضحك حازم وقال:

- لقد ثبت أنك مواطن شريف والدليل أنك هنـا الآن تستمتع برقص زينب هانم وليس في المعتقل!!

تضايق عزيز باشا من عبارته الأخيرة فأوشك أن يقوم ويخرج .. نظرت إليه زينب هانم ترجو إلا يذهب.. فجلس صامتا.. ولكنه لم يصمت طويلا وقال:

- أنا مسافر..

فهم حازم أنه يقول إن مصر أصـبحت بلـدا لا يعاش فيها فقال:

- مسافر إلى وطنك لندن..

- أمريكا وأنت الصادق..

قال حازم ساخرا:

- غيرت وطنك..

- لأشكرها على مساعدتها لكم في وقت الشدة!

أراد عزيز باشا أن يفهمه بأنـه يعـرف خفايـا السياسة الأمريكية فقال:

- على فكرة.. أمريكا لا أمان لها.. لا تخـدعكم ما فعلته معكم.. لا تفعل هذا إلا إذا أخذت الثمن..

قال حازم في غرور:

- نحن ثوار.. والثوار لا يدفعون ثمنا..

وخشيت زينب هانم أن يتطور الحديث ويخـرج عزيز من الحفلة إلى المعتقل..فحازم مجنون لا يأمن أحد جانبه فقالت:

- لا تكن أنانيا يا عزيز.. وتستولي على الباشا

قال حازم في استفزاز:

- أنا لست باشا يا زنوبة..

قالت زينب في رقة:

- أتعرف يا حازم أن أحب اسم إلى قلبـي هـو زنوبة. كنت أعيش أحلى أيامي وأنـا زنوبـة.. الكـوخ أجمل من القصر يا حازم.

ارتبك حازم.

قالت الأميرة لتنهي الموقف:

- حازم أنا جائعة..

قام ليحضر لها صحنا من الطعـام.. أبصـرت الأميرة السيد الشرقاوي أمامها فقالت باسمة:

- جئت؟!

قال الشرقاوي ضاحكا:

- على رائحة الشواء..

قال عزيز ضاحكا:

- كالقطط..

قالت الأميرة:

- أنا أحب القطط السيامي

قال السيد الشرقاوي وهو ينظر إلى زينب:

- وأنا أحب القطط الرومي

وعاد حازم يحمل صحن الطعام للأميرة وقال بصوت عال بالرغم من أن الشرقاوي كان بعيدا عن الأميرة:

- ابعد عن الأميرة يا شرقاوي!!

قال الشرقاوي في شيء من الخوف:

- أنا أتحدث مع زينب..

ونظر إلى زينب هانم وقال لها:

- أعرف أنك غاضبة مني لأنني قد تأخرت أكثر من اللازم.. على فكرة كنت أقرأ آخـر التقـارير عـن رامي..

وعندما أبصر عزيز يقترب منهما قال:

- كل شيء هادئ في الميدان الغربي..

قال عزيز باشا:

- سمعت عن خفة ظلك مـن المرحـوم أخـي شوكت.. ولكن لم أكن أتصورك خفيف الظل إلـى هـذا الحد..

- أتعرف أنني أحب اسم عزيز.. يذكرني باسـم القائد العظيم عزيز باشا المصري..

وقال بنبرة وشت بحزن دفين:

- تعرف أغنية عزيز كبة تاخذ الإنجليز.. كنـت أغنيها وأنا في السجن..

وقال عزيز باشا:

- وأنا أغنيها في لندن

قال ضاحكا:

- وستغني في أمريكا: كبة تأخذ الأمريكان

- لا شيء يخفى عليكم..

قال الشرقاوي في ود:

- المسئولية يا باشا .. تنام وعيوننـا مفتوحـة.. نحرس الشعب من الثورة المضادة..

أبصرت زينب هانم "أبو خطوة" يتجـه إليهـا.. فزعت لظهوره في الحفل بملابسه المهملـة.. وقبـل أن تقول شيئا قال:

- يهوذا باع المسيح وأنت في الصباح!!

قال السيد الشرقاوي وقد أبصر وجه زينـب قـد شحب:

- رجل مخرف لا تنصتي إليه..

ونظر إلى الأميرة وقال:

- يقرأ لك المستقبل..؟

وقالت الأميرة وهي تمسك يد حازم:

- عرفت مستقبلي..

قال الشرقاوي ساخرا:

- أجمل مستقبل!

وقال لحازم وزينـب هـانم منشـغلة بالرجـل المبروك:

- أنت محظوظ دائما..

قال حازم ضاحكا

- أكسب كل معركة أدخلها معك..

قال الشرقاوي يخطب وده..

- أنا أخوك يا حازم..

قال عزيز ضاحكا:

-الأخوة الأعداء!

قال حازم كما لو أن عزيز يمثل باشوات العهـد البائد:

-موتوا بغيظكم!!

وانحرف مزاج زينب هانم فأنهت الحفلة مبكـرا برغم أن وحيدة قد جاءت ومعها فرقـة فنيـة كبيـرة..

ووضح على وجهها الإرهاق وهـي تـودع ضـيوفها. ودخلت حجرة نومها وعبارة "أبو خطوة" : يهـوذا بـاع المسيح وأنت في الصباح.. ترن في رأسها حاولـت أن تطرد ما قاله " أبو خطوة" من رأسها وهي تتذكر حديث الشرقاوي الودود وهو يعتذر عن تأخره.. وتتساءل هـل يعني حديثه هذا بأنه سيطرق بابها بعد أيام.. ليطلب منها الزواج؟!

الفصل السادس عشر

فتحت زينب هانم عينيها وهي راقدة في فراشها.. مرتدية قميص نومها لترى ثلاثة ضباط يرتدون ملابـس الشرطة العسكرية يقفون فوق رأسها.. لا بد أنها تحلم.. أغمضت عينيها كما لو أنها تؤكد لنفسـها أن مـا تـراه حلم.. ولكنها استوعبت – بعد قليل أنها مستيقظة وراقدة في فراشها بقميص نومهـا.. وهنـاك ضـباط شـرطة عسكرية يقفون حولها فقالت مفزوعة:

- من أنتم؟ من أدخلكم إلي هنا؟!

بدا شيء من الاضطراب في صوت من قال لها:

- نريد أن نتحدث معك!

قالت بذهولها:

- وأنا بقميص نومي؟!

تبينت أن صاحب الصـوت المضـطرب هـو الضابط الكبير وهو يقول:

- الأوامر يا هانم ألا نزعجك!!

قالت في انفعال:

- تسخر مني يا حضرة الضابط..

قال في شيء من الارتباك..

- الأوامر...

- إيه أوامر.. لا بد أنكم قد أخطأتم .. تريـدون غيري..

- نريد الهانم!!

- تعرفون من أنا؟ أنا زينب هانم.. بنت أفندينا

قال أحد الضباط في شيء من السخرية:

-تفضلي معنا يا بنت أفندينا...

قالت في عصبية:

- لن أتفضل...

قال الضابط الكبير في شيء من الرقة:

- زينب هانم.. هذه أوامر .. ولا بد من تنفيذها..
فلا داعي للمقاومة.. فقالت:

- من فضلكم اخرجوا حتى ارتدي ملابسي...

قال الضابط الكبير:

- الأوامر يا هانم إلا نتركك لحظة واحدة..

قالت غير مصدقة ما تسمع:

- أذهب معكم بقميص نومي؟

قال أحد الضباط الصغار في نبرة معادية:

- نعم

صرخت فيه:

-اسكت يا وقح .. أنا أحدث رئيسك

تذكرت أن السيد الشرقاوي سيتزوجها ولا يسمح بأن تدخل الشرطة العسكرية عليها في حجـرة نومهـا ويأخذوها وهي بقميص نومها.. ستتصل بـه وتخبـره ليجيء على الفور ويقلب الدنيا فوق رءوسـهم.. فمـدت يدها إلى التليفون فقال الضباط الكبير:

- لا تتعبي نفسك يا هانم...

- قطعتم الحرارة...

وتملكها العناد فقالت:

- سأرسل للسيد الشرقاوي.. ألا تعرفـون أنـه زوجي؟!.. بدلا من أن تقول إنه : سيتزوجني...

قال أحدهم وقد نفد صبره:

- تفضلي معنا...

- لن أذهب حتى يأتي الشرقاوي

رد عليها في وقاحة:

- سنأخذك بقميص النوم...

تملكها الغضب فقالت:

- لم يحدث هذا في أيام فاروق.. ألا تعرفون أن هناك ثورة.. وجمال عبد الناصر سيغضـب إذا عـرف أنكم فعلتم هذا معي.. الرئيس يعرفني وقد اتصلوا بي من مجلس الثورة وقالوا لي انتظري مكالمة الرئيس...

قال أحد الضباط:

- نقبض عليك باسم الثورة..

أنا صديقة الثورة.. أقمت حفلة ساهرة احتفالا بالنصر.. وحضرها حازم عبد الصادق.. ورقص رقصة النصر.. أتعرفون من هو حازم عبد الصادق.

أوشك أحدهم أن يجذبها من فراشها فقال له الضابط الكبير.

- دعها...

فهمت من كلمة الضابط أنه سيستجيب لها فقالت في نبرة آمرة:

- أريد دقائق...

قال الضابط الكبير في حزم:

- آسف

- آخذ حمامي

- آسف...

- وأغير ملابسي

- آسف..

- أعطوني ظهوركم حتى ارتدي ملابسي.

وقبل أن يقول : آسف .. قفـزت بسـرعة مـن سريرها وارتدت فستانا كان في متناول يـدها وغطـت رأسها بشال ونظرت في المرآة لتبصـر التحـدي فـي عينيها وتصرخ:

- أنا بنت أفندينا يا كلاب!

وخرجت تتقدم ضباط الشرطة لتبدو وهي خارجة من بوابة السراي أنها غير مقبوض عليها..

(٢)

رنت في رأس زينب هانم عبارة أبـو خطـوة " يهوذا باع المسيح وأنت في الصباح!!" التي قالها لها في الحفلة الساهرة.. وهي تدخل الفيللا.. لقد أركبوها عربة سوداء مسدلة الستائر.. ومضت بها العربـة إلـى هـذه الفيللا الرمادية والتي خيل لها أنها آخر الدنيا.. تساءلت مع نفسها وهي تدخل الحجرة التي أغلقوها عليها.. مـن هو يهوذا الذي باعها في الصباح؟! هل هو حازم؟.. هل غضب منها لأنها تركت عزيز يتجاوز حدوده معه وهو يناقشه؟!.. لا يمكن أن يكون حازم عبد الصـادق هـو يهوذا: لقد كان رقيقا معها.. استجاب لها عنـدما دعتـه للرقص وشكرها لأنها نجحت في أقناع الأميرة بالزواج منه.. وأعطاها رقم تليفونه السري لتطلبه عندما تريـد.. لا بد أن خبر حفلة مصطفى الكاشف قد وصل إلى عبـد الناصر فأمر باعتقالها.. ستخبرهم بأنها بمجرد أن أبلغها سيد أحمد بما فعله الكاشف.. أسـرعت إليـه وحاكمتـه

وأمرت بسجنه وهو الآن مسجون في كهفه.. ويستطيعون أن يتحققوا من ذلك فليس من المعقول أن ترضـى عـن هذا الجنون وهي التي أقامت احتفالا كبيرا لنصر ناصر في سراي المنيرة وعلقت الزينة وذبحت الذبائح ودعـت رجال الثورة والأميرة وعزيز باشا لتبدو الأمة كلها أمام العالم فرحة بالنصر ورقصت وهي التي لـم تـرقص- هكذا- من قبل.. لقد ظلمت لأنهم سمعوا لمن وشى بها.. تذكرت السيد الشرقاوي.. الوحيد الذي يستطيع أن يرفع الظلم عنها.. يحبها. تذكرت نظرة الحب التي كانت فـي عينيه بعد انتهاء الحفلة.. شعرت بقلبها يدق .. لم يـدق قلبها هكذا من قبل.. شعرت بحاجتهـا إليـه لأن تلقـي برأسها على صدره وتبكي.. فهل هذا هو الحب؟ تريد أن تلقاه الآن لتقول له: أنا أحبك يا شرقاوي.. وراحت تدق الباب الحديدي بقبضة يدها وهي تصرخ: أريـد السـيد الشرقاوي. لم يستجب أحد لها.. نظرت في ساعة يـدها تريد أن تعرف الزمن الـذي دق فيـه قلبهـا وأحبـت الشرقاوي.. تنبهت إلى أنهم قد أخذوا سـاعتها الألمـاظ

وأساورها الذهبية وما معها من مال.. شعرت بالإعيـاء فجأة لم تعد تحتمل الوقوف أكثر من ذلك.. لا يوجد مقعد تجلس عليه.. تجلس على بلاط الحجـرة.. يريـدون أن يذلوا زينب هانم.. لن تمكنهم.. توقظ زنوبـة داخلهـا، الصبية التي طالما افترشـت الأرض.. وعاشـت مـع الحيوانات.. وصـادقت الـذئاب .. فخلعـت فسـتانها الباريسي.. واحتضنت بجسدها بلاط الحجرة البـارد... لتتذكر عندما أدخلها الكاشف حجرة الأشـباح ليـتخلص منها.. لتخرج منها زوجة لشوكت باشا وتحكم العزبة!!

وانفتح باب الحجرة الحديدي .. وغمرها النور.. تضايقت من النور قال المحقق وقد أبصرها راقدة علـى بلاط الحجرة:

- آسف.. سأخرج حتى ترتدي الهانم ملابسها...

قالت بعد أن ارتدت ملابسها:

- لن أخرج من هنا حتى أعرف لماذا اقتحموا علي حجرة نومي وأنا بقميص النوم.. وجاءوا بي إلى هنا؟!

قال المحقق برقة: - عذرا يا هانم.. أنا المسئول عن تركك هنا كل هذا الوقت.. كان من المفروض أن أكون في استقبالك لنشرب فنجان قهوة معا ونتحدث...

شعرت بالتأثر من رقته وهو يصحبها إلى الصالون فقالت تعاتبه:

- كيف تترك زينب هانم تنام على البلاط؟!

- أنت تعرفين يا هانم.. أننا لا ننام هذه الأيام.. فمسئوليتنا حماية مصالح الشعب تجعلنا في عمل مستمر.. وأعداء الشعب لا يتركوننا لحظة واحدة نرتاح.

وهذا ما يجعلنا نتأخر عن عمل الواجب...

قالت وكأنها تبكي:

- عمل الواجب...

نظر في عينيها.. لم يجد دمعة فقال:

نعرف شجاعتك.. لم تذرفي دمعة واحـدة علـى زوجك الباشا الذي أراد أن يجرح الثورة بانتحاره رغـم علمنا أنك تحبينه!

أشعل سيجارة لها:

- تحبين الثورة أكثر من حبك للباشا!!

ووجدت الدموع في عينيها.. فقالت بسرعة كمـا لو كانت تخفي بكلمتها دموعها:

- أنا متعبة!

- الحمام الساخن سيزيل تعبك.. وقد أرسلنا إلى السراي بعض رجالنا وأحضروا لك بعض الملابس حتى نجعل إقامتك هنا:

قالت غاضبة:

- إقامتي هنا!!

قال بسرعة ليطمئنها :

- لن تطول أقامتك إلا بقدر الوقت الذي ستحتسي فيه فنجان القهوة.. التعليمات يا هانم..

تصورت أنها تعليمات السيد الشرقاوي لا بد أنه قد عرف بأمر اعتقالها فأوشكت أن تقول: تعليمات السيد الشرقاوي، ولكنها تراجعت عن ذكر اسمه حتى لا يصل إلى عبد الناصر أنها قد ذكرته في التحقيق فيمنعـه مـن الزواج منها.. فقالت:

- تعليمات حازم..

-التعليمات مشددة لراحة الهانم..

- أين حازم عبد الصادق؟ أريد أن أتصل بـه.. أعطاني رقم تليفونه السري..

- أنا بالنيابة عنه.. ماذا تريد الهانم؟

- أريد أن أعـرف .. كيـف اقتحمـوا حجـرة نومي؟!

تظاهر بأنه لا يعرف بهذا الأمر .. فقال مندهشا:

- اقتحموا حجرة نوم الهانم.. كيف حدث هذا؟ لا بد من أجراء تحقيق وقالت كما لو كانت تصدر أمرا:

- وأعرف نتيجته على الفور!

قالت في ود وقد شعرت بشيء من الراحة:

- لماذا لم تتفضل عندي في الســراي لنشـرب القهوة معا...

وقالت باسمة:

- البن عندي محوج؟!

بادلها الابتسامة:

- المنيرة يا زينب هانم ضجة.. وقهوتنا تحتاج إلى هدوء..

قالت زينب هانم:

- أين القهوة؟

وكأنها قالت: حتى أشربها وأذهب ... وصـمتت وراحت تدخن السيجارة التي أشعلها لها

قال كما لو أنه قد أصبح صديقا لها:

- أفضل أن نشربها بعد أن تأخذ الهانم حمامهـا الدافئ .. أعرف أهمية الحمام بالنسبة للهانم...

ووقف المحقق في أدب وخرج وهو يقول:

- الحمام معد الآن .. وسأنتظر في الصالون...

(٣)

قالت زينب هانم بعد أن أخذت حمامها وتناولـت إفطارها:

أفندم يا حضرة المحقق ...

أشار المحقق بيـده لتـرى تسـجيلا بالصـوت والصورة للحفلة التي أقامتها في حديقة سـراي المنيـرة احتفالا بالانتصار علي العدوان الثلاثي فقالت في دهشة:

- سجلتوا الحفلة؟!

قال باسما:

- حتى نحتفظ بها في أرشـيفنا .. فمثـل هـذه الحفلات لا تتكرر

قالت منزعجة:

- الأصول أن تستأذنوا يا حضرة المحقق...

قال بنبرة لم تألفها منه في حديثه من قبل:

- الثورة لا تستأذن أحدا في أمنها!

قالت منفعلة:

- أنا أقمت هذه الحفلة احتفالا بنصـر ناصـر.. وجمعت فيها بعض رجال الثورة وأخت فاروق وعزيـز باشا ليقال في العالم إن الأمة كلها وراء ناصر...

وأوشك أن يقول : والأمريكان... ولكنه قال:

- ونحن نستضيفك هنا لنقدم للهانم شكرنا علـي مبادرتك الوطنية...

قالت ساخرة:

- بنومي علي البلاط..

- أرجو أن تنسى زينب هانم مـا حـدث حتـى نعرف كيف نشرب فنجان القهوة

قالت وهي ترشف رشفة من فنجان القهوة:

- القهوة المرة ...!

- بعد قليل ستكون حلوة... نشربها فـي حـب الوطن

فهمت أن التحقيق قد بدأ فقالت:

- أفندم يا حضرة المحقق..

- نريد أن نعرف أسماء ضيوفك...

-الحفلة مصورة أمامك..

- نحب أن نعرف من الداعية...

- اسأل حازم عبد الصـادق.. كـان حاضـرا ورقص معي..

- لا يوجد في التسجيل أي رقص..

-حذفتم رقصته معي ...

- زينب هانم...

- أفندم...

أشار إلى الرجل الذي قال: أممـوا الضـحك.. وقال:

- من هو هذا الرجل؟

- لا أعرفه..

- لا تعرفه الداعية..

- جاء مع عزيز باشا؟!

عم رامي الذي حددت إقامته في قصره..

- كيف حددت إقامته.. وحضر الحفلة؟!

- اصطحبه بعد الإفراج عنه

- يتحدث باللهجة المصرية؟

- قال إنه أمريكي.. ابن بلد.

- زينب هانم.. سأحدثك بصراحة.. هناك مؤامرة على الرئيس... وعندنا تفاصيلها ولدينا أدلة مؤكدة على أن هذا الرجل له علاقة بها..

- اقبضوا عليه..

- سافر..

- تركتموه يسافر وتحبسونني أنا؟!

- لصالح التحقيق.!!

اسألوا عزيز باشا

- لا نريد إزعاجه.. فهو صديق للثورة.. طلـق زوجته الإنجليزية لأنها سبت الرئيس

- وتزعجون زينب هانم؟!

- أحتج يا زينب هانم.. فنجان قهوتي لا يزعج

- كيف تريدون مني أن أعرف تـاريخ رجـل حفلتي بدون دعوة مني؟!

- نطمع في مساعدتك..

- كل ما أعرفه أنه قد التقى بعزيز في الطائرة..

وأكمل المحقق كلامها قائلا:

- التقى به في الطائرة مصـادفة.. طـائر مـن أمريكا ليجد مقعدا خاليا بجوار عزيز الطائر مـن لنـدن إلى القاهرة الذي يحدد أقامته.. ويفرج عنـه.. وتقيمـين

حفلة.. ويدعوه لحضور الحفل ويقبل الـدعوة ويحضـر حفلتك علي ريشة و...

وقاطعته قائلة:

- اسأل علي أبو ريشة.. لقد كان حاضرا..

قال بلهجة حاسمة:

- لا شأن لنا بعلي..

ثم قال:

-زينب هانم.. أنت تحبين الرئيس..

- تعاقبون زينب هانم لأنها تحبه؟!

- نريد معلومات عن هذا الرجل..

نفد صبرها:

- تريدون معلومات عن رجل لا أعرفه.. وأنـتم بكل أجهزتكم لا تعرفونه!!!

- من الأفضل أن تتكلمي.. حتى تعود الهانم إلى قصرها معززة مكرمة..

وابنتك جلنار هانم أوشكت أن تعود من رحلتهـا إلى أسوان.. ومن مصلحتك ومصلحتنا ألا تعرف أنـك كنت في زيارتنا..

قالت بصوت فقد صوابه:

- ستصيبني بالجنون يا حضرة المحقق.. كيـف أتكلم عن رجل لا أعرفه؟!

- قال في صوت هادئ:

- معذرة يا زينب هانم سـتبقين عنـدنا حتـى تعرفيه!

(٤)

شعرت زينب هانم بإعياء شـديد.. حـل عليهـا إرهاق الليلة التي نامتها على البلاط.. بمجرد أن دخلـت حجرة النوم ألقت بنفسها على السـرير.. راحـت فـي النوم.. وكما لو أنها تحلم.. انطفأ نور الفيللا.. سـمعت صوت كلاب تنبح.. شعرت بالخوف.. جـذبت غطـاء السرير عليها كما لو كانت تحتمي بالغطاء من خوفهـا.. سمعت صوت خطوات.. أحست بالخطر امتـدت يـدها وسط الظلام الدامس تبحث عن عود ثقاب كما لو كانـت شعلة الثقاب ستبعد الخطر عنها.. لم تجد علبة الثقـاب.. الخطوات الثقيلة تقترب منها.. غطت رأسـها بالغطـاء الكثيف .. تختنق..اشتد نباح الكـلاب.. أحسـت بـأن صاحب الخطوات الثقيلة فوق رأسها.. تحتمي بالغطـاء منه.. يجذب الغطاء من عليهـا بعنـف.. سـتخنقه لـو لمسها.. بدا لها عنقه لتخنقه عثرت على عـود ثقـاب.. أشعلته.. أبصرت وحشا في ثوب إنسان.. صـرخت ..

قهقه.. يهاجمها .. قاومت.. من أين جـاءت بقوتهـا.. مزقت لحمه بأظفارها.. بأسنانها.. لكنـه راح يضـحك ضحكة وحش يلتهم ضحية.. سمعته يغمغم: طعمـة يـا بنت أفنديا.. وراحت في غيبوبة..

وفتحت عينيها على أشعة الشـمس.. تتحسـس نفسها.. تريد أن تعرف إذا كان الذي رأته وهي نائمة.. كابوسا أم حقيقة؟! هل اغتصبها الوحش في الظـلام؟.. ولكنها مزقته بأظفارها وأسنانها.. تنظر في أظفارهـا لا تجد أثرا للدم.. كان مجرد كابوس جثم على صـدرها.. نظرت في المرآة.. تريد أن تطمئن إلى أنهم لم يشرخوا شيئا في داخلها .. وما زالت زنوبـة التـي لا تخـاف الذئاب.. أبصرت امرأة مهزومة.. تريد أن تظل زنوبـة التي كانت تخرج للذئاب في الخلاء.. وصرخ في داخلها شيء:

لا .. لم يغتصب أحد روحـي.. والبـراءة فـي عيني..

ووضعت أحمر الشفايف الذي بلون الـدم علـى شفتيها.. تريد أن تقول للمحقق الذي ستلقاه- الآن – إنها قد شربت من دم الوحش الـذي هاجمهـا فـي الليـل.. وارتدت فستانا جميلا.. سمعت خطـوات.. توقعـت أن يدخل المحقق.. ضحكت ضحكة رنانة. وجـدت رجـلا يقول:

- حضرة الضابط ينتظر:..

قالت:

- أخبره بأنني سأحضر بعد قليل..

وتعطرت بعطر الأميرة الفواح وارتـدت حـذاء لامعا.. كما لو كانت ذاهبة إلى حفلة سـاهرة..ووقـف الضابط عندما دخلت عليه.. قالت دون أن تنظر إليه:

- شكرا لإحضارك ملابسي وأدوات زينتي.. لم تنسوا زجاجة العطر التي أهدتها لي الأميرة مرمر..

قال الضابط:

- لم تفعل غير الواجب..

قفز إلى عينيها الوحش الذي هاجمها وهي تـراه على ضوء عود ثقاب كما لو كان حقيقة وليس خيـالا.. فقالت ساخرة:

- قمتم بالواجب فعلا!!

- لعلك راضية!

رفعت رأسها لتقول له: أنـت سـافل.. ولكنهـا وجدته غير الرجل الذي حقق معها فقالت:

- أنت لست هو..

- أنا مندوب القيادة...

أبصرت الطيبة في وجهه وهو يقول:

- أرسلتني القيادة لأعتذر لك..

تريد أن تنفجر بالدموع.. ولكنها انفجرت بالضحك..

ارتبك الضابط .. تصور أنه قد أخطأ فقال:

- أرجو أن تقبلي اعتذاري بدلا من أن يقول تقبلي اعتذار القيادة!

قالت وقد كفت عن الضحك:

- والمعلومات التي تريدونها عن الرجل الأمريكي..

قال الضابط معتذرا:

- اكتشفنا أننا لسنا في حاجة إليها، ملفه كامل

قالت في ذهول:

- ملف الرجل كامل:

- خطأ موظف صـغير.. بـدلا مـن أن يقـدم المعلومات كاملة قدمها ناقصة.. لقد أرسلتني القيادة العليا لأعتذر لك عن خطأ الموظف..

- عبد الناصر الذي أرسلك؟!

- مقامك رفيع عندنا..

قالت ساخرة:

- مقامي رفيع عندكم!

- وستعودين إلى سراي المنيرة بعربة الرئاسة.. لا يركبها إلا كبار الشخصيات في حراسة خاصة تكريما لزيارتك لنا..

أرادت أن تقول كما لو أن الأمر حقيقـة: هـل تعرف قيادتكم العليا بأن وحشا قد هاجمني فـي الليـل؟! ولكنها وجدت نفسها عاجزة عن الكلام فصمتت..

قال يرجوها:

- وكل ما تريده القيادة أن يبقى موضوع فنجـان القهوة هذا...

قالت بسرعة:

- تريدونه أن يظل سرا!

وأوشكت أن تقول: تذبحونني.. ولا تريـدون أن أقول آه.. ولكنها ابتسمت...

قال الضابط:

- أنا قرأت ملف الهـانم.. فعرفـت أن مهمتـي ستكون سهلة.. وما توقعته قد حدث.. فشكرا..

قالت منزعجة:

- ملف الهانم؟!

تنبه الضابط إلى أنه قد أخطـأ.. ذكـر شـيئا لا ينبغي أن يذكر.. فاستدرك قائلا:

- كل شخصية مهمة عندنا لها ملـف خـاص.. حتى نعود إليه ونستفيد منها عند اللزوم..

وقدم لها علبة مذهبة.. فتحت العلبـة.. وجـدت ساعتها وأساورها وما أخذوه من مال وهي تدخل الفيللا

قال الضابط باسما:

- كل شيء بالتمام والكمال.. وسنرسل اك هدية خاصة إلى السراي.. تقديرا لتشريفك لنا..

وقبل أن تقول شيئا قال:

- أرجو أن تقبلها الهانم.. ونحن لا نفعـل هـذا دائما ولكن القيادة العليا تريد أن تعبـر عـن سـرورها بالحفلة التي أقامتها الهانم في حديقـة السـراي احتفـالا بالنصر ونشرت أخبارها الصحف العالمية..

واحتوت الرجل بنظرة اندهاش وهو يقول:

- ابنتك جلنار عادت من أسـوان.. وأرجـو إلا تعرف أنك كنت في زيارتنا... بالمناسبة أخبـار رامـي على ما يرام

فقالت في لهفة:

- أخبار رامي في لندن على ما يرام...

- وينبغي إلا يعرف بأمر زيارتك لنـا حتـى لا يتهور ونحن على استعداد أن نسهل سفر حبة البركة إليه إذا أراد..

ووقفت زينب هانم، قال الضابط:

- القيادة تعرف طموحك في حي المنيرة وهي لا تعارض نشاطك ما دمنا أصدقاء .. وتنسى الهانم فنجان القهوة..

قالت بألم:

- المرة !!

- هذا مطلبها الأخير..

وقال لها وهو يفتح لها باب العربة السوداء:

- وصداقتنا غالية يا زينب هانم..

والسيارة الفارهة تشـق الطريـق إلـى سـراي المنيرة.. قفز الوحش الذي هاجمها في الليل إلى رأسـها كما لو أنه حقيقة.. فوجدت الدموع تسيل علـى خـديها وتصرخ:

- أنا بنت أفندينا يا كلاب.. وسأعرف كيف أنتقم منكم..

الفصل السابع عشر

{١}

وبمجرد أن دخلت زينب من بوابة السراي طلبت من سيد أحمد أن يصحبها إلى نهاية الحديقة حيث الغابة.. أشعرتها الليلة التي أمضتها في الحجرة المظلمة أن لا شيء في الدنيا يساوي لحظة تسلب فيها حرية إنسان.. طاف في رأسها وهي تعبر الحديقة لتذهب إلى الكهف الذي يحبس مصطفى الكاشف نفسه فيه.. أنه قد شرب نخب هزيمة الثورة.. والثورة التي فعلت ما فعلته بإنسانيتها في الفيللا الرمادية.. لا بد أن تكون ثورة مهزومة حتى لو انتصرت في بورسعيد.. رأى الكاشف ما لم تره .. لا بد من أن تكافئه .. تصور سيد أحمد أن زينب هانم تصحبه ليرى الكاشف مسجونا لأنه أراد أن يتخلص منه بالسم فقال:

- أنا فرحان يا ست هانم لأنك أمرتـي بسـجن الكاشف..

كرهت سيد أحمد – في هذه اللحظة- برغم أنهـا تحبه فقالت في عصبية:

-أنا لم أسجنه.. الكاشف هو الذي سجن نفسه!

صدمه كلامها فتجمد في وقفتـه.. ضـايقتها لا إنسانيته التي وضحت على وجهه.. يريد أن يشمت فيـه وهو يراه مسجونا.. فقالت لا تريد أن ترى وجهه:

- عد للسراي.. وانتظرني هناك..

ودخلت زينب هانم على مصطفى الكاشف الـذي كان يحبس نفسه في كهفه الذي بناه من جـذوع الشـجر وأغصانها.. وبمجرد أن أبصرها ألقـى بنفسـه علـى قدميها.. صاحت فيه:

- قف..

قال بكل ذلة:

- أنا مخطئ..

- قف واخرج

لم يستوعب ما قالته.. فقال:

- اكتشفت وأنا في سجني أنني قد ارتكبت ذنبا لا يغتفر.. لقد أخطأت في حق أميرتي التي ولتني أمر الناس.. ففكرت في الموت.. ولكني لم أستطع أن أنتحر لأني لا أريد أن أرتكب معصية أخرى.. فلم تأذن لي مولاتي..

- ليست معصية التي ارتكبتها..

- اقطعي رقبتي..

- لا تخف لن تقطع رقبتك..

- لا أستحق العفو.

- أريد أن تخرج من هنا وتنسى هذه الحفلة

قال بطاعة عمياء:

- أمر مولاتي.. شطبتها من ذاكرتي!!

قالت له في شيء من الود:

- اجلس لأحدثك..

لم يجلس فهو لا يصدق أن بعد ما فعله تحدثه بود وتطلب منه أن يجلس أمامها.. فصرخت فيه:

- اجلس يا كاشف..

- جلست..

- اسمعني..

- سمعت..

- المنيرة..

رددت دون فهم:

- المنيرة

- المنيرة مملكتي

وضح على وجهه عدم الفهم فقالت تشرح له:

- المنيرة .. الكارت الذي سـألعب بـه الآن.. والمنيرة تختلف عن العزبة..

- اسمحي لي .. ما دامت سيدتي سـمحت لـي بالجلوس.. أن أقول لك إنها لا تختلف .. لقد تجولت في حواريها.. وجلست في مقاهيها.. وتحدثت مع ناسـها.. فوجدت الناس هم الناس..

قالت في عصبية:

- تختلف يا كاشف

- هل تسمعني مولاتي؟

- أسمعك..

- جدي الأكبر..

نفد صبرها فقالت:

- مللت هذه الأسطوانة المشروخة!

ثم قالت في سخرية:

- كان جدك الأكبـر يضـع الغشاشـين علـى الصواني والنار مشتعلة..

قال بإصرار على أن تسمعه:

- لذلك ملكوا مصر..

- نحن في ثورة يا كاشف..

- المصري هو المصري!!

وكما لو أنه لم يسمع عبارتها وقال:

- الخوف من النار في داخلهم .. لم يتخلصوا منه.. يتوارثونه.. وليس أمامنا الآن إلا أن نلوح بالنار حتى يتحرك الخوف في داخلهم.. والدليل يا مولاتي.. الثورة قد بدأت بالرحمة.. وانتهت بتعليق المشانق..

قالت كما لو أنها قد عثرت على البداية:

- من هنا نبدأ..

- نوري سكتي ..

- أريد أن .. أهزم عبد الناصر

- نهزمه..

- بالحب..

قال مستغربا:

- الخوف الآن أصبح اسمه الحب؟!

سأجعلك تفهم أيها الشاب العجـوز.. ينشـرون الخوف باسم العدل وأنا أريـد أن أنشـر روح العـدل الحقيقية. . باسم الحب..

- أنا لا أصلح للحب.. أنا الكرباج..

قالت في تحد:

- وأنا أعلنت الحب.. ومن أجل هذا أعزلك

- قال الشاب العجوز متظلما: يا مولاتي باسـم الحب.. كيف في ظل الحب يظلم الشاب العجوز؟!

قالت وقد شعرت بالعطف عليه:

- مظلمتك مقبولة..

يحيا العدل..

-سأعطيك فرصة لتجرب نفسك..

قال وهو يخلع الطربوش الذي يحرص علـى أن يضعه على رأسه وهو يحدثها:

- اسمحي لي يا مولاتي أن أسأل سؤالا..

-اسأل يا عجوز..

- هل هو الحب الذي طرق قلب سيدتي؟

أوشكت أن تقول: كيف عرفت؟ ولكنها قالت:

- إنه الجرح يا كاشف.. هناك لحظة في حيـاة الإنسان.. تحدث فيها الاستنارة.. ويكتشف فيها أن شـيئا في الدنيا لا يساوي عذاب الإنسان لحظة واحدة.. ا قد خلق الدنيا جميلة.. فلماذا نقبحها بالظلم؟!

وقالت كما لو كانت تحلم:

- أريد أن يعم الحب يا كاشف.. وبـدلا مـن أن يكون الجحيم هو الآخر يصبح الحب هو الآخر..

وهزت يده قائلة:

- أريد المنيرة بحرا من الحب.. لألقنهم درسا في الإنسانية..

ووضع الطربوش على رأسه، فقد تنبه إلى أنه قد خلع الطربوش وهو لا يجوز أن يخلعه أمـام الهـانم.. فقال:

- خبرة الشاب العجوز تقول إنه المستحيل!!

شعرت بقدرتها وهي تقول:

- هذا المستحيل سأجعله خبز المنيرة اليومي

قال وهو يقف:

- المنيرة يا مولاتي هي الوطن.. وهذا الوطن قد شرب الخوف حتى الثمالة وتسمم دمه.. ولا يسكره سوى المزيد من الخوف!!

وقالت بكل ثقة:

- ومعجزتي يا عجوز أن أسقي أهـل المنيـرة الحب حتى ينتشوا.. وأنا واثقة من أن الحب الساكن فـي أعماقهم منذ فجر أجدادهم وهـم يصـنعون حضـارتهم سينفجر ويصبح طوفانا ويغرق الجبروت..

وأوشك أن يقول : فلسفة يا سيدتي فوق إدراكـي ولكنه قال:

- وأنتحر أنا؟!

ضحكت زينب هانم ضحكة من القلب أشـعرتها بالانتصار:

- لا تخف يا عجوز.. ستحول الشـيطان فـي داخلك إلى ملاك..

- وتقوم .. قيامتي!!

وقالت وهي تحلم بيوم قريب تنتصر فيه:

- ويشرب الناس الحب بدلا من الخوف

ورفعت صوتها عاليا وهي تقول:

- هذه هي ثورتي يا كاشف.. وقفازي الذي ألقيه في وجهه.. ليعرف من أنا؟

رفع الكاشف الطربوش ووضعه على رأسه، كأنه يسأل بحركته العصبية: هل سـيتحول الشـيطان إلـى ملاك؟!

{٢}

وراحت جلنار تقبل أمها بحرارة لم تألفها منهـا منذ فترة طويلة .. خشيت الأم أن تكون ابنتها قد عرفت من الخدم أن بعض الضابط قد اقتحموا عليهـا حجـرة نومها.. تأكدت من أنها لم تعرف وهي تقول لها إنها قـد اتصلت من أسوان فقيل لها إنها في العزبة فاتصلت بـك هناك فلم أجدك.. فشعرت الأم بالراحة.. ستدفن ما حدث لها في الفيللا الرمادية في أعماق أعماقها.. لـن تخبـر جلنار ورامي بما جرى لها.. فأخذت ابنتها في حضـنها كما لو كانت ما زالت صغيرة.. لتحتسي الشاي معها في الحديقة وقالت الأم وهي تجلس مع ابنتها تحت تكعيبـة العنب:

- نطلب رامي في لندن. اشتقت لسماع صوته..

وقبل أن تقول جلنار: وأنا أيضا.. أبصرت زينب هانم.. السيد الشرقاوي يقف أمامهما فقالت:

-ابن حلال.. كنت سأتصل بك..

تصور أنها قد عرفت أن رامـي يهـاجم عبـد الناصر فأوشك أن يقول : خبر سيئ.. ولكنه قال لجلنار:

- بلادك ما زالت تحقد على مصر؟!

قالت جلنار في شيء من الغضب:

- البلاد التي تهاجم مصر ليست بلـدي.. لنـدن مجرد مدينة أتعلم فيها..

قال وهو يتجنب النظر إلى زينب هانم:

- برافو .. وطنية مثل أمك..

شعرت الأم بأنه يخفي عنها شيئا يتعلـق بابنهـا فقالت:

- حدث شيء لرامي

قال بصوت خفيض:

- يتحدث من إذاعة..

قالت بسرعة:

- أصبح مذيعا..

صمت للحظة ثم قال:

- يهاجم الثورة..

- تهزل؟!

قال في نبرة حزينة:

- تقرير من سفارتنا في لندن يقول إنه يهاجم

قالت بسرعة:

- مصر

وكأن مصر أصبحت عبد الناصر فقال:

- عبد الناصر!!

قالت زينب هانم وقد شعرت بأن قلبها قد سـقط في قدميها:

- لا يمكن أن يكون ابني .. رامـي وطنـي .. يحب عبد الناصر..

وكأنها تحدث نفسها . قالت: لا بد أنه قد عـرف بخير اقتحام الشرطة لحجرة نومي.

قال السيد الشرقاوي بسرعة:

- استغله الأعداء

قالت جلنار لأمها وهي في حالة ذهول:

- اقتحمت الشرطة حجرة نومك.. وأنا آخر من يعلم.. لماذا لم تخبريني؟!

خشي الشرقاوي أن يشعل كلام الابنة غضب الأم فترفضه عندما يطلب الـزواج منهـا باعتبـاره أحـد المسئولين عن الثورة التي عاملتها معاملة لا إنسانية فقال ليجعلها تهدأ:

- لقد أخطئوا..

قالت جلنار في انفعـال دون أن تجعلـه يكمـل كلامه:

- يقتحمون على أمي حجرة نومها وتقول: لقـد أخطئوا.. لو حدث هذا في إنجلترا لقامت الدنيا ولم تقعد وهاج النواب في البرلمان وكتبت الصحف وخطبوا فـي هايدبارك.. وسقطت الحكومة..

قال مازحا ليخفف من انفعالها:

- سنسقط الحكومة من أجل زينب هانم.. أمـك برنسيسة..

قالت جلنار غاضبة:

- لا تهزل يا عمو..

قال الشرقاوي بسرعة ليرضي زينب هانم:

- سيحاكمون أمام مجلس عسكري

قالت جلنار في دهشة: ماذا كانوا يريدون منها؟!

قال السيد الشرقاوي:

- بعض المعلومات الهامة:

ونظر إلى زينب هانم التي كانت تبتسم ابتسـامة شاحبة وقال:

- أمك شخصية هامة..

وأبصر في وجهها شيئا من الراحة بعـد أن قـال عبارته؛ فقال ليجعلها لا تتأثر بما قالته ابنتها:

-زيارتك لهم كانت عملا قوميا!!

قفز إلى رأسها عندما أظلمت الفـيللا الرماديـة وهاجمها الوحش فهزت رأسها كما لو كانت تقول بهـزة رأسها: فعلا.. كانت عملا قوميا..

شجعته هزة رأسها لأن يقول:

- ثورتنا إنسانية .. تحترم الإنسان..

تملكتها السخرية فقالت:

- استقبلوني فعلا باحترام في فيللا فاخرة وقدموا لي القهوة!!

قال كما لو كانت تتكلم جدا:

- لابد أن يفعلوا هذا فالأوامر كانت مشددة.. ألا يسببوا أي إزعاج لك.. تأكدت من..

قاطعته قائلة:

- ولا تنسى أنني صديقة الثورة..

تملكه الحماس وأشار إلى نفسه وهو يقول:

- الثورة قد ولدت في عزبتك.. وشـوكت باشـا كان عين الثوار على فاروق.. قالت جلنار لأمها:

- وبلغني أنك رقصتِ مع أونكل حازم احتفـالا بالنصر

قال السيد الشرقاوي مندهشا كما لو كان يسـمع هذا الخبر لأول مرة:

- رقصتِ مع حازم؟!

نظرت زينب هانم إليه كمـا لـو كانـت تقـول بنظرتها:

تغار علي يا حبيبي..

قال غاضبا:

- لا يصح أن ترقص من ستصبح زوجتي..

قالت بسرعة وقد شعرت بالخجل.. يـذكر أمـام ابنتها بأنه سيتزوجها:

- رقصت من أجل ناصر!

- هذا ما جعلني لا أغضب..

- اندهشت الأم لأن جلنار لم تعلق .. قالت زينب هانم كما لو أن الشرقاوي قد طلب منها الزواج:

- السيد الشرقاوي سيتزوجني يا جلنار؟

فهمت جلنار من كلام أمها أنها تسـألها الـرأي. فقالت:

- هذه حريتك يا ماما.. كل ما يهمني أن أعرف كيف تنتهك حرية إنسان في ظل الثورة؟

قال الشرقاوي وقد غمرته الفرحة لأن زينب هانم قالت لابنتها بأنه سيتزوجها:

- أنا لا أدافع عن التجاوزات..

قالت جلنار غاضبة:

- هذه جريمة .. وليست تجاوزات

قال وهو يشارك جلنار غضبها:

- سأطلب من الرئيس إجراء تحقيق على أعلى مستوى في هذه الجريمة..

قالت جلنار كأنها تخطب في هايدبارك:

- الثورة .. حرية.. وانتصار على الطغيان..

قال الشرقاوي ليجعلها تصمت:

- اعذرينا يا ابنتي.. كنا في أول الأمـر نحلـم بثورة بلا عنف.. واكتشفنا أن الرحمة سـتجعل الثـورة تضيع من أيدينا.. ويفقد الفقراء حقوقهم..

بدا لجلنار كما لو أنه نازي وهو يقول:

- لا يفل الحديد إلا الحديد

قالت جلنار:

- أنت نازي يا عمو!.

- لا بد من العين الحمرة يا جيجي..

قالت زينب هانم للشرقاوي فجأة.. وقد تـذكرت بأنها لم تسأله هل كان يعرف بأمر القبض عليها:

-هل كنت تعرف؟!

- فهم ما تقصده بسؤالها فقال:

- لقد اخفوا عني الأمر.. وعندما علمت غضبت وكلمت الرئيس وأوشك أن يقول : وقد قرأت تقريرا قبل أن أجيء إليك مباشرة ولكنه صمت.

قالت زينب هانم:

- دعك الآن مني .. أريد أن تحدثني عن رامي..

- مصيبة

- ابني مصيبة؟!

قالت جلنار: رامي بطل

قالت الأم:

- سمعتِ ما يذيعه؟

قالت جلنار بافتخار:

- أعرف أخي جيدا.. يدافع عن حرية المصريين

قال الشرقاوي وهو غير راضٍ عما قالت:

- يهاجم الثورة التي تدافع عن حرية المصريين

قالت جلنار غاضبة:

- هذا غير صحيح.. الذي حدث مع أمي يقـول إنكم تخدعون الناس.. وهبت واقفة وهي تقول:

- سأتصل برامي وأقول له برافو يا بطل.

قال السيد الشرقاوي لزينب هانم:

- امنعي هذه المجنونة.. التليفونات مراقبة..

قالت زينب هانم، وكأنها انتهزت الفرصة:

- خائف على ابنتي أم على أمها؟

وأمسك يدها في تجاسر وقال:

- خائف على حبي من نسمة الهـواء حتـى لا تجرحه!

- الثوري صار شاعرا!!

- حبك علمني الشعر!!

وبرقت في رأسها اللحظة التي تفجر فيها حبهـا في الحجرة المظلمة فقالت:

- فكرت فيك وأنا وحيدة..

- وأنا أفكر في حبيبتي فـي كـل لحظـة مـن عمري..

- والثورة؟!

- تغارين على حبي من الثورة.. الثـورة هـي حبي.. تذكرين عندما كنت أدربك على ركوب الخيل في العزبة وأنا مطارد .. كنت أنظر إليك وأنت فوق الفرس

وأحلم بالثورة.. حبي لك ولد على لهيب الثورة الذي كان يشتعل في داخلي..

قالت وهي تتوهج بالحب:

- أتعرف أنني في تلـك الليلـة التـي قضـيتها وحيدة.. كان الشيء الوحيد الذي أضاء ظلام وحـدتي.. هو الحب..

قال بفرحة طفل:

- أنا الحب؟!

قالت بسعادة الحب:

- كل الحب..

قبل يدها وهو يقول:

- أشعر بأن ظلما قد وقع على سيدتي.. ومادامت الثورة التي أشعلتها في داخلي هي التي ظلمتك.. فلا بـد

من أن يتقدم فارس الثورة ويرفع الظلم عن التي رفعـت الظلم عنه في الماضي لتقوم الثورة..

قالت ضاحكة:

- واحدة بواحدة:

- والحب يكسب يا سيدة الحب

- أريد أن أقول لك الآن نتزوج .. ولكن..

قالت بسرعة:

- أم العيال..

تقرئين نفسي؟

- لا تطلقها.. لا أحب أن أبني سـعادتي علـى خراب بيت أم أولادنا!!

قال وهو يطير من الفرح:

- أولادي.. أولادك.. ما رأيك نذهب الآن إلى المأذون؟

قالت جلنار: وكما لو أنها قد جاءت على سيرة الزواج

- المأذون يأتي إلى هنا..

وانطلقت زغرودة نرجس..

قالت زينب هانم:

- لا تزغردي..

قال السيد الشرقاوي:

- دعيها تزغرد..

قالت بصوت خفيض ، كما لو أنها لا تريد أن يستأذن جمال عبد الناصر حتى لا يمنعه من الزواج منها:

- استأذنت الرجل الكبير؟!

قال كأنها لسعته:

- لا .. لا أستأذن في أمر يخص قلبي!

قالت بفرحتها:

-فارس يا حبيبي...

وانطلقت الزغاريد في أرجاء سراي المنيرة..

ولم تنقطع الزغاريد لحظة واحدة في هذا النهـار الذي تنتظر فيه المساء ليحضر السيد الشـرقاوي الـذي تفجر حبها له في ظلام الحجرة.. ومعه المـأذون ليعقـد قرانها.. ويصبح زوجها.. وهي تحتضن صـوت ابنهـا المنبعث من الراديو وهو يهاجم عبد الناصر الذي سقاها القهوة المرة في الفيللا الرمادية..

وبدا لها في لحظة كما لو أن الزغاريـد لابنهـا الذي ينتقم لأمه.. لتسيل دمعة على خدها..

لم تكن دمعة فرح..

لم تكن دمعة حزن..

كانت دمعة حب..

{٣}

وفي المساء.. وبعيدا عن العيون.. اختارت زينب هانم ركنا تظلله فروع الأشجار وتغطيه الزهـور فـي حديقة السراي ليشهد ليلة العرس!!

وعلى ضوء الشموع التـي تتـوهج.. وصـوت موسيقي حالمة.. وفي حضـن ينبـوع مـاء .. كـان الشرقاوي وزينب يرقصان.. ومصطفى الكاشف وسـيد أحمد ونرجس وكروانة وزبيدة ومليحة هم شـهود هـذه الليلة التي لم تشهدها سراي المنيرة- من قبل – وبـرغم أن جلنار كانت تطلب منهم أن يجلسوا إلا أنهم قد ظلوا واقفين لا يتجاسرون على الجلوس في حضـرة زينـب هانم!!

لقد حرصت زينب هانم على إلا يحضر أحد من خارج السراي حفلة عرسها.. فتكتمت الخبر فهي تخشى أن يتسرب إلى الصحافة.. فيعرف عبد الناصـر بـأمر

زواجها من السيد الشرقاوي.. فيـأمره بعـدم الـزواج وخاصة أن ابنها رامي يهاجمه من إذاعـة سـرية فـي الخارج!

والشرقاوي الذي يؤمن بالمثل الشعبي الذي يقول "داري على شمعتك تقيد" تكتم الخبر حتى عن نفسه فهو لا يصدق أن زينب هانم سيدته التي كان يعمل أجيرا في عزبتها تتزوجه!! فمنذ ساقته أقداره وهو مطارد برجـال فاروق- إلى عزبة شوكت باشا.. واختارته زينب هـانم ليعلمها ركوب الخيل ليقع في حبها وتحس بحبه وتريـد منه أن يعترف.. ولكنه لا يستطيع الاعتراف فقـد كـان مطاردا بحكم الإعدام ويخاف أن يبوح بحبه لها فيعـرف الباشا ولا شيء يخفى في العزبة.. ويغضـب ويسـلمه لرجال فاروق جزاء خيانته للرجل الذي أخفاه عن عيون البوليس السياسي ويدفع رأسه ثمنا لحبه.. وهو يريـد أن يعيش حتى تقوم الثورة فقد كان متأكدا من قيامها وأنـه سيجني ثمرة نضاله ويصبح من الحكام.. وعندئذ تسـعى إليه زينب هانم وتتزوجه. وحدث ما توقعـه.. وزينـب

هانم- الآن- بين ذراعيه.. فضغط عليها بكل قوته يريد أن يؤكد لنفسه أن الحلم صار حقيقة بين يديه!!

وشعرت زينب هانم والشرقاوي يحضـتنها بـأن الدنيا قد صارت في قبضتها كانت خائفة – بعـد قيـام الثورة ورحيل فاروق وانتحار زوجها- من أن تغـرب الدنيا عنها.. ولكنها تشعر – الآن – بأن الدنيا قد عادت إليها وأقرب الرجال إلى عبد الناصر بين يديها.. وابنهـا يثأر لها على مسمع من العالم..

فراحت ترقص بفرحتها كما لو كانت عصـفورة تحلق..

شعر الشرقاوي بالتعب – فجأة – تذكر أنـه لـم يأكل شيئا منذ الصباح فقد خرج غاضـبا مـن بيـت أم أولاده.. بعد أن تشاجرت معه.. بعد أن أخبرهـا بأنـه سيتزوج الليلة.. فهددته بأنها ستفضحه عند زينب هـانم وتخبرها بأنه صعلوك يمثل دور الرجـل الجنتلمـان!..

فتوقف عن الرقص.. خاف أن تسأله فلا يستطيع أن يخفي شيئا عنها فيعكر مزاج ليلة عمره.. فقال يهرب من لحظته بخفة ظله وهو ينظر إلى خدم السراي الذين يقفون حولهما كما لو كانوا يحرسون عرسهما:

- لو عرف عبد الناصر أن الحرافيش هم كل شهود عرسنا لمنحني لقب الحرفوش الأكبر!

وشعر بعد أن قال هذه أنه يقول كلاما لا ينبغي أن يقوله والأميرة أمامه فقال لها:

- ولكن بزواجي منك صرت أميرا وأخاف أن يرفتني عبد الناصر عندما يعرف أنني قد أعدت الملكية من وراء ظهره وتزوجت أميرة..

وبعد أن قال عبارته الأخيرة أراد أن ينسى شجاره مع أم أولاده فهو يتزوج أميرة.. فراح يرقص رقصة منفردة يدفن فيها إحساسه بالحزن الذي هاجمه فجأة فقالت جلنار وهو يستعرض مهارته في الرقص:

- أنت راقص ماهر يا عمو؟!

ضحك وهو يقول:

- لزوم الكفاح والهرب من البـوليس السياسـي يا جيجي.. لا يتصورون أن مناضلا .. يطلبون رأسـه يرقص بمهارة.. لذا أجدت الرقص!!

الفصل الثامن عشر

قال الشرقاوي لزينب في غضب:

- أنتظرك هنا في الحديقة.. لا سمع من خـدمك أن نرجس غاضبة من سيد أحمـد لأنـه وشـى بأبيهـا الكاشف لك

قالت زينب لتخفف من غضبه:

- وماذا قالوا لك أيضا يا حبيبي؟

قال السيد بنبرته الغاضبة:

وكروانة تحب سيد أحمد والكاشف يحب وحيدة!!

قالت ضاحكة لتجعله يضحك:

- قاضي الغرام..

- وسعادتك مع الغازية وحيدة ورعاع المنيرة..

وأوشكت أن تقول : أجد نفسي مع الرعـاع يـا نور عيني. ولكنها قالت:

- بدأنا الغيرة..

قال منفعلا:

- ماذا جرى لك؟ أتظنين أنك أصبحت زعيمة؟!

استفزتها كلمة زعيمة فقالت في تحد:

- أنا أعرف قدري..

تنبه إلى أنه يحدثها في انفعال فقال:

- ياحبيبتي .. هناك تقارير عـن نشـاطك فـي المنيرة وهذا يسبب إزعاجا للسلطة..

ضحكت وكأنها قالـت بضـحكتها: لا تخـف.. أعطوني الضوء الأخضر- عنـدما كنـت فـي الفـيللا الرمادية- لأحقق طموحي ..

قال السيد الشرقاوي بصوت هادئ:

-جواسيسنا في كل مكان.. ولا أستبعد أن يكونوا قد جندوا وحيدة التي تثقين فيها لتسجل لهم أحاديثك..

- أنا لا أتحدث إلا في خير الناس..

- خير الناس يمكن أن يفسر على أنه هجوم على الثورة..

أوشك أن يقول لها: أنا لي أعداء.. ويعتبرونـك نقطة ضعفي التي يهاجمونني منها.. ولكنه رشـف مـن كأسه وهو يقول:

- تجعلينني أشرب الخمر في النهار!

تجاهلت ما قال وقالت:

- أليست الثورة تعمل لخير الناس وحبيبتك تعمل لخير المنيرة؟ لا بد أن تفرح ثورتك..

قال كما لو أنه يتوسل إليها لتفهمه:

- الثورة يا حبيبتي حساسة هذه الأيام.. الأعـداء يريدون أن يضربوها من الداخل بعـد أن فشـلوا فـي ضربها من الخارج.. ولذا فإن كل شـيء فـي مصـر موضوع تحت رقابة صارمة..

وقال وهو يشرب جرعة كبيرة من كأسه:

- هناك توجس من كل شيء!!.. وخوف من كل الناس!!

وأوشك أن يقول لها: الأمريكان يريـدون ثمـن مساعدتنا على إنهاء العدوان الثلاثي.. ولكنـه صـمت ليسمعها تقول في شيء من الاستخفاف:

- أنا أساعدكم يا سي السيد..

قال الشرقاوي يرجوها أن تقتنع:

- ست الكل..

- أفندم..

- تجمع الناس.. ممنوع..

قالت ساخرة:

- حتى على الحب

قال في ضيق:

- حتى على الحب!!

وبعد أن قال عبارته تنبه إلى أنه قد أخطا فقال:

- نحن معذورون.. الأمريكان قد سحبوا تمويـل السد العالي.. والسد العالي هو ضربتنا القومية الكبرى.. ولا يغفرون لنا علاقتنا بالروس وتحدينا لهم وبناء السـد دون مساعدتهم.. ولا نستبعد أن يوجهوا لنا ضربة..

ووصلهما وهما يجلسان تحـت تكعيبـة العنـب صوت عبد الحليم حافظ وهو يغني: بنينا السد فقالت:

- ضربة معلم..

- أنا لا أهزل يا زينب.. الموقف خطير.. ننـام بعيون مفتوحة.. ننظر حولنا.. نتوقع الضربة.. لا نعرف من أين تأتي من الشرق أم من الغرب؟!

قالت في شيء من الشماتة:

- لأنكم أكلتم على الشعب حقـه فـي الحريـة، طردتم فاروق لأنه مستبد.. ووعدتموه بالحريـة.. ولـم تحققوا وعدكم .. فشعرتم بالخوف.. تخافون مـن نكتـة

تقال في مقهى.. ومن اجتماع للناس في شارع حتى لـو كان في حبكم!!

- الرئيس يستلهم من الناس ما يريـدون ويعبـر عنهم في قراراته..

- ولكن الناس لا يشعرون بأنهم يشاركون..

- أنت تعرفين أنني مـن المـؤمنين بالحريـة.. ودفعت عمري من أجلها..

- ولكنك مؤمن بالرئيس أكثر..

شعر بالخوف، يخشى أن تكون المخابرات قـد وضعت السراي تحت سيطرتها بعد زواجه فقال كما لو كانوا يسجلون حديثه:

- الرئيس رمز الحرية..

ووجد أنه من الأفضل أن يغير الحديث فقال:

- زينب .. أنا خائف عليكِ..

قالت في ثقة:

- وأنا لا أخاف..

- هذا يضرني..

وبعد أن قال عبارته خاف أن تأخذ عنه فكرة بأنه جبان وهو يحرص على أن يبدو أمامها كفارس.. قـال ليمحو أثر عبارته بابتسامته:

- وأنا أعتقلك في حبي..

أرادت زينب أن تقول: الحب معتقل فـي هـذا الزمن الرديء ولكنها سمعت الشرقاوي يقـول بصـوت عال:

- أجمل خبر.. نسيت أن أخبرك به..

- رامي..

- ترك لندن.. عزيز نجح.. في إقناعه للسفر إلى لبنان

فقالت الأم مهللة:

- ويعود إلى مصر..يا حبيبي يا رامي..

قال الشرقاوي في ثقة:

- هذه خطوة تالية..

تنبهت إلى أنه إذا عاد إلى مصر فسيقبضون عليه فقالت:

- من الأفضل أن يبقى في لبنان وأسافر إليه..

- حبة البركة التي تسافر إليه..

كما لو أنه قد صدمها.. فلاذت بصمتها حتى تستوعب الصدمة..

قال السيد باسما:

- رامي يحبها.. وتستطيع أن تؤثر عليه

وضحك وهو يقول:

- وينتصر الحب الذي تنادين به- شعر الشرقاوي بعد أن قالت عبارتها أنها غير مقتنعة فقال وهو يقبل يدها:

- أنا باعشقك يا عمري.. وأخاف على ابنك رامي.. لأنه ابن المرأة التي جعلتني أعرف أن هناك عشقا في هذه الدنيا.. ومن مصلحتنا أن يقتنع حتى يكف عن الهجوم.. وحبة البركة هي الوحيدة التي ستقنعه.. حتى يعود لمصر.. ويعيش معنا .. فأنا أحبه.. رامي ابني يا زوزو.. وأريد أن أرعاه..

الفصل التاسع عشر

-تطلقني؟!

شعر السيد الشرقاوي بعد أن نطقت زينب هـانم بكلمة "تطلقني بأنه سيبكي .. فخفض رأسه حتى لا ترى دموعه..

تصورت زينب هانم أنه يمزح.. فـلا يمكـن أن يطلقها الرجل الذي قد قال لها إنها قد سقته الحب عشقا.. بدون سبب.. فضحكت ضحكة هيستيرية..

وكما لو أن ضحكتها جعلت دموعه تسـيل مـن عينيه.. فقالت غير مصدقة أن الشرقاوي يبكي:

- تبكي يا سيد؟!

قال في نبرة وشت بهزيمته:

- ماذا أفعل؟!

فهمت من نبرته أن عبد الناصر قد أمـره بـأن يطلقها فقالت:

- عبد الناصر؟!

خاف من أجهزة التنصت التي تكون قد وضـعت في هذا المكان الذي تعود أن يجلس معهـا فيـه فقـال بصوت عال:

-زعيمنا أكبر من هذه الأمور التافهة..

ووضع يده على فمها وهي تقول بنبرة ساخرة:

ولا يتدخل في شئون الحب!!

فهمت من حركته أنه خائف من أن يكون هنـاك أجهزة تنصت وضعتها مخـابرات عبـد الناصـر فـي الحديقة.. فاستجابت له وهو يمسك يدها.. ومشت معـه

إلى جزء مهمل من الحديقة.. وافترش الأرض المغطـاة بالحشائش وأوراق الشجر الجافة وهو يقول:

تذكرين هذه الجلسة بقريتي عندما كنت أجلس مع رفاقي على الحشائش وأوراق الشـجر الجافـة ونسـمع المواويل..

انشغلت عما قاله بالتحديق في عينيه كما لو أنهـا تبحث عن الفارس العاشق لها وهي تقول:

- أين الفارس؟!

قال بسرعة:

- مات!!

وقفز من جلسته.. يريد أن يذهب بعد أن أعلـن موت الفارس.. فقالت وهي تمد يدها تريد أن تنفض عن ملابسه ما علق بها من حشائش جافة:

- أين أنت ذاهب؟!

ارتبك . قالت في إصرار:

- لن تذهب حتى أعرف ما غيرك!

قال ساخرا من نفسه:

- رأس الذئب الطائرة..

فطنت إلى أنه يقصد صديقه حازم عبد الصـادق فهي تعرف أن عبد الناصر قد غضب عليه بعد أن تزوج من الأميرة فقالت:

- رأس حازم؟!

هز رأسه في أسى وهو يقول:

- أنت تعرفين أن حازم كان له منزلـة خاصـة عند الرئيس

- وانتهت بعد زواجه من الأميرة..

- وخروجها من مصر بأموالها ومجوهراتها..

وأوشك أن يقول لها : ولم يحتمل قلبه المـريض غضبه ولكنه انفعل عندما سمعها تقول ساخرة: ولكنـي لست أميرة.. فقالت:

- ابنك يا هانم يهاجم عبد الناصر فـي إذاعـة الأعداء..

شعر بعد أن قال هذا بانفعال بأنه قد أساء إليها.. فتضايق من نفسه..

اكتشف اللحظة أنه يطلقهـا لأن ابنهـا يهـاجم عبد الناصر.. فقال:

- سامحيني يا زوزو .. أنا ملفي أسود..

وبعد أن قال " ملفي أسود" شعر بأنه قد تـورط.. فأراد أن يزيل أثر عبارته عليها فقال ضاحكا:

- تصوري .. كُتّاب التقارير كتبوا عنـي أننـي كنت أتصارع مع حازم على قلب الأميرة !

شعرت بأنه قد جرح حبها حتى لو كان يطلقهـا الآن فقال:

- تخونني يا سيد؟!

قال يدافع عن نفسه ويبرر لها علاقته بالأميرة:

- أنت تعرفين أن الملك كان يريد رأسي.. ولقـد قضيت أجمل أيام العمـر مطـاردا.. وعنـدما قامـت الثورة .. أردت أن أثأر لأيام شـبابي.. ولكـن مجلـس الثورة أعلنها ثورة بيضاء.. فكتمت حقدي في داخلي..

وكأنها وجدت سببا لتدينه فقالت:

-القلب الذي يحقد لا يعرف الحب..

وكأنه لم يسمع ما قالته واستمر في حديثه:

- وجـاءت فرصـتي عنـدما عرفنـي حـازم بالأميرة.. فأردت أن أنتقم من فاروق في أخته..

قالت له:

- وأخلاق الفارس؟!

قال في أسى

- من عانى معاناتي لا يمكن أن يظل فارسا.. لا بد أن تهاجمه لحظة ضعف يسقط فيها من فوق جواده..

تذكرت أنه قد علمها الفروسية فقالت:

- لقد علمتني أن الفارس لا ينبغي أن يضعف..

قال باسما وهو في قمة حزنه:

- أنا لست أنت!!

نظرت إليه في اندهاش وهو يمشي بجوارهـا.. قال لها دون أن ينظر إليها:

- في اليوم الذي جئت لك لأطلب منك الزواج.. قرأت تقريرا عما حدث لك في تلك الليلة.. وتوقعـت أن أجدك منهارة..ولكني وجدتك أقوى مما كنتِ!!

وأمسكها من يدها في حب وهو يقول:

- أشعرتني بأن ثورتي التي أعطيتها عمري هي المهزومة.. وزينب هانم هي المنتصـرة.. فـأردت أن أتزوج ثورتي المنتصرة التي علمتني الفروسية الحقيقية..

ولم يستطع أن يمنع دمعة تفر من عينيه.. ولـم تجد زينب شيئا تفعله سوى أن تفتح حقيبة يدها وتخـرج منديلها الوردي وتناوله له.. وتقول له كمـا لـو كانـت تحدث نفسها بحزنها:

- وتطلقني ؟!

قال وهو يمسح دمعته بمنديلها المعطر:

- أريد أن أعيش لأستمتع بكفاحي.. لقد حفـرت الصخر بأظفاري.. وواجهت الموت..

وقال ضاحكا:

- كنت وأنا مسجون ومطلوب إعـدامي.. أحلـم بالحكم.. وأكتب على جدران الزنزانة.. السيد الشرقاوي ملك مصر!

وقالت في شماتة:

- وتخاف أن يعزلك ملك مصر؟!

فهم أنها تقصد عبد الناصر فقالت:

- أنا لا أخافه.. بل أخاف الثعابين التـي تلتـف حوله.. ينتهزون الفرصة ويتخلصون منا الواحـد إثـر

الآخر.. لأجد نفسي راقدا في المستشفى مثل حازم بـين الحياة والموت..

وأوشك أن يقول لها: لقد سمعت أن هناك مؤامرة للتخلص من أبو ريشة.. بإطلاق الرصاص عليه.. ولكنه قال:

- أخاف أن يغتالوني برصاصة..

وجدت نفسها تقول برغم عنها:

- جبان!

هز رأسه كما كان يقول بهزة رأسه: نعم.. أنـا جبان..

تضايقت من نفسها.. لا يمكن أن يكون الفـارس الذي راهنت عليه جبانا.. فأرادت أن تقول: فارسي ليس بجبان ولكنها سمعته يقول:

- لقد خدعتك يازوزو.. لسـت بفـارس.. أنـا دونكيشوت.. لا يقوى حتى على منازلة طواحين الهواء!!

وضحك وهو يقول:

-السلطة هي السلطة.. نار يـا حبيبتـي نـار.. تحرق من يقترب منها سواء أكان في قصر ملك أم فـي مجلس ثوار!!

ونظر في عينيها.. أبصر امرأة لا تهزم فقال:

- أنا لا أستحقك .. فأنا رجـل لا يسـتطيع أن يعيش من غير حارس يقف أمام بيته.. ومن غير سـائق يفتح له باب العربة السوداء..

وكما لو أنه يشيع جنازة الفارس الذي أعلن موته وهو يقول:

- بدأت مناضـلا.. وأصـبحت – الآن- عبـدا للسلطة.. ومن أجل هذا جئت لأطلق المرأة التي سـقتني الحب وأطعمتني العشق.

وقال باسما:

- الحب والعبودية لا يلتقيان..

تنبهت إلى أن ابنها رامي قد فقد مـن يحميـه.. سيفترسه رجال ناصر فبكت .. فقال بدهشته:

-أميرتي تبكي الآن .. ولا تبكي عندما ظلمهـا الوطن!!

وكما لو أنه يرجوها أن تكف عن البكـاء وهـو يقول:

- دموعك تذكرني بأنني قد دفنت الفارس في قبر السلطة وأنا أريد أن أنسى..

شعرت بالإشفاق عليه فابتلعت دموعها..

قال لها:

- ابتسمي .. أريد أن يكون وداعـي.. ابتسـامة لأميرتي..

ابتسمت.. قال وهو ينصرف:

- سأحتفظ بمنديلك الوردي لأتـذكر أننـي قـد عرفت امرأة شجاعة في يوم من الأيام..

ونظرت إليه، وكأنها لا تراه وهو يختفـي وراء الأشجار التي تتساقط أوراقها.. وصوته يصل إليها وهو يقول: حبة البركة قادرة على إنقاذ رامي.

الفصل العشرون

فوجئت حبة البركة بزينب هانم أمامها.. فاندفعت نحوها غير مصدقة أنها تراها واقفة أمام بيـتهم الـذي تسكنه مع أبيها وجدتها فقالت بدهشتها:

- زينب هانم في زقاق بركة؟!

وكما لو أن اندهاش حبة البركة لوجودهـا فـي الزقاق نبهها إلى أنها تقف في مكان لا يليـق بمكانتهـا فوضح على وجهها الشعور بالقرف وهي تقول:

- أبحث عن بيتكم..

تصورت حبة البركة أن زينب هانم قادمة لتسأل عن صحة أبيها الذي يعمل طباخا عندها فقـد توعكـت صحته في الأيام الأخيرة فقالت :

- الباشا تحسنت صحته وذهب إلى السراي..

ضحكت زينب هانم عندما سمعتها تقول الباشا عن أبيها الطباخ فقالت في نبرة لم تستطع أن تخفي سخريتها:

- أريدك أنت يا بنت الباشا!!

ارتبكت حبة البركة فلاذت بصمتها.. وكما لو أن صمتها جعلها تستوعب أن الهانم تزورها في حيها الشعبي فراحت ترحب بها بحرارة وتقول:

- لو عرفت أن زينب هانم ستزورني لفرشت الأرض بالرمل.. وكادت أن تسقط زينب هانم على درجات السلم المتآكلة لولا أنها قد حمتها من السقوط بيدها وهي تقول:

- بيت جدنا الحاج بركة.. وأبي يصر على ألا يتركه..

وأضاءت مدخل الشقة بالنور وهي تقول:

- نورت البيت يا هانم..

وتوقعت حبة البركة أن تسمعها تقول شيئا ولكن زينب هانم صمتت تضايقت من صمتها.. تعـرف أنهـا تكرهها وتحارب حبها.. ولابد أنها قادمة لتمنعهـا مـن السفر إلى بيروت حتى لا تلتقي بابنها.. ستدافع عن حقها في أن تكون مع حبيبها في وقت الشدة فنظرت إليها في تحفز.. فوجدت الدموع في عينيها فقالت بدهشتها:

- الهانم تبكي؟!

وبعد أن قالت عبارتها.. فطنت إلى أن صـورة رامي التي تعلقها في الصالة قد أثارت فيهـا المواجـع فشعرت بالفرحة.. لقد هزمتها فقالت في نبرة المنتصرة:

- أرسلها لي من لندن..

شعرت الأم بالهزيمة.. يرسـل لحبـة البركـة صورته ولا يرسل لأمـه.. فقالـت تـداري شـعورها بالهزيمة وهي تبتلع دموعها:

- رامي في خطر يا بركة!

انخطف قلب بركة لا بد أن رجـال ناصـر قـد وصلوا إليه فصرخت وهي تقول:

- قبضوا على رامي؟!

قالت بفزعها على ابنها:

- فال ا   ولا فالك!!

استقر قلب حبة البركة في صـدرها فضـحكت سعيدة وهي تقول:

- سهرت معه الليلة الماضية.. وكـان صـوته يجلجل..

فرحت الأم لأن صوت ابنها يجلجل فأوشكت أن تقول: ابني بطل ولكنها وجدت نفسها تقول:

- خائفة على رامي؟!

وكأنها وجدت في لحظة ضعف الأم فرصة لتلقنها درسا:

- الخطر يا زينب هانم يصنع الرجال.. ورامي كان في حاجة إلى مثل هذا الخطر ليتعلم كيف يكون قويا يواجه الحياة.. ويخرج من حجرته المغلقة التي يحبس نفسه فيها..

وبعد أن قالت هذا خافت أن تغضب منها وهي لا تريد أن تغضب أم رامي التي تزورها في بيتها فقالت:

- ويكون جديرا بأم عظيمة مثلك ركبت الخطر وتحدت الظروف الصعبة..

تهلل وجه زينب هانم بالسعادة.. خشيت حبة البركة أن تكون قد فهمت مما قالت.. أنها تنافقها وهي لا تحب النفاق فضحكت وهي تقول:

- لقد شكوتك له بعد أن طردتيني..

تذكرت الأم أنها طردتها من السراي.. فشعرت بالخجل من نفسها، تقول عنها أم عظيمة وهي التي طردتها فوجدت نفسها تقول:

- أنا لم أطردك..

قالت ابنة الطباخ في تجاسر:

- طردتِني يا زينب هانم.. بركة لا تكذب..

قالت زينب هانم متراجعة:

- أنا لا أذكر ..وعلى كل حال إذا كان قد حدث فإنا..

قالت حبة البركة بسرعة دون أن تجعلها تكمـل كلامها:

- لا تعتذري يا هانم.. أم رامي لا تعتذر

وقالت باسمة:

- يمتدحك رامي في كل رسالة يرسلها لي ويقول عنك أطيب قلب وإنني سأحبك كما يحبك لو أننـي قـد اقتربت منك..

وكما لو أن حبة البركة قد جسدت لها رامي فـي هذه اللحظة فاحتضنتها وهي تقول:

- يا حبيبي يا رامي..

تنبهت زينب هانم – بعد لحظـات – إلـى أنهـا تحتضن ابنة الطباخ فدفعتها بعيدا عنها وهي تقول فـي نبرة خلت من العاطفة:

- أنت تحبين رامي؟!

اغرورقت عينا بركة بالدموع..

قالت الأم في نبرة أمرة:

-كُفّي عن البكاء..

فسالت دموع بركة على وجنتيها..

قالت في نبرة رجاء:

- أريدك أن تسافري إلى لبنان

ابتسمت حبة البركة بدموعها وهي تقول:

- أرسل لي تذكرة السفر..

تضايقت الأم من ابتسامتها فقالت في عصبية:

- استغلي حبك..

وكما لو أنها قد لسعتها بعبارتها فقالت منفعلة:

- حبي يا زينب هانم لا يعرف الاستغلال..

وكما لو أنها وجدت أن هذا لا يكفي لتدافع به عن حبها فقالت:

- رامي صاحب قضية يؤمن بها.. يـدافع عـن حرية شعب.. ومن يدافع عن حريـة النـاس.. يكـره الاستغلال.. ويرفض المساومة في حبه..

قالت زينب هانم وقد نفد صبرها:

- ينبغي أن يتوقف.

- أنت لا تعرفين ابنك يا زينب هانم..

غضبت الأم.. بنت الطباخ تقـول لهـا إنهـا لا تعرف ابنها.. أرادت أن تخرج وتتركها.. ولكنها تذكرت ما قاله لها السيد الشرقاوي من أن حبة البركة قادرة على

إعادة رامي إلى صوابه فتمالكت أعصابها وقالـت فـي نبرة هادئة:

- لا بد أن يتوقف رامي عن الإذاعة في إذاعـة الأعداء.. لقد وعدني عبد الناصر..

تهلل وجه حبة البركة بالفرحة وهي تقول:

- عبد الناصر .. حدثِته.. أريد أن أحدثـه أنـا أيضا..

اندهشت زينب هانم.. تحب الرجل الذي يحاربـه رامي الذي تقول إنها تحبه فقالت بدهشتها:

- تحبين عبد الناصر؟!

أرادت أن تقول: لأنه علمني الكرامة.. ولكنهـا قالت:

- جعلني أدخل سراي المنيرة مرفوعة الرأس..

ولم تكتم الأم ضحكتها وهي تقول:

- وتخطفين قلب رامي؟!

قالت منفعلة:

-تتصورين أن رامي أحبني لأنني كنـت وأنـا صغيرة أذهب للسراي مع أبي.. رامي أحبني وأنا زميلته في الجامعة أدرس الاقتصاد.. وأحدثه عن حلمي في أن أصبح دكتورة في الاقتصاد.. أنا مدينة بحبنا الناضج لعبد الناصر..

ومدت يدها كما لو كانت تقدم دليلا لها على مـا تقول.. قائلة:

- رسالة رامي الأخيرة..

وأبصرت الدهشة على وجهها فقالت:

- لا تندهشي يا زينب هانم..

أوشكت زينب هانم أن تقول : لم أكن أعرف أنه يرسل لك الرسائل.. ولكنها قالت..

- لم أكن أعرف أنك تدرسين الاقتصاد!!

قالت باسمة:

- للأسف يا زينب هانم.. أنت لا تعرفين أمـورا كثيرة..

عجزت الأم عن الكلام. انتهزت شعورها بالعجز وقالت لها:

- أنت المسئولة عما جرى لرامي..

قالت بذهولها:

- أنا؟!

وأوشكت أن تقول لها: أنا التي جعلتهم يـدخلون علي حجرة نومي ويقبضون علي ويحبسونني في الفيللا

الرمادية ويغضب لاعتقال أمه؟! ولكنها وجـدت نفسـها تصغي إليها وهي تقول:

- حاصرتِ حبه.. فلـم يجـد سـوى طريـق الكراهية..

شعرت برغبة في أن تتخلص من دراما اللحظـة فقالت وهي تضحك ضحكة ساخرة:

- وأنت الحب؟!

قالت حبة البركة في تحد:

- أنا ورامي يا زينب هانم!!

أرادت أن تصفعها على وجهها.. ولكـن عبـارة الشرقاوي: بركة ستنقذ رامي من حبل المشنقة قفزت إلى رأسها.. فقالت لها في نبرة مستسلمة:

- ماذا تريدين يا بنت الباشا؟!

- تعطي لرامي حريته .. لتكون حريته الهدية التي أحملها له عندما ألقاه في بيروت..

وكما لو أن زينب ملكة تصدر أمرا ملكيا يمنحه الحرية فقالت:

- أعطيته حريته..

وغمرت الفرحة حبة البركة وكأنها قالت لها: تزوجيه فقالت:

- جد.. يا ماما زينب..

قالت زينب هانم بدمعة فرت من عينيها:

- رامي حبة عيني يا بركة.. ورغباته أوامر..

عز على حبة البركة أن ترى دمعة في عيني أم رامي فقالت بشقاوة ابنة البلد لتجعلها تضحك وتبتلع دمعتها:

- وسأسحره وأحضره لك .. يا أطيب قلب..

وقبلتها.. ولكن زينب هانم لم تقبلها!!

الفصل الحادي والعشرون

- من أرسلك؟!

قال رامي عبارته لحبة البركة بصوت مشـروخ بالخوف.. عندما أبصرها تدخل عليه في حجرتـه فـي الفندق..

ردت عليه بدلال ابنة البلد قائلة:

- لا تريد أن ترى بركتك يا عيوني؟!

وتصنعت الغضب.. بدت له أنها سـتخرج مـن الحجـرة.. فأمسـكها مـن ذراعهـا وضـغط عليـه بيده..فاستوعب أن حبة البركة قـد اسـتجابت لرغبتـه وطارت إلى بيروت فقال بفرحته:

- بركة في بيروت.. لا أصدق!!

- وأنا لا أصدق أن رامـي يقابـل بركـة فـي بيروت..

ولم يجعلها تكمل كلامها وتقول : هذه المقابلة!!

فأسرع يقول:

- سامحيني.. معركتي مع ناصـر علمتنـي أن أشك في كل إنسان..

- حتى في بركتك!!

قال بنبرة وشت بحزن عميق:

- حتى في نفسي!!

نظرت في عينيه.. معركته مع ناصر أخذت منه البراءة.. ليس رامي الـذي أعرفـه .. أكلـت الأيـام نضارته.. شاخ قبل الأوان.. تملكها البكاء .. لا تريد أن يراها وهي تبكي فاندفعت خارجـة.. لـم يفهـم لمـاذا

خرجت؟! وقف ينتظر عودتها.. لم تعد .. نادى عليها .. لم ترد.. فتح باب الحجرة.. لم يجدها قال : أين أنت يـا مجنونة؟! توقع أن يسمعها تقول: أذكرك بأيام المنيـرة.. عندما كنت أختفي بين أشجار الحديقة.. وتبحث عنـي.. ولكنه لم يسمعها تقول شيئا. شـعر بـالخوف.. يعـرف جنونها .. تغضب وتعود إلى مصر.. كان يلـح عليهـا لتأتي.. وعندما وجدها تدخل عليه في حجرته.. استقبلها كما لو أنه فوجئ بمجيئها وقـال لهـا: مـن أرسـلك؟! يحتاجها الآن أكثر من أي وقت مضى.. يشـعر بوحـدة قاسية.. لن يتركها تذهب .. لم يجد الأسانسـير.. نـزل على درجات السـلم .. أبصـرها تقـف وهـي تبكـي فاحتضنها كما لو أنه يلقاها اللحظة قادمة من مصر فهال بفرحة اللقاء:

- وصلت بركتي؟!

وضحكت بدموعها وهي تقول: صدقت؟!

قال بضحكة ذكرتها برامي الذي كانت تلقاه فـي حديقة السراي في المنيرة:

- عرفتك من شقاوتك..

وقالت بشقاوتها:

- وأنا عرفتك من ضحكتك!

وأمسكت يده وقالت بدلالها:

- لم أتغير يا رامي ؟!

قال وهو يقبل يدها:

- صرت "سكر زيادة"..

بدا لها وهو يدخل معها حجرته كما لو كان طفلا يحتاج إلى شهادة أمه وهو يقول في شيء من الزهو:

- هل تسمعيني وأنا أهاجم عبد الناصر؟!

قالت بكل حبها:

- أحتضن الراديو طوال الليل لأسمعك..

وأوشك أن يقول لها: أنا الوحيد في مصر الـذي قال لعبد الناصر: لا .. ولكنه قال:

- هل نجحت كمذيع؟!

وكما لو أنه قد سمعها تقول: لقد نجحت.. فقـال: لقد كان حلمي منذ صغري الذي لم أخبرك بـه هـو أن أصبح مذيعا وقد تحقق لي حلمي .. لذا عنـدما سـمعها تقول: لست مذيعا.. شعر بالغضب.. فأسـرعت تزيـل غضبه قائلة:

- أنت بطل يا حبيبي..

قال مهموما:

- تصوري البطل هـذا كـان يرتجـف أمـام الميكروفون وهو يهاجم عبد الناصـر.. لا يصـدق أن رامي الذي استقبل ثورته بتوزيع الشربات على النـاس يهاجمه من إذاعة معادية!!

وصمت للحظات ثم قال وهو يقنع نفسه بالبطولة:

- أدافع عن شعب مقهور ولن أتوقف حتى يرحل العسكر!

صدمتها عبارته الأخيرة.. من الصـعب إقناعـه الآن بالتوقف عن الهجوم.. من الأفضل أن تسايره فقالت بخفة ظلها:

أكلوا الحرية علينا!!

توقعت أن يضحك ولكنه قال في نبرة حادة:

- أنا على استعداد لأن أموت من أجل الحرية..

وفجأة وجدته يقوم ويرقص وهو ينظر في المرآة ليرى نفسه وهو يقول: - أنا من قال لعبد الناصـر لا .. أنا بطل .. بطل .. وبركة حبيبتي شهدت لي بذلك..

ووقفت بجواره ليراها في المرآة وقالت:

- صحيح يا رامي أنا حبيبتك؟!

ضحك.. كما لو أنه بضحكته يعترف بأنـه قـد عرف نساء غيرها فضربته على ظهره وهي تقول:

- ياخائن!!

قال في نبرة جادة:

- أول درس تعلمته في معركتي معهم إلا أثق في امرأة..

أوشكت أن تقول له: إلا بركتك ولكنها قالت:

- صحيح يا رامي لم تعرف امرأة غيري؟!..

- حامت حولي الكثيرات.. ولكني لم أستجب.. لو استجبت لسقطت في أيديهن منذ زمن..

احتضنته من ظهره وهي تقول:

- صائم يا حبيبي؟..

قال ذائبا في حضنها:

- صائم يا حبيبتي..

- ومن أجل هذا أرسلتني أمك يا ضنايا!

تذكر أمه فقال بشوقه لسماع أخبارها:

- ما أخبار أمي؟ ما زالت قوية.. أعرفها امرأة لا تهزم.. أعطتني القوة التي أقف بها في أستوديو الإذاعة وأهاجم ناصر.. لم أكن أتصور أن في داخلي كل هذه القوة.. لقد حلمت بأنهم يقبضون عليها وهي تصرخ.. وعرفت إن ما حلمت به كان صحيحا من عمي

عزيز.. فجن جنوني.. وتفجرت هذه القـوة التـي لـم أتصور في يوم من الأيام أنها في داخلي.. لا بد أن أمي راضية عني..

فوجدت نفسها تقول:

- غير راضية..

شحب وجهه فقالت بسرعة:

- غير راضية لأنك ترسل لي صورتك من لندن ولا ترسل لها.. أنا أعلق صورتك الحديثة وأنت تذيع في الأستوديو في مدخل شقتي في شبرا.. وأمك رأتها..

قال منفعلا:

- أنا أضع رأسي في حبل المشنقة من أجل أمي

وكما لو أن سكينا أنغرس في قلبهـا فصـرخت قائلة:

- لا تذكر هذه العبارة مرة أخرى..

قال بكل حبه..

- تخافين علي يا بركة ؟!

- أنت رامي .. حبيبي

- و أنت بركتي .. نور عيني

فقالت بخفة ظلها كما لـو كانـت تلعـب لعبـة الكوتشينة..

- بصرة!!

تذكر ما سمعه من أن أمه قد رقصت في الحفلـة التي أقامتها في سراي المنيرة احتفالا بنصر بورسـعيد فقال في غضب:

- هل رقصت أمي في الحفلة؟!

ولم ينتظر أجابتها وقال:

- لا يمكن أن ترقص أمي.. يروح رجال ناصر هذه الأكذوبة لينالوا مني..

ولكن أنا قوي .. أقوى منهم.. أنا سوبرمان يـا بركة..

وفجأة قال لها:

- ما رأيك في فنجان قهوة في شارع الحمرا؟!

- لا داعي للمغامرة يا رامي..

- الحياة مغامرة.. وبعدها نموت!

وقال وهو يجلس أمامها على رصيف كافيـه دي باربي:

- تصوري أنا اشعر بالحزن وأنا أهـاجم عبـد الناصر.. اكتشفت أنني لا أكرهه كما كنت أتصور!!

وجدت الفرصة لتصل للهدف القادمة من أجلـه فقالت:

- تحبه وتهاجمه؟!

- ليعود فارسا.. يحب الناس ولا يخافهم..

ووقف – فجأة – وألقى بورقة مالية كبيرة قبل أن يحتسي فنجان القهوة وخرج من المقهى مسرعا.. فجرت خلفه.. وسمعته وهو يقول:

- جواسيس!!

وضحك قائلا:

- صرت خبيرا في معرفة جواسيسهم!

و دخل مقهى آخر.. ليخرج من البـاب الخلفـي وهي تجري في إثره لتجده يدخل فندقا غير الفندق الذي

التقت به عندما جاءت من مصر ويخرج مفتاحا ويفـتح باب حجرة وهو يقول ساخرا:

- ألعب معهم! إذا كان هـو الشـيطان.. فأنـا الشيطان الأكبر!!

وقال لها قبل أن تجلس:

- أنت تحبين عبد الناصر؟!

وقبل أن تقول شيئا قال لها: أعرف أنك تحبينه.. مثل ملايين الناس في الوطن العربي الذين يـرون فيـه الفارس المنتظر الذي جاء بالقمر العربـي فـي غيـر زمانه!!

وأشعل سيجارا وقال بعد أن كح:

- وأنا أحبه ولكن بطريقتي!.. أتعـرفين أننـي أشعر في كل مرة أذيع الهجوم الذي يكتبونه لـي بـأني أجلد نفسي وأشعر بآلام شديدة في معدتي وقد نصـحني

أحد الأطباء بأن أكف عن الهجـوم حتـى أشـفى مـن آلامي . ماذا تتوقعين أن أفعل؟ أتوقف ؟ لا أتوقف وأجد نفسي ذاهبا للإذاعة وأهاجمه.. أريد أن يصل هجـومي إليه.. ويعرف أنه مخطئ!!

وأوشك أن يقول: وأحتمل آلامي حتـى يشـفي عبد الناصر ويتحرر الناس.. ولكنه قال:

- حبي إيجابي .. أما حبك له فهو حب سلبي!

استفزتها كلمة " سلبي" فقالت غاضبة:

- أنا لست سلبية!

وأمسك يدها وقال في صوت خفيض:

- تتزوجين رامي يا بركة؟!

كما لو أن رامي ليس الجالس أمامها.. وعليها أن تفتح عينيها لتتأكد من أن الذي يتحـدث إليهـا بصـوت

خفيض هو رامي الذي تحبه وقادمة من أجل أن يتوقـف عن الهجوم وتتزوجه.. ولكنها وجدت نفسـها تخفـض رأسها فقد اعتراها خجل صبية باغتها حديث الزواج!!

رفع رأسها بيده ونظر في عينيها كما لو أنه يريد أن يرى عينيها في هذه اللحظة وقال:

- أتعرفين لماذا أتزوجك؟ لأنك وطني المقهور.. قهرتك أمي.. وعندما أتزوجك.. أحرر وطني!

وأوشكت أن تقول له: ومهـري أن تكـف عـن الخطر ولكنها شعرت بالخوف من أن يقول لها: لن ابتعد عن الخطر حتى يرحل العسكر!..

فقالت:

- وأقاسمك الخطر؟!

قال بصوت عال.. كما لو أنها قد لسعته:

- لا يا بركتي .. أخاف عليك من أن يضـعوك في صندوق..

ويحملوك لعبد الناصر.. فيقهروني في آخر شيء جميل لي في هذه الحياة!!

وهب واقفا وقال وقد وضح عليه الإرهاق:

- أريد أن ألعب معهم اللعبة الأخيرة.. سأتزوجك في هذه الحجرة.. وستكون مفاجأة لهم.. لن يصـدقوا أن جنوني قد وصل إلى أن أتزوجك أمام عيونهم.. وعندما يفيقون من المفاجأة.. نكون قد طرنا إلى إحدى الجـزر البعيدة لنقضي شهر العسل..

واحتضن يدها بيديه وقال:

- وأرتاح على صدرك.. تعبت يا بركة!

ووقف .. فأبصرت رامي الذي أحبته في حديقـة سراي المنيرة.. وفي مدرجات الجامعة وقال وهو يفـتح باب حجرة الفندق كما لو أنها قد وافقت على الزواج:

- سأذهب الآن لأعد الترتيبات اللازمة لعرسنا!

أرادت أن تستوقفه لتملأ عينيهـا برامـي الـذي أحبته في حديقة السراي ومدرجات الجامعـة.. ولكنـه أغلق باب الحجرة وذهب .. شـعرت بـأن قلبهـا قـد انخطف .. كما لو أنه لن يعود!!

القاهرة٩٧

انتهى الجزء الأول

الجزء الثاني

الفصل الثاني والعشرون

أخي بطل

قالتها جلنار في زهو وهي تنظر إلى سمير عبـد الكريم الذي وضح على وجهه الحزن العميق.. وعنـدما وجدت أن عبارتها لم تخفف من حزنه قالت بالإنجليزية: هيرو . وكما لو أن قولها كلمة بطل بالإنجليزية سيجعله يفهم ما تريد أن تقوله من أنه ينبغي أن يفرح لأن صديق عمره أصبح بطلا!!

قال سمير في تأثر بالغ:

- جاءوا به في صندوق!!

قالت في افتخار:

- لم يستطيعوا أن يواجهوه وجها لوجه.. فلجئوا للخديعة.. استفادوا من ذهاب حبة البركة إليه وجعلوهـا طعما.. واصطادوه وخدروه ووضـعوه فـي صـندوق وشحنوه في طائرة كما لو أنه شيء.. أمـا هـو فكـان واضحا.. اختار عدوه.. أقوى رجل.. عبـد الناصـر.. وراح يهاجمه علنا أمام كل الدنيا لكي تعرف الرجل يـا سمير.. اعرف عدوه.. أخي اختار فارسا لينازله..

قال سمير:

- أنا أعرف رامي.. له أخلاق الفارس ولكن..

قالت بسرعة:

- بدون " لكن" يا سمير..

قال غاضبا:

تريدين مني أن أفرح وصديق العمر في السجن ينتظر..

وتوقفت كلمة " الإعدام " في حلقه..

قالت جلنار باسمة:

- الحزن لن ينقذه من مصيره!

ودخلت وحيدة عليهما في حجرة سـمير وهـي تقول:

- تعجبيني يا خوجايه.. عفارم عليكي!

ضحكت جلنار.. تطلق وحيدة عليها" الخوجايـه برغم أن جلنار تقول لها إنها بنت بلـد أكثـر منهـا.. الفارق الوحيد بينهما أنها تربت في إنجلترا وهـي قـد تربت في الماوردي.

قالت وحيدة:

- أيوه أضحكي كده خليني أقول عليكي إنك بنت بلد.. وحياتك ما سبتش الهانم إلا بعد ما قلتلها نكتة سخنة من إياهم وخلتها تضحك.. بس يا ولداه من وار قلبها.

قالت جلنار وهي تضحك:

- الضحك يغسل النفس ويجعل الإنسان يعـرف كيف يفكر..

قال سمير في أسى:

- المصيبة كبيرة لا يغسلها ضحك الدنيا!!

قالت وحيدة وهي تتألم:

- أيوه صحيح.. أنا مش مصدقة اللي حصـل.. حكاية ولا في الحواديت .. سي رامي الأمير ينحط فـي صندوق ويشحن كأنه بضاعة!

قال سمير في ذهول:

- ويحمل الصندوق من الطائرة إلى بيـت عبـد الناصر

قالت جلنار ضاحكة:

- فرعون!!

قال سمير في انزعاج:

- ويفتح الصندوق ليجد رامي نفسه أمـام عبـد الناصر

وضربت وحيدة بيدها على صدرها وهي تقول:

- يا نهار اسود..

قالت جلنار في دهشة:

- لماذا هو أسود ؟ قولي يا نهار أبيض.. فرصة لرامي ليواجه عبد الناصر ويسأله عن الحرية التي وعد بها الناس عندما قام بالثورة..

قال سمير في نبرة حزينة:

- عرفت أنه قد أغمي عليه..

قالت جلنار غاضبة:

- لا تقل هذا.. لا يمكن أن يغمى على رامـي.. أخي بطل.. قال كلمة الحق في وجه السلطان على مسمع من الدنيا.. لا بد أنه قد حاوره..

قال باندهاشة:

- يحاور عبد الناصر؟!

- لماذا لا يحاوره؟!

- هذا عبد الناصر. يبدو أن إقامتك الطويلة فـي لندن جعلتك تنسين مصر.

قالت وحيدة بشماتة في جلنار. فقد انضم سـمير إلى رأيها.. فيها..

- ليك حق يا سي سمير.. عبد الناصر ليه هيبته بتخوف أجدعها راجل بس الخواجـات مـش فـاهمين اعذرهم..

تذكرت بعد أن قالت هذا أنها قادمة لتخبر سـمير بأن أهل المنيرة غاضبون من زينب هـانم لأن رامـي يهاجم عبد الناصر من إذاعة الأعداء.. ولكنهـا وجـدت نفسها تعدل عن أخباره أمام جلنار.. كما لو أنها خوجايه فعلا ولا يجوز أن تتكلم بنت البلد أمام خوجايه في أمـر يخص أهل المنيرة فقالت وهي تضع الشال على كتفيها:

- ربنا يستر

وفتحت الباب وهي تقول لجلنار:

- اقعدي بالعافية يا خوجايـه.. وكـويس أنـي اطمنت عليك يا سي سمير وشدت على يده قائلة:

- صاحبك رامي عاوزك قوي.. شد حيلك..

وقالت جلنار بعد أن خرجت وحيدة:

- بنت بلد دمها خفيف.. وفاهمة كويس.. عيبهـا أنها تقول عني خوجايـه وضـحكت.. وكأنهـا تقـول بضحكتها أنها هي الخوجايه وليست أنا!

وكأن سمير تذكر شيئا لم يقله لجلنار فقال:

- يحققون الآن مع رامي..

- لا بد من وجود محام.. يحضر التحقيق..

قال سمير:

- لسنا في إنجلترا يا جلنار..

قالت جلنار في حماس:

- حقوق الإنسان.

- عندنا حقوق الناس..

- لا توجد حقوق للناس دون حقوق الإنسان

-عبد الناصر محامي الناس..

فجأة وقفت وقالت:

- سمير.. لن أتزوجك..

ضحك سمير قائلا وقد تصورها تهزل:

- لن تتزوجيني.. لأني أحب عبد الناصر

قالت في نبرة جادة:

- لأنك تحب العبودية.. وأنا أريد زوجي حرا..

وقالت في حسم:

- أنا أم عبد الناصر؟!

أوشك أن يقول: هل جننت ؟ ولكنه قال:

- عبد الناصر الذي حررنا وجعلنا نرفع الرءوس

قالت في نبرة هادئة:

- أنتم الذين حررتم أنفسكم.. إن لم يكن قد ظهر عبد الناصر.. كان سيظهر غيره.. الشعوب هـي التـي تصنع الزعماء.. وليس الزعماء هـم الـذين يصـنعون الشعوب..

ووقفت وهي تقول:

- إذا أردت أن أتزوجك.. فتخلص من هذا الحب الذي استعبدك ..

وقالت باسمة:

- حبي..وحبه لا يلتقيان!!

شعر بأن ما قالته يمس شيئا في داخله فقال وهو يمسك يدها:

- أين أنت ذاهبة؟ أنا في حاجة إليـك.. وكأنـه قال : أشعر بالهزيمة فقالت كما لو أحست بما يشعر:

- الهزيمة لم تأت بعد..

وجذبت يدها من يده وهي تقول له

- الذي يتنازل عن نفسه لا يعرف الحب!

وخرجت جلنار.. لم يجد سمير شيئا يفعله سـوى أن يضرب بقبضة يده على زجاج المكتب ويقول:

- هل حب ناصر.. عبودية؟!

الفصل الثالث والعشرون

قفزت زينب هانم من فراشها.. هاجمها كابوس.. رأت حبل المشنقة يلتف حول عنق ابنهـا فصـرخت .. أشعلت نور الحجرة سيجعلها تطرد الكابوس من عينيها. قفزت إلى رأسها ما قالته وحيـدة لهـا مـن أن رامـي يحتاجها شجرة واقفة.. دبدبت بقـدمها علـى أرضـية الحجرة الخشبية كما لو كانت تريد أن تثبت لنفسها أنهـا ما زالت واقفة على قـدميها.. نظـرت فـي المـرآة.. أبصرت ابتسامة رامي في عينيها..ستحارب الدنيا مـن أجل أن تظل ابتسامة ابنها مشرقة في عينيها.. لن تكون وحدها.. ستجمع أهالي المنيرة حولها.. سـتخرج إلـيهم وتقول لهم إن ابنها يواجه الموت من أجلهم.. ويلتفون في مظاهرة حب وتجني ثمرة الحب الـذي أمـرت رجلهـا مصطفى الكاشف بزرعه في المنيرة وتنتصر على عبـد الناصر.. شعرت بصداع حاد .. لم تشرب فنجان قهـوة الصباح .. نادت على خادمها سيد أحمد.. لم يرد عليها..

رأسها يكاد ينفجر.. أسـرعت إلـى المطـبخ الملحـق بجناحها.. صنعت فنجان قهوتها .. حملته إلى الحديقة.. تشربه تحت تكعيبة العنب كعادتها كل صـباح.. وتقـرأ الصحف.. تذكرت أنها قد قاطعت قراءة الصحف منـذ راحت تهاجم ابنها.. أشعلت سيجارة.. رشفت رشفة من فنجانها.. مذاق القهوة مر في فمهـا.. تريـد أن تسـمع زقزقة العصافير.. سمعت نعيق بومة

تركت فنجان قهوتها وعادت إلى حجرتها.. نعيق البومة ما يزال في رأسها أغلقت النوافذ.. شعرت بأنهـا مسجونة.. تريد أن تتحرر من سجنها.. تطلـب السـيد الشرقاوي.. أحب إنسان إلي قلبها.. تزوجها وهو يعرف ما حدث لها في ليلة الفيللا الرمادية..وبرغم أنهـم قـد أجبروه على تطليقها إلا أنه لم يرسل لها ورقة الطلاق.. لا يفعل هذا سوى فارس.. تعرف رقم تليفونه السـري.. تحدثه وتقول له: أحبك.. ولكنهـا تـرددت.. يسـجلون حديثها ويسمعه عبد الناصر.. وينكل به كما نكل بصديقه حازم عبد الصادق.. تشعر برغبة في أن تخفيـه بـين

رموش عينيها.. لم تحب أحدا مثله.. أغمضت عينيها فقد شعرت بحرقان.. فتحتهما على صوت سائقها عم حسـن وهو يقول: المنيرة يا ست هانم..

وجدت نفسها تقول بفرحة الحب التي شعرت بها وهي تتذكر الشرقاوي:

- تحبني يا عم حسن..

جعلته فرحتها لا يقول لها إن المنيرة غاضبة لأن رامي هاجم الرئيس.. ولكنه شعر بتأنيب الضمير فهو لم يتعود على إخفاء شيء عن سيدته التـي يخلـص فـي خدمتها.. فبكى.. قالت ضاحكة:

- لا تبكِ يا عجوز.. الحب إلا نبكي..

وجدته يقول بدموعه:

-الجواسيس حول السراي يا هانم..

قالت له:

لا تخف.. سأرسل سيد أحمد للشرقاوي ليحضـر ويطردهم.. فلا يمكن أن يسمح بوجود جواسيس حـول قصره..

وقالت باسمة:

- ما زال الشرقاوي زوجي.. لم يرسل لي ورقة الطلاق..

أبصرت رجلا أمامها.. اندفع عم حسـن نحـوه ليطرده.. تصوره من أهالي المنيرة الغاضبين جاء يتهجم على الهانم في حجرة نومها.. منعته زينب هانم.. ظنـت أن الشرقاوي قد أرسله ليخبرها بأمر سار خاص بابنهـا يخاف أن يسمعوه وهو يحدثها في التليفـون المراقـب.. أقبلت على الرجل وهو يقول:

- معذرة يا هانم

قالت سعيدة.. شعر الشرقاوي بأنها تريده فأرسل لها أحد رجاله:

- أرسلك الشرقاوي؟

قال الرجل يبرر لها دخوله حجرة نومهـا بـلا استئذان:

- لم أجد أحدا من خدم السراي.. وقال لي أحـد الواقفين أمام السراي إنك في حجرة النوم..

قالت تستعجل سماع خبر الشرقاوي السار:

- ماذا تحمل من أخبار؟

- ورقة الطلاق يا هانم؟!

ضحكت .. قالت كما لو أنها تسمع للمرة الأولى أن الشرقاوي قد طلقها فقالت:

- الشرقاوي طلقني؟!

لم يتكلم المحضر.. مد يـده بورقـة الطـلاق.. تناولت الورقة.. نظرت فيها.. غامت حروف الكلمـات في عينيها.

قال لها وهو يناولها قلمه..

- التوقيع يا هانم..

لم تتناول قلمه .. مدت يدها إلى القلم الذهبي الذي أهداه لها الشرقاوي ووقعت به.. وبعد أن خرج المحضر قالت كما لو كانت تحدث نفسها:

- أرغمه عبد الناصر علـى أن يرسـل ورقـة الطلاق..

أبصرت في عيني عم حسن التعـاطف معهـا؛ فشعرت برغبة في الحديث معه فقالت:

- لا يمكن أن يهاجم رامي عبد الناصر ويظـل أقرب الرجال إليه.. زوج أمه.. لا بد أن يطلقها حتى لا ينكل به..

وابتسمت وهي تقول:

- يطلقني أمام عبد الناصر ويظل حبيبـي فـي السر!!

قال عم حسن في تأثر

- رجل ما عندوش أصل..

قالت زينب هانم في غضب:

- لا تقل هذا يا عم حسن.. الشـرقاوي رجـل شهم..

تراجع بسرعة فهو يجاملها بما قاله.. فقال:

- أعرفه يا ست هانم.. رجل عنده أصل.. أصله من بلادنا..

وكأنها وجدت فرصة لتنشغل عن التفكير في أن الطلاق صار حقيقة فقالت:

- صحيح يا عم حسن؟

- لا يفوته عيد إلا ويزور أهله.. يحبهم يا ست هانم.

وكأن حديث حبه لأهله جعل الدموع تريد أن تسيل من عينيها.. وهي لا تريد أن تبكي أمام سائقها..

تذكرت أن مصطفى الكاشف قد أخبرها بأن قردها خميس الذي تحبه قد مات.. ودفنه في الغابة.. مات القلب الحنون.. تذهب إلى قبره وتبكي عليه .. نزلت إلى الحديقة واتجهت إلى الغابة.. أبصرت الباب الخلفي للسراي.. وجدت نفسها تدفعه بيدها.. تريد أن

ترى الجواسيس الذين يقفون حول السراي.. لم تبصر أحدا.. شجعها هذا على أن تخرج وتلتقي بأهالي المنيرة وتبكي على صدورهم.. أبصرت بعض الأهالي يقفون.. اندفعت نحوهم باسمة.. توقعت أن يستقبلوها بابتساماتهم.. أبصرتهم متجهمين.. لابد أن هؤلاء الذين يقفون حولها لا يعرفونها.. قالت لهم تذكرهم بنفسها: أنا أم رامي.. سمعت من يقول: أم الخائن.. وجدت نفسها تنفعل وتقول رامي ليس بخائن.. ابني يواجه حكم الإعدام من أجل أن تصبحوا أحرارا .. ضحك أحدهم.. أرادت أن تتبين وجهه.. أبصرت وجوها كثيرة تضحك.. يحاصرونها بالضحكات.. لا ينقذها من حصارهم سوى وحيدة.. وجدت نفسها تندفع كما لو كانت تجري.. تبحث عن وحيدة.. لم تجدها كعادتها في كل مرة مشت في شوارع المنيرة.. اتجهت إلى بيتها مسرعة.. صعدت إلى حجرتها دفعت بابها.. استقبلتها وحيدة قائلة:

- ليه نزلتي من السراي يا ست هانم؟!

- أريد أن تسمعني المنيرة..

قالت بحزنها:

- المنيرة سمعت رامي في إذاعة الأعداء..

وتذكرت أن حبة البركة قد زارتها وشكت لها من أن زينب هانم رفضت أن تستقبلها فقالت في نبرة وشت بضيقها من تصرفها:

- ليه ماقابلتيش حبة البركة؟

- لا أقابل خائنة..

- عندها معلومات تفيد رامي

قالت في لهفة:

- صحيح؟!

- سمحوا لها بمقابلته..

- قلت لك إنها خائنة..

قالت وحيدة بلهجة آمرة:

- قابليها واسمعيها يا ست هانم.. مصلحة لسي رامي..

قالت في استسلام:

- حاضر يا وحيدة..

وبدت لوحيدة أنها ستنزل الآن لتقابل حبة البركة.. فخافت عليها وصوت ضجة تصل إليها من النافذة فقالت بخوفها عليها..

- بلاش يا ست هانم تخرجي دلوقتي..

- لا تخافي على زينب هانم.. أنا بنت أفندينا..

واتجهت وحيدة للنافذة لتبصر الصبية وهم يمسكون قطع الحجارة بأيديهم .. فقالت تحذرها من النزول..

- لا تخرجي يا ست هانم..

لتجدها قد خرجت.. فأسرعت تجري خلفها لتنقذها من حجارة الصبية..

الفصل الرابع والعشرون

فوجئ سمير عبد الكريم وهـو يـدخل السـراي بجلنار تقف أمامه.. كان قادما ليطمئن على زينب هـانم فقد أخبرته وحيدة بأن صبية المنيرة قد قذفوها بالحجارة وهي خارجة من بيتها.. ولم يكن في حالة تسمح له بـأن يتكلم مع جلنار حول ما طلبته منه من أن يحدد موقفه.. إما حبها له أو حبه لناصر؟!.. لقد اعتبر هذا من جنونها الذي لا ينبغي أن يشغل به فكره.. وخاصة أن محاميـه الذي يدافع عنه في القضية التي رفعها على الأديب الذي سرق قصته قد أخبره بأنه قـد خسـر القضـية فشـعر بالإحباط وأغلق على نفسه باب حجرته لا يريد أن يرى أحدا.. ولكن عندما اقتحمت وحيدة عليه حجرته وأخبرته بما حديث لزينب هانم.. ارتدى ملابسـه وأسـرع إلـى السراي يريد أن يطمئن عليها فهو يشعر بأنـه مسـئول عنها وخاصة بعد أن دخل صديقه رامي السجن.

أبصر في عيني جلنار رغبة في استئناف حديثها معه.. فأراد أن يهرب من حديثها بالكلام عن زينب هانم وما جرى لها فقال بسرعة:

- صحة زينب هانم.. هل تحسنت؟ مـاذا قـال الطبيب؟ لقد قالت لي وحيدة إنها قد حمتها بجسدها مـن الحجارة..

قالت جلنار وكأنها انتهزت الفرصة لتؤكـد لـه صدق نظرتها:

- لقد نصحتها بأن تبتعد عن المنيرة هذه الأيام..

قال سمير يواصل كلامه:

- ما ذنب زينب هانم؟ رامي هو الذي أخطـأ.. فلماذا يرجمونها بالحجارة؟!

قالت جلنار:

- لا تصدق كل ما تقوله لك وحيدة.. وحيدة تبالغ كعادة أولاد البلد..

وكأنه لم يسمع ما قالته فقال:

- الإنسان في مصر قلبه طيب .. ولكن العقـل الجمعي للناس قاسٍ.. عكس أوربا..

وأراد أن يذهب بعد أن قال هذا فقالت:

- أين أنت ذاهب؟!

- أطمئن على زينب هانم..

- لا تقابل أحدا..

وفي إصرار قالت:

- اجلس..

فطن إلى أنها تريد أن تستأنف مناقشتها السـابقة فقال في نفاد صبر:

- أفندم..

- اكتشفت سر اختلافنا.. أنـا حـوت.. وأنـت قوس.. والحوت مائي والقوس ناري..

تذكر ما تقوله وحيدة عنها أنها خوجايه فأوشـك أن يقول لها: عيبك أن أوربا قد أثرت فيك أكثـر مـن اللازم.. ولكنه قال باسما:

والماء تطفئ النار!

وقال ضاحكا:

- نحتاج إلى عربة إطفاء الحرائق..

قالت غاضبة:

- عيبك أنك تهزل وقت الجد..

استفزته كلماتها فقال:

- أنا لا أفهمك.. تحبين عبد الناصر.. وتطلبين مني التخلص من حبه.. ضحكت وتوقفت عن الضحك لتقول له في جدية:

- أنا ضحكت.. وعندما بدأت أتكلم في الجد توقفت عن الضحك.. هذا ما تعلمته في أوربا ألا أخلط الأوراق.. ولكن للأسف أنتم هنا تخلطون الأوراق..

- أنا لا أفهمك يا جلنار..

قالت باسمة:

- لا تلاوعني..

- من علمك هذه الكلمة؟!

- الحواري التي تحبها.. أنت تخلط بين عاطفتك للثورة.. والعاطفة التي تخصني.. لقد أخطأت في التعبير

عندما قلت لك: إما أنا أو عبد الناصر.. لم أكـن أقصـد هذا بالضبط..

- ماذا كنت تقصدين؟!

- أن تعطي لكل شيء حقه .. تعطيني نصيبي.. وتعطي عبد الناصر نصيبه..

قال يدافع عن نفسه:

- لقد تعلمت العدل في الحقوق..

- هل علمك عدل القانون التنازل عن نفسك؟!

صدمته عبارتها فصمت.. قالت..

- وتضعها في جيب عبد الناصـر شـأن كـل المصريين.. أنا أفهم أن يفعل العامة هذا.. ولكـن أهـل الثقافة.. عقل المجتمع..

وفغر فاه مندهشا وهي تقول:

- الذي يتنازل عن نفسه لا يلزمنـي حتـى لـو تنازل عن نفسه لي!!

ووجد نفسه يقول:

- أنا أحبك..

- لا تكفيني هذه العبارة!

- والحب يا جلنار.. حب إلى حد الفناء

- هذا تنازل..

- الفناء في ذات المحبوب.. تنازل؟!

- نعم تنازل..

- هذا تصوف.. وهو قمة الحب

- الصعود إلى القمة نزول بعد ذلك

- أصبحتِ شاعرة

- أنت تعرف أنني واقعية.

ووجد نفسه يقول:

- وأنا محبط..

- محبط من أجل رامي؟!

وأوشك أن يقول محبط من أجل سمير ولكنه لاذ بصمته فقالت:

- تخفي عني شيئا..

- قضية خاصة..

- وتقول إنك تحبني

- هذا جرح خاص أود لو استطعت أن أخفيه عن نفسي حتى لا تهتز ثقتي في ثورتي التي أحبها..

قالت باسمة:

- أعرف .. الأديب الذي عينته الثورة أمينا على الأدب والأدباء قد سرقك.. وأوشـك أن يقـول: كيـف عرفتِ.. ولكنه قال:

- استباح لنفسه أن يضـع اسـمه علـى قصـة جميلة بوحريد التي كتبتها للسينما.. وعندما ذهبت إليـه لأناقشه.. قال لي سأعوضك..

- يرشوك..

- ولكني غضبت ..

- في المقاهي..

-ذهبت إلى المحكمة..

-وهزمك..

- هزمتني ألاعيب المحامين! وكتب مقالة يتهمني بأنني أتسلق على أكتاف المشهورين..

وقال في أسى:

- أنا مهزوم يا جلنار في ثورتي..

قالت في حماس:

- أختلف معك.. الثورة التي قامـت مـن أجـل حقوق الفقراء.. لا يمكن أن ترضى بهزيمتك..

قال منفعلاً

-كان لابد أن تنصفني.. لقـد عرفـت أن عبـد الناصر كان مهتما بهذا الفيلم ليستخدمه في حربه ضـد الاستعمار الفرنسي.. وكان يتـابع خطـوات إعـداده.. وإخباري في الصحف.. ولا بد أنه قد قرأها.. فهو يسمع دبة النملة فلماذا لم ينصفني؟!

- لا بد أن شيئا ما قد حدث..

قال ساخرا:

- عرفت أنهم قد قالوا عني أنني شيوعي..

- أنت شيوعي؟!

- أنا محب للفقراء وأحلم بالعدل الذي يوفر رغيف الخبز لكل إنسان..

- ستجعلني أعيد اكتشافك..

- ولكني لا أحب القيود. والمذاهب قيود.. أحب أن أكون حرا طليقا..

- ولكنك تعتنق أن الكلمة موقف..

- المهم أن يكون الموقف موقفا إنسانيا.. وأنا قضيتي مقاومة القهر في أي مكان حتى لو كان في وطن الشيوعية الذي يوفر الخبز للجميع..

- والقهر الذي تشعر به الآن..؟

- لا أخفي على حبيبتي أن هزيمتي جعلت حريقًا يشتعل في داخلي اسمه التحدي

- ومهر حبي هذا الحريق.

وقال في تحد:

- سأجعله نارا..

وهب واقفا.. قرر أن يسافر إلى شاطئ البحـر.. ويطفئ حريقه في عمل إبداعي يتحدى به كاتب الثـورة الذي سرق قصته.. فقال:

- سأسافر إلى الإسكندرية..

قالت تستفزه ليبدع:

- ولن تعود إلا ومعك مهري.. ومـا أجمـل أن يكون مهري رواية تصبح بعدها روائيا..

الفصل الخامس والعشرون

لم تجد حبة البركة ما تفعله عندما وجدت نفسـها في حجرة نوم زينب هانم وهي مستلقية علـى فراشـها سوى أن تقبل قدميها..

فوجئت زينب هانم بما فعلته حبة البركة فقالت:

- أستغفر ا   يا ابنتي..

تأثرت حبة البركة بكلمة ابنتي فانفجرت بالبكاء.. وكما لو أن البكاء أعطاها الشجاعة لتقول:

- أنا عميلة يا زينب هانم؟!

شعرت زينب هانم بالتعاطف معها فابنها رامـي يحبها.. وقد رفضت أن تقابلها بعد عودتها من بيـروت فقالت معتذرة لها:

- كنت متعبة يا بركة..من أجل هذا لـم- ألتـق بكِ..

انتهزت حبة البركة الفرصة تريد أن تسمع منهـا اعترافها بحبها لرامي فقالت وقد كفت عن البكاء:

- تعرفين أنني أحب رامي..

صمتت الأم.. لا تريدها أن تـتكلم عـن حبهـا لابنها.. تريد أن تحدثها عما حدث فـي بيـروت حتـى قبضوا على ابنها..

قالت حبة البركة في نبرة قوية:

- هل الذي يحب يخون؟!

وجدت زينب هانم نفسها تقول:

- من يحب لا يخون

وكأن حبة البركة قد حصلت على اعتراف منهـا بالبراءة فقالت:

- رامي يتهمني بأنني عميلة؟!

ابتسمت زينب هانم ابتسامة لا معنى لهـا وهـي تقول:

- رامي أصيب بصدمة..

- زرت رامي..

قالت زينب هانم فرحةً وكأنها التي زارته:

- زرتِه..

وأوشكت الأم أن تقول: وسأل عنـي .. ولكنهـا قالت:

– وصحته جيدة؟

قالت حبة البركة:

- صحته عال العال وفل الفل..

وانفجرت بالدموع وهي تقول:

-تصوري يا ماما زينب يتهمني بالعمالة ويقـول لي:

لا أريد أن أرى وجهك؟

اغتاظت زينب هانم من عبارة ماما زينب فقالت في عصبية:

- لولا سفرك ما كانوا قد استطاعوا..

قاطعتها حبة البركة وجعلتها لا تكمـل كلامهـا وتقول عبارة " أن يقبضوا عليه".. قائلة:

- أنت الوحيدة التي تعرفين الحقيقة.. لقد زرتني في بيتي وطلبتِ مني أن أسافر إليه..

وغرق صوتها في الدموع وهي تقول:

- أنت التي ستنصفينني..

وأبصرت في عيني زينب هانم نظرة اتهام فقالت لها:

- صدقيني.. أنا لا أعرف كيف وصلوا إليه؟

لقد خرج من حجرتنا في الفندق بعد أن قال لـي إنه سيلعب معهم اللعبة الأخيرة.. يتزوجنـي فـي هـذه الحجرة..

قالت كما لو أنها قد فوجئت بأنه سيتزوجها:

- يتزوجك؟!

- ونسافر في الصباح إلى إحدى الجزر الأوربية لنمضي شهر العسل.

قالت الأم بسرعة:

- الحمد ..

تضايقت حبة البركة من زينـب هـانم فقالـت غاضبة:

- لقد وافقتِ عندما زرتني في زقاق بركة..

تراجعت الأم وهي تقول:

- لا أقصد.. أخبريني.. ماذا حدث بعد ذلك؟

قالت حبة البركة:

- وأنا منتظرة رامي بفستان الفرح.. جاءني أحد الرجال وأخبرني بأن رامي سيعقد قرانه في مكان آخر.. وأركبني عربة لأجد نفسي فـي طـائرة مسـافرة إلـى مصر..

- وعذبوكِ لتعترفي؟!

- لم أكن في حاجة إلى أن يعذبوني.. من تحـب لا تخفي شيئا في مصلحة الحبيب..

وأبصرت زينب هانم "علي أبـو ريشـة" يقـف أمامهما فقد أدخله سيد أحمد فقالت ضاحكة:

- دائما تجيء على سيرة الحب..

- عروس رامي..

قالت زينب هانم في دهشة:

- كيف عرفت؟!

قال في شيء من الزهو:

- لا شيء يخفى عن عيني الصحفي الشاطر..

وتفحص حبة البركة.. ليست جميلة بالقدر الـذي يجعل سليل الباشوات يقع في غرامها أوشك أن يقول لها: ابنة الطباخ.. ولكنه قال:

- كان لقاء مثيرا!

ونظر إلى زينب هانم وهو يقول:

- الحب..

وضحك وكأنه يضحك من نفسه يلوح دائما بالحب في وجوه العطشى للحب.. وبعد ذلك يجني ما يريد .. الحب في قاموسه مصلحة.. ومصلحته الآن مع زينب هانم.. لقد انتظر حتى نضجت ثمرتها.. وحان الوقت المناسب ليقطفها..

أخرج سيجارا فاخرا وأشعله وقال وهو يتباهى بقدرته على معرفة الأشياء قبل أن يعرفها الآخرون:

- بعد أن طردها رامي من حجرة مأمور السجن.. عاد لزنزانته وراح يبكي ويصرخ ويضر باب زنزانته بقبضة يده.. يريد أن يحضروها له ليعتذر لها فقد أخطا في حق المخلصة الوحيدة له التي تحبه

ويحبها.. ورفض أن يرد على أسئلة المحقق إلا بعـد أن يعتذر لحبة البركة..

ولم تجد حبة البركة ما تعبر به عن إحساسها في هذه اللحظة وهي تسمع كلام أبو ريشة سوى أن تتـرك دموعها لتسيل على وجنتيها وهي تقول:

- يا حبيبي يا رامي..

وقال لها أبو ريشة كما لو كان يصدر أمرا:

- ستزورين رامي..

وقال لزينب هانم حتى يجعلها توافق:

- ونستخدم تأثيرها عليه حتـى يعتـرف بكـل التفاصيل..

قالت زينب هانم في لهفة:

- لو اعترف لن يحاكموه..

- ليس المهم المحاكمة .. المهم الحكم..

- ابني ضحية أولاد الحرام..

قال أبو ريشة في ثقة:

- زينب هانم.. أنت تعرفين أن رامي ابني.. وأنا أعرف ظروفه جيدا.. لذا سأكون محاميه..

قالت الأم وهي تحبس دمعتها:

- صحيح يا علي؟!

قال أبو ريشة في ثقة:

- أنت تعرفين أنني صادق..

تعرف زينب هانم أنه يكذب ويصـدق أكاذيبـه ويذكرها بعد ذلك على أنها حقائق .. فلاذت بصمتها..

قالت حبة البركة في فرحة كما لو أن زينب هانم قد وافقت على زواجها من ابنها:

- وأرتدي فستان الفرح..

قالت زينب هانم غاضبة:

- لعب أولاد..

قال أبو ريشة وقد برقت في رأسه فكرة تحقيـق صحفي مثير:

- فكرة..

قالت زينب هانم مستنكرة:

- تذهب إلى السجن بملابس العرس يا علي؟!

قال أبو ريشة:

- وتضع الطرحة البيضاء على رأسها..

قالت الأم:

- هذه مسخرة..

قال علي:

- فكرة بمليون جنيه..

أوشكت زينب هـانم أن تقـول: تبحـث عـن أمجادك.. ولكنها ابتلعت عبارتها وصمتت وأبو ريشـة يقول:

- سأستأذن السلطة العليا لكي تسـمح لمصـور الجريدة بتصوير هذا المشهد الإنساني غير المسبوق..

قالت زينب هانم:

- لا يمكن..

قال أبو ريشة:

- لقد حدث ارتباك عندما طلب رامي هذا الطلب.. وعرض الأمر على عبد الناصر فوافق على تحقيق رغبته برغم أن رامي قد هاجمه في إذاعة الأعداء..

إنسانية جمال تتجلى في مثل هذه المواقف..

أوشكت زينب هانم أن تقول: عبد الناصر يجيد الدعاية عن إنسانيته بالرغم من أن قلبه لا يعرف الرحمة.. ولكنها تنبهت إلى وجود حبة البركة.. خشيت أن تكون عميلة كما قال ابنها فيضر كلامها رامي فلزمت الصمت.

قال علي أبو ريشة لحبة البركة:

- لا تخبري أحدا..

كادت زينب هانم أن تقول: لن تتـزوج رامـي ولكنها سمعت أبو ريشة يقول بصوت خفيض كما لو كان يذيع سرا:

- هنـاك مـؤامرة علـى الـرئيس ويريـدون معلومات..

الكلام نفسه الذي قيل لها في الفيللا الرماديـة.. فضحك.. وكأنها تقول بضحكتها لعلي:

- لعبة قديمة..

أفصحت ضحكتها عن جمالها – في هذه اللحظة – في عيني " أبو ريشة".. لا يصدق أن هذه الفريسة قد سقطت في قبضته بهذه السهولة .. تعلم من أستاذه الذي لقنه دروس الصحافة.. فن الانتهازية.. وجعله ينبغ فيه.. النجاح في بلاط صاحبة الجلالـة يحتـاج إلـى نسـاء جميلات.. ولكنه لن يقلد أستاذه.. سيكتفي بزينب هانم.. امرأة بكل النساء.. صاحبة خبرة عريضـة فـي فهـم

الحياة.. وما زالت تملك عزبة وقصرا في المنيرة ومالا وفيرا.. يسمح بإقامة الحفلات والالتقاء بعيون المجتمـع الجديد ليشق طريقه كالصاروخ.. عندما التقي بهـا فـي عزبتها في الحفل الذي أقامته في أيام الثورة الأولـى.. وجد فيها ضالته.. ولكنه فوجئ بالسيد الشرقاوي يسـبقه إليها ويخطفها من فمه.. ومن عادته ألا يقاوم الريح وهي عاتية فانتظر حتى هدأت وأثار الدنيا علـى الشـرقاوي دون أن يشعر حتى طلقها.. وجاء ابنها فـي صـندوق ورجمتها المنيرة بالحجارة ووصلتها ورقـة الطـلاق.. ووجد فرصته ليظهر كفارس بعد أن انفض الناس عنها.. ويفاجئها بالحب والرغبة في الزواج منها .. ولكنه وجـد نفسه يتردد يخاف أن تطلب مهرها الإفراج عن رامي.. وهذا ليس في استطاعته.. يستطيع أن يقنع الرئيس ولكن رأفت منصور رجل المخابرات الذي يعاديه ويقـف لـه بالمرصاد لن يتركه يتزوجها أو يفوز بثروتها ولكنـه لا بد من الانتصار عليها فهو يؤمن بأن الصحفي مقعد دائم

في طائرة ولن يتحقق هذا إلا إذا كانت زينب خاتما فـي إصبعه..

وانتصر على تردده عندما سمعها تقـول لحبـة البركة في صوت يتعجل جلوسها معه على انفراد: اذهبي يا بركة واستعدي..

وركز نظرته عليها وهي تترك فراشها وتجلـس بجواره.. وقال:

- زينب هانم.. أنت لا تحبينني!

ارتبكت زينب هانم بالرغم من خبرتها العريضة في التعامل مع الرجال فقالت:

- أنا؟!

- لو كنت تحبينني لما ارتبكتِ!

قالت وهي مازالت مرتبكة:

- أنا لم أرتبك..

- إذن تحبينني..

تمالكت نفسها وقالت:

- وأنت؟!

قال بسرعة:

- أحببتك منذ أبصرت صورتك منشـورة فـي إحدى المجلات وأنت توزعين الخير على الفقراء..

تذكرت ما قاله حازم للأميرة من أنه قد أحبها من صورتها فأوشكت أن تقول له: تذكرني بالمرحوم حـازم ولكنها سمعته يقول:

- لكل رجل فتاة أحلام..

قالت وهي تضحك ضحكة ساخرة.

- وأنا فتاة أحلام الصحفي النابه..

وأوشكت أن تقول: لماذا لم تتقدم؟ ولكنها صمتت.
قال بنبرة اصطنعت الحزن:

- سبقني الشاطر..

- مدت يدها إلى ورقة الطلاق التي كانـت فـي متناول يدها وقالت:

- طلقني..

قال وكأنه قد فوجئ:

- لا نصيب له في القمر..

قالت ضاحكة:

- تجيد الكلام يا روشه

- الحب يا أميرتي..

- أنت تعرف الحب؟

- أحتج..

قالت ضاحكة:

- يخيل لي أن قلبك لا يضخ دما..

قال بسرعة:

- يضخ مصلحة.. عرفتني جيدا..

قالت في استغراب:

- الحب مصلحة..

قال في حماس:

- هذا تعريفي للحب.. أكبر مصلحة أن أنام الليل وأستيقظ في الصباح على شعاع القمر الراقد بجواري ..

الناس كلهم يرفعون الرءوس لرؤية القمر.. وأنا قمـري أمام عيني .. هل هناك مصلحة أكبر من هذا؟!

- لا أستطيع أن أجاريك في الكلام

- دعيني من الكلام..

قالت له بنظرة نافذة:

- ماذا تريد؟!

- أن أمسك القمر بيدي..

- ذبل القمر يا روشه.. أذبله رامي..

- سيسقيه روشه من نهر الحب..

- صعب ..

- لا شيء يصعب علي..

قالت لتكمل كلامه:

- عاشق..

- أجمل كلمة سمعتها في عمري..

قالت بدلالها:

- بكاش يا روشه..

ستثبت لك الأيام أن روشه لم يكن صادقا مثلما هو صادق الآن

- إذا كنت تحبني حقا..

شعر بأنه قد وقع فيما كان يخشاه.. لا بد من اللعب بالكلمات حتى ينقذ نفسه وقبل أن يقول شيئا قالت:

- يعود رامي..

فوجد نفسه يقول:

- يعود رامي..

- أنت قادر على هذا يا روشه..

شعر بأنه قد تورط.. يهرب من موضوع رامـي الشائك فقال:

- لم يدلعني أحد مثلك.. روشه أجمل اسم دلـع سمعته..

وكأنه قال: دلعيني يا زنوبة.. فضحكت وكما لو أن ضحكتها موسيقى.. تمايل على نغماتها..

بدا لزينب هانم كما لو أنه يرقص فقالت فرحانـة بقدرته على إنقاذ رامي:

- ترقص يا روشه..

- قلبي الذي يرقص يا زنوبتي

- يزقزق كعصفور

وقالت فجأة وهي تتفحصه بإعجاب:

- أنت رجل لم أعرفه من قبل!!

قال بسرعة:

- فاكهة جديدة..

وبعد أن قال عبارته تنبه إلى أنه قد أخطـأ فـي اختيار العبارة المناسبة وهو ملك التعبير فضـحك مـن نفسه وهي تقول:

- وأنا ذواقة يا عنيه!

تصورت أنه ضحك إعجابا بكلمة عنيـه فقالـت سعيدة:

- أعجبك يا روشتي .. أنا ابنة بلد!

قبل يدها وهو يقول:

- ابعدي عن المنيرة هذه الأيام..

- لا داعي لحديث الألم في وقت الحب

ووقفت فاحتضنها.. ولم تقاوم..

الفصل السادس والعشرون

{١}

- ترقص يا روشه؟!

- قلبي الذي يرقص يا زنوبتي..

- يزقزق كعصفور..

أوقف رجل المخابرات التسجيل وهو يقول:

- سأجعله غرابا..

وضحك، كما لو أن ضحكته تحاول إقناعه بأنه قد انتصر على " أبو ريشة" الذي أعلـن عليـه الحـرب.. ضرب بقبضة يده على المكتب ومساعده يقول:

- سقط الغراب في بحر الغرام..

قال رجل المخابرات رأفت منصور بغيظه:

- ما زال عصفورا ينتقل من شجرة إلى شجرة.. يصعب اصطياده..

- يسقط واقفا دائما يا فندم..

- ولكن هذه المرة يختلف عن المرات السابقة..

- المرأة..

- زينب هانم..

- أين ملف الهانم؟

ناوله مساعده الملف .. قلب أوراق ملفها وهـو يقول:

- نقطة ضعفه..

- يريدها أن تصبح مصدر قوته..

- عقد صفقة..

وكأنه يحدث نفسه.. عزبة وسراي ومال وفير وامرأة ذات نفوذ.. في مقابل رامي

قال المساعد في حماس:

- لو علقنا رامي على حبل المشنقة لانتهى الأمر..

نظر رأفت منصور إلى مساعده يتأمله وهو يقول:

- لا بد أن يحدث هذا.. أبو ريشة يا فندم من غير زينب لا نقوى عليه فماذا لو تزوجها..

وقال المساعد ساخرا:

- روشه يتزوج زنوبة..

قال رأفت منصور وقد وضح على وجهه شـيء من الإحباط:

- ولكن الرجل لا يحب الدم.. وخاصة في أمـر يخصه..

- نقنعه يا فندم..

ولم يجعله يكمل عبارته ويقول لـه إن ضـعف العقوبة يشجع غيره .. العين الحمرة مطلوبة.. وخاصـة أن كل التقارير تقول إنهم يفكرون في ضربة صاعقة..

قال رأفت منصور وقد فهم ما يريـد أن يقولـه مساعده القريب إلى نفسه:

- صعب يا ابني

قال مساعده عبد المجيد الأعسر:

- لا يصعب عليك شيء يا فندم

- إلا روشه

وكأنه يحدث نفسه:

-يضربنا بالعصا على رأسـنا.. يضـخم فـي تجاوزاتنا.. ولكن لن نتركه هذه المرة.. لقد وقـع فـي المصيدة.. أريد أن أضربه بمطرقتنا على رأسه.. ليعرف أننا لن نسمح له بأن يستغل اقترابه الشديد من القيادة..

قال الأعسر:

- يتصور أننا وراء المنشورات التي هاجمتـه. ووجدها الرئيس على مكتبه..

قال رأفت منصور في غيظ:

- ولكنه قلعة حصينة.. تغزل فيه الرئيس أمـام كل القيادة والمنشور في يده..

قال الأعسر:

- ولكنه سيكون درسا له ليعرف أنه قـد خـرق المعاهدة التي بيننا.. وأمسك رأفت سيجارته بين أصابعه وقال:

- أريد أن أطفئ سيجارتي في عينه..

- تجاوز الخط الأحمر يا فندم .. ملفه تضخم..

- احتفظ به بعيدا .. صوره أكثر من صـورة.. أعوانه كثيرون ولا أستبعد أن يسرقوا ملفه..

- أنا متيقظ لهذه الاحتمال..

- أريد أن نلغم له الأرض في كل مكان يـذهب إليه.. نعرف كل حركة من حركاته

قال الأعسر:

- نسجل له ضربات قلبه.. ونرسلها للرئيس

- ليس الآن.. الوقت المناسب لم يأت.. نخلخـل الأرض تحت قدميه.. أنت تعرف أنه موضع ثقة شـديدة ولا تؤثر فيه كل هذه الضربات الطائشة..

وضرب رأفت منصور على زجاج مكتبه بقبضة يده:

- أريدها ضربة قاضية.. الضـربات الطائشـة تزيده قوة..

- ولكنه يخون الرئيس

- بعلاقته بأم الخائن.. ولكنه قادر على التبرير..

- لقد وضعت..

قاطعة منصور:

- ابعد عنه الآن.. ليس وقت المواجهة معه

- زينب هانم

- فقط

- ومن خلالها سنعرف كل شيء عنه.. لقد وقع في غرامها وقال باسما:

- حكمة سيادتكم.. ابحث عن حجـرة النـوم.. ونحن ندين لكل نجاحاتنا للسرير..

- لا بد أن نهزمه..

وكما لو أن منصور وجد ضالته فقال:

- في فراشها..

- ورامي..

- ملفه لم يكتمل يا فندم.. ما زال فـي القضـية أشياء غامضة.. لو كشفناه سنقدم الدليل على أنـه علـى علاقة بالأعداء.. والمؤامرة..

قال رأفت منصور وهو يفكر:

- لا بد أنه ضالع..

قال الأعسر:

- حجرة نوم زينب هانم ستكون المفتاح..

قال رجل المخابرات:

- أنا متأكد أنه لا يختلف عن أستاذه

قال الأعسر وهو يشعل سيجارة لرئيسه:

- نُدخِل "أبو ريشة" السجن كما أدخلنا أستاذه..

وقال فجأة:

- نغتاله يا فندم

- لا يشفي غليلي.. أريد أن أقتله خلجة خلجة..

- إذا لم نأكله يا فندم أكلنا..

قال رأفت منصور:

- لو استطعنا أن نجد الدليل لكانت الضربة الصاعقة..

وقال فجأة:

- حبة البركة .. ليس غيرها.. أريد أن أراها الآن.

{٢}

قالت زينب هانم مندهشة:

- ماذا جرى؟

قال علي أبو ريشة وهو يركب العربة بجوارها:

- هناك أجهزة تنصت في سراي المنيرة..

- يتنصتون علي؟!

- في حجرة نومك..

أوشكت أن تقول: يتجسسون على الحب ولكنها قالت ساخرة:

- يخافون من الحب

لا يغفرون لي أنني آخذ هذه المساحة

- وما دخل فراشي؟!

- فلسفة رأفت منصور تتركز في حجرة النوم.

- فلسفة خائبة

- ليس خائبا.. نابه أزرق..

- ولكن " أبو ريشة" أقوى منه..

- ولا تنسي أن مهمته حماية الرئيس والمؤامرات كثيرة..

قالت زينب هانم:

- هو الذي خطف حبة البركة..

قال ضاحكا:

- يبحثون عن دليل يشنقونني به..

قالت في غضب:

- قطع رقبتهم..

أوقف العربة وقال:

- زينب.. أنا أحبك..

وتوقع أن يسمع منها: وأنا أحبك.. ولكنها صمتت.. تضايق.. قال وقد وضح الضيق على وجهه:

- لقد نسيت الحب منذ كنت مراهقا.. ولكنكِ ذكرتني بأنني أملك قلبا يمكن أن ينبض.. كنت مقتنعا بأن الحب يتناقض مع المجد.. فنسيت الحب.. ولكن أنت جعلتني أقتنع بأن الحب هو المجد.

قالت في شيء من الغرور:

- أنا مجدك!!

- أنا في عداء معهـم.. لأن تجـاوزاتهم فاقـت الحد .. وتسيء للرجل الذي أحبه، قالت ضاحكة:

- ومن أجل هذا يتنصتون على دقات قلبي فـي فراشي..

قال في استهزاء:

- ينسجون لي حبل المشنقة..

أوشكت أن تقول: الحـب لا يمكـن أن يكـون مشنقة.. ولكن منظر النيل الساحر أخذها .. لقد أوقـف العربة في طريق كورنيش النيل بجوار عربات العشاق.. وبائع الياسمين يضع عناقيد الياسمين حول مرآة السيارة قالت وقد شعرت بالسعادة لأن هذا الذي يمشي في نـار السياسة ولا يحترق.. يحترق بحبها:

- أنت تحبني كالمراهقين..

- أعدت لي شبابي..

- وأنا لا أحب المراهقين..

قال كالمفاجئ:

- ماذا تقولين؟

قالت بدلالها الأنثوي:

- أحب العاشقين..

قال بسرعة:

- وأنا عاشق..

- ما أمارة عشقك؟

- الزلزال الذي أسقط قلعتي الحصينة..

شعرت بالزهو لأنها أيقظت الحب في قلب رجل نسي الحب.. فقالت بدلالها:

- أنت لا تعرفني

- أحاول أن أعرف..

-كانوا يسمونني وأنا صغيرة شطة، أشعوط كل من يلمسني..

- حقل ألغام ضاعت خريطته..

أعجبتها عبارته فضحكت.. وفجأة توقفت عن الضحك لتقول له:

- أنا مملوكية الأصل.. والمماليك اشتهروا بالشخصية المدمرة الوحشية التي تقتل سيدها.. وفي الوقت نفسه تحب أن تلامس أصابعها سطح إبريق جميل

- من أجل هذه الوحشية أحبك الأستاذ..

فهمت أنه يتحدث عن السيد الشرقاوي فقالت ساخرة:

- إلى حد أنه أرسل لي ورقة الطلاق وهو الذي يعبدني..

- لا يمكن أن يعبدك مثلما أعبدك..

- أنت مغرور..

- بعشقك..

- أنا مهري غير كل النساء..

- أنت امرأة بكل النساء..

- مهري العشق..

- وأنا عاشقك..

- بالكلام..

- بالفعل .. أؤمري

- تتحداهم.. وتقتحم السجن وتخرج لي رامي كما لو أنه فوجئ بطلبها فصمت.. قالت:

- أنا امرأة من برج النار.. من نساء الغجر الذي يعتقدون أنهم قد جاءوا من السماء مباشرة.. وأنهم أبنـاء آدم الذين ولدوا فـي الجنـة لهـذا لا يسـتقرون علـى الأرض.. وحشيون يرقصون ويغنون.. لأنهم ليسوا من سلالة البشر!!

- يا غجريتي إني أطلب يدك..

- بشرط أن تمشي فوق السحاب..

وأجيء لك برامي..

- وتعود – الآن- بعربتك إلى حجـرة نـومي.. لنتحدث معا بصوت عال ويسجلون حديثنا ويسمعونه..

وأمسكت يده قائلة:

- حبيبي لا بد أن يكون فارسا..

قال في خضوع:

- أمرك يا امرأة النار..

وكأنها تحلم قالت:

- أريد رجلي أن يمسك جمراتي المشتعلة.. دون أن يصرخ بكلمة آه! وأدار العربة عائدا للسـراي وهـو يقول في تحد:

- أنا هذا الرجل ..

ولم يقل عبارة: حتى لو احترق بالنار..

{٣}

راح رأفت منصور يقهقه.. وتوقف عن القهقهـة فجأة وقال:

- جبان.. ركب عربتها ليتحدث معها..

وضرب بقبضته على المكتب وهو يقول:

- لماذا تركته يتصور أنه قد هرب منا؟!

قال وهو يعتذر:

- كانت مفاجأة:

- أنا لا أعرف المفاجآت.. كل شيء ينبغـي أن نتوقعه في معركته معي.. أريد أن أقتلعه.. وهو يريد..

- لا يستطيع يا فندم..

- يستطيع إذا أغمضنا عيوننا لحظـة واحـدة.. أريد أن أسمع همسته مع حبيبة القلب..

قال الأعسر:

- على كل حال.. وصلته رسالتنا..وليس أمامـه سوى الهرب إلى آخر الأرض..

قهقه رأفت منصور وهو يرشف رشفة من كأس ويقول:

- لا أحد يفر من يوم القيامة..

قال الأعسر ينافقه:

- أعلنت عليه يوم القيامة..

ولوح بقبضته وهو يقول:

- لا ينجو أحد مني

وفجأة قال:

- من أقرب إنسان لزينب؟

- سيد أحمد.. الذين يطلقون عليه الفلاح الفصيح

- أريده..

- نقبض عليه..

- غبي..

- نجنده..

- ذكي..

- يخبرنا بالأشياء الصـغيرة التـي لا تسـجلها أجهزة تنصتنا..

وضرب بقبضة يده على المكتب وهو يقول:

- أريد أن أعرف لون ملابس الهانم الداخليـة.. وأدعو روميو على فنجان قهوة.. وأسرب له بعض هذه التفاصيل الدقيقة.. وأسم بدنه وأجعله يرفع الراية البيضاء ويسلم لي..

- ونعقد صفقة معه.. يكف عن الهجوم..

- وأغمض عيني

- لا يؤمن جانبه يا فندم..

- لست أبله حتى أغمض عينـي ولا أتابعـه.. مجرد هدنة حتى أرتب أوراقي للمعركة الحاسمة.. إمـا أنا أو هو..

- لم نتعود على الهزيمة..

- ولكنه خصم غير مسبوق.. أول مـن يسـمعه الرئيس في الصباح وآخر من يسمعه قبل أن ينام..

ورن جرس التليفون السري الذي تغير رقمه منذ دقائق.. قال وقد هب واقفا:

- الرئيس..

ورفع السماعة وقال بكل خوفه:

- أفندم..

سمع ضحكة أبو ريشة لم يصدق أذنيه.. تصـور أن الرئيس يسخر منه بتقليد ضحكة أبو ريشة فقال:

- أفندم يا سيادة الرئيس

قال أبو ريشة:

- لا تعرف ضحكة صديقك .. أنا أبو ريشة يـا رأفت..

قال منصور وهو يغتصب ضحكة:

- أعذرني.. المسئوليات كثيرة.. جعلتني أنسـى ضحكة صديقي!

قال أبو ريشة:

- كان ا   في عونك..

لم يستطع أن يكتم دهشته فقال:

- كيف عرفت هذا الرقم؟ تغير منذ دقائق..

- تنسى أنني أبو ريشة!

وكما لو أن "أبو ريشة" قد سجل انتصـارا فـي معركته معه فقال:

- اك حق.. أمرك يا زعيم..

قال أبو ريشة:

- سمير عبد الكريم.

قال رأفت منصور وكما لو أنه وجد فرصته ليرد عليه:

الولد الشيوعي الذي كتب سلسلة تحقيقات صحفية بعنوان هنا يسكن الشعب يا وزراء الشعب ولـم تـرض القيادة عنها.

- كتب قصة جميلة بوحريد..

قال منصور متخابثا:

- شرين فهمي الذي كتبها

- أريد أن أسألك: هل الرئيس على علم؟

- الرئيس مهتم بمتابعة خطوات إنتـاج الفـيلم.. يريد أن يوجه ضربة به للفرنسيين.. ويفضحهم عالميا..

- ولكن الرئيس لا يرضى بظلم شاب

- المصلحة العليا يا صديقي.. ومن مصلحته ألا يثرثر في المقاهي.. الأفضل أن يضع لسانه فـي فمـه ويقبل ما عرضوه عليه..

- لا بد أن نقدر ظروف شاب يشعر بالظلم فـي أيام العدل..

لا ظلم في أيام العدل يا باشا وكاد أن يقول لـه: زينب هانم طلبت منك أن تدافع عنه.. ولكنه قال:

- يهمك أمره..

- يهمني أمر العدل

- الثورة عادلة ولا تظلم أحدا

وأنهى أبو ريشة المكالمة دون أن يقول شـيئا.. تضايق منصور وقال لمساعده:

- ابن الغسالة يهمه العدل..

وضحك وهو يقول:

- هذا هو أبو ريشة..عندما أضربه في العمـق يحدثني في أمر تافه.. يكلمني عن ولد شيوعي.. أنا واثق من أن الأمر لا يعنيه بقليل أو كثير.. يريد أن يقول لـي إنه يراقبني كما أراقبه.. يعرف رقم تليفوني الذي تغيـر منذ دقائق..

قال الأعسر في اهتمام:

- التقارير التي وصلتني منذ وقت قصير تقـول إن زينب هانم أحبت سمير عبد الكريم

- زميل ابنها رامي

- وفكرت في الزواج منه

- امرأة متصابية تريد أن تسترد شبابها

- وضحك وهو يقول:

وروشه؟!

- حبها الجديد من أجل إنقاذ رامـي مـن حبـل المشنقة بعد أن تخلى عنها السيد الشرقاوي

ووقف الأعسر فقال له:

- أين أنت ذاهب؟

- أنفذ التعليمات.. الفلاح الفصيح..

- سيد أحمد مهمة صعبة..

- علمتنا باريس أن كل إنسان له نقطة ضعف..

- وما نقطة ضعف الفصيح؟!

- نرجس..

- برافو مدرسة..

- مدرسة أستاذي

- تلميذ نابغ..

الفصل السابع والعشرون

انفجر سيد أحمد بالبكاء..

قالت زينب هانم له:

لا تبك..

قال وكلماته غارقة في دموعه:

- لست خائنا يا ست هانم..

- هذه ليست خيانة..

- لحم أكتافي من خيرك يا ست هانم..

- والست هانم تقول لك.. افعل ما يريدون..

- ماذا تكون خيانة العـيش والملـح سـوى أن أتجسس على الهانم؟!

- اسمعني.. يريدون من يتجسس علينا.. وإذا لم تتجسس أنت سيجدون غيرك.. ومن مصلحتنا أن تكـون أنت.. لأنك تحبني وأمين. ولن تقول سوى الحقيقة. وأنا لا أفعل شيئا يسيء إليهم.

- كرهت نرجس لأنها تدفعني للخيانة..

- تخاف عليك.. لأنها تحبك.. وقد قالوا لهـا إذا لم تستجب لهم سيحاكمونك!.

قال في انفعال:

- يشنقونني ولا أخون .. لقد طلب مني مصطفى الكاشف أن أكون عينه في القرية فرفضت بالرغم مـن أنني أعرف أنه سيرضى عني ويزوجني نرجس..

- أنت تحبني يا سيد..

- أكثر من نفسي وا   أعلم..

- وتعرف أنني مظلومة..

- ا   على الظالم..

- ويريدون أن يشنقوا رامي..

قال غاضبا:

- لا أحد يستطيع أن يشنق بطلا.. رامي بطل .. سمعته يا ست هانم في الراديو وهو يهاجم الدكتاتوريـة فكتبت له رسالة..

- أنت مجنون.. ألا تخاف أن تقع في أيديهم؟

قال في سذاجة:

- وقعت يا ست هـانم.. وأخبـروا نـرجس أن عندهم دليل خيانتي بخط يدي..

قالت زينب هانم وهي تهز رأسها:

- من أجل هذا تبكي نرجس..

قالت غاضبة:

- لماذا فعلت هذا؟

- لم أكتب له رسالتي لأنه رامي سـيدي الـذي أحبه..بل لأني سمعت حديثه الصادر من القلب وأعجبت بشجاعته.. يطالب بالحرية التي وعدت الثـورة النـاس بها.. الناس في مجالسهم يتحدثون مـع أنفسـهم .. ولا يتجاسرون على رفع صوتهم، ولكن سيدي رامي رفـع صوته.. عبر عنهم لتسمعه الدنيا كلها..

واختنق صوته بالانفعال وهو يقول:

- رامي بطل قومي..

قالت باسمة:

- من أجل البطل القومي..

قال بسرعة وقد بلغ انفعاله قمته:

- سأخون نفسي ..

وانفجر بالبكاء.. أمسكت يده بحنانها:

- أنت أصيل يا سيد أحمد..

سمعت خطوات فقالت بسرعة:

- لا تخبر أحدا.

- حتى الأستاذ سمير عبد الكريم.

- حتى سمير عبد الكريم.

- أمرك يا ست هانم.

ورفعت رأسها لتجد سمير عبد الكـريم أمامهـا فقالت في دهشة:

- من أخبرك أننا هنا؟!

- دموع نرجس.

وأشار إلى سيد أحمد وهو يخرج بسرعة فهو لا يريد أن يرى دموعه:

- والفلاح العاشق الذي يبكي..

رغبت زينب هانم في ألا يحدثها عن وجودها مع سيد أحمد في هذا المكان البعيـد عـن العيـون فقالـت بسرعة:

- خسرت القضية؟

وهزت رأسها .. فقد كانـت تتوقـع أن يخسـر القضية التي رفعها على الكاتب شرين فهمي الذي سرق قصته بعد أن أخبرها أبو ريشـة بحديثـه مـع رجـل المخابرات.. فقالت في نبرة حزينة:

- المياه لا تجري في العالي

قال سمير في تحد:

- ستجري.. سأجعلها تجري في العالي.

تذكرت أنه يتهمونه بالشيوعية فقالت بخوفها عليه كما لو كان ابنها:

- ابعد عنهم..

قال منفعلا:

- لقد أرادوا أن يهزموا الثورة في داخلي ولكنهم لم يستطيعوا.. صحيح أن العدل الذي حلمت بـه وأنـا أهتف في شوارع القاهرة باحثا عن العدل، لم يحـركهم ليحموني من الاعتداء على حقي في قصة كتبتها.. ولكني لم أستسلم وذهبت إلى المحكمة.. فتكالبوا علي وخسرت قضيتي.. لأجد شيئا في نفسي أقوى مـنهم يتحـداني..

ويجعلني أكتشف الإنسان الآخر الساكن في أعماقي الذي كنت أحس به دون أن أراه..

قالت بفرحة كما لو كان ابنها:

- اكتشفت الروائي..

- وكتبت رواية ظلمي..

- وسميتها.

- حارة الطيب.

وكما لو أن مجرد ذكره لاسم الرواية الذي استقر عليه منذ وقت قصير جعل منه روائيا مشهورا فقفـزت الأم من مقعدها وأخذته في صدرها كما لو كانت تحتضن ابنها رامي وهي تقول:

- عوضني ربنا عن رامي..

لم يستطع سمير أن يقاوم دمعة فرت من عينيه.

قالت زينب هانم بأمومتها:

- أنت الباقي لي يا سمير..

خشي سمير أن تحول لحظة الفرح إلى دموع فتحدث عن الحب فقال:

- جلنار كانت ملهمتي ..

قفز إلى رأسها ما قالته جلنار لها من أنها عدلت عن الزواج من سمير.. لقد اكتشفت أنه ليس المثقف الذي تريده.. تريد مثقفا لم تلوثه السلطة.. سيحزن لو عرف بهذا وهي لا تريده أن يحزن في لحظة فرحة فلاذت بصمتها وهو يقول:

- لن أخبرها الآن حتى انتهي من اللمسات الأخيرة.. وأقدم لها رواية حارة الطيب هدية حبنا..

الفصل الثامن والعشرون

وجد سمير نفسه يستيقظ مبكرا على غير عادته.. ويحمل حارة الطيب في صدره ويسـرع إلـى سـراي المنيرة.. لقد لام نفسه لأنه استجاب لخوف غـامض لا يعرف مصدره.. ولم يخبر جلنار بأنه قد انتهى من كتابة روايته التي سجل فيها انتصاره على الظلم وهـو الـذي طار من الإسكندرية ليخبرها بذلك.. وبرر هذا لزينـب هانم بأنه لم ينته بعد من لمساته الأخيرة.. شـعر بأنـه ينتصر على خوفه وهو يمسك حارة الطيب بيده ويفـتش عن جلنار بين أشجار الحديقة العالية.. فقد كانـت فـي رياضتها الصباحية.. يستعجل خطواته.. يريد أن يلقاهـا ويقول لها: هذا هو مهر حبنا الذي وعدتك به.. ويحكـي لها كيف كان يجلس على شاطئ بحر الإسكندرية ينتظر جِنيتَه فهو يعتقد أن لكل مبدع جِنية تلهمه فنه.. ووجدها تجيء له في ثوبها الغجري الذي أحبه وتبقى معـه ولا تفارقه لحظة واحدة.. ويجد نفسه يكتب النهار والليـل ..

حتى أن الأمر قد اختلط عليه في لحظة.. لا يعرف مـن الذي يكتب هو أم هي؟! ومن شدة فرحته وفصول روايته تتدفق أمامه على الورق.. شعر بأنها ترقص لـه علـى أمواج سطوره فأغمض عينيه يريد أن يخفي هذه اللحظة بين رموش عينيه عن عيون الزمن.. ليفتح عينيه فيجـد دموعه تسيل على وجنتيه كما لو كانت قطـرات ميـاه البحر.. وتساءل هل كان لا بد من كل هذه المعاناة ليأذن له قدره بأن يرسو قارب عمره على شـاطئ الروايـة.. ويعثر على هذا الشيء الذي كان يحس به في داخلـه.. ولا يمسكه بأصابعه؟

أبصر جلنار تقف أمامه فوجد نفسه يقول بفرحته:

- حارة الطيب يا جلنار..

ولكنه شعر وهي تمسك روايته بيدها كما لـو أن شيئًا قد انطفأ في عينيها.. لـذا عنـدما وجـدها تقـرأ سطورها الأولى بصوت خفيض.. قال لها:

- ارفعي صوتك.. ورفعت صوتها وهـي تقـرأ بداية روايته:

وحيد.. الصمت يحتوي حجرتـه المتواضـعة.. ونسمات منعشة تدغدغ وجهه وهو مستلق على سـريره الخشبي.. وعيناه على المئذنة السامقة التي يرى ملامحها الدقيقة – عادة- في الليالي المقمرة.. عندما يهجع إلـى فراشه.. يشعر أنه في واحة رحبة تلهم قلبه الطمأنينة..

قالت في صوت فرحان:

- صرت روائيا أيها الشاب العجوز.

فهم أنها تعني بكلمة العجوز أن شعره قد شـاب فضحك وكأنه قال بضحكته: أنا ولدت عجوزا..

قال وقد تملكه زهو الانتصار:

- انتقمت

قالت جلنار بسرعة:

- الفن عشق .. وليس انتقاما..

آسف .. أخطأت التعبير..

قالت بفرحتها لأن سمير أصبح روائيا:

- سأمشي في حواري مصر وأقول: سمير أصبح روائيا..

قال وقد تذكر أنه قد اختارها بطلة في الرواية:

- أنت بطلة حارة الطيب..

- سميتني جلنار.

- سوسن.

قالت بدهشتها:

- كيف عرفت أنني أحب زهرة السوسن؟

قال لها:

- اخترتك لتكوني صديقة لأختي..

- أنت رائع.

توقع أن تقول له: من أجـل هـذا سـأتزوجك.. ولكنها قالت:

- من الآن.. أنت صديقي.

وهبت زوبعة بالرغم من أن الجو كان صـحوا.. فوضع النظارة على عينيه ليسمعها تقول دون أن تكـون هناك مناسبة لأن تقول: لقد كفرت بالمثقفين في بلادكم.

كأنها لا تعنيه بكلمة المثقفين فقال:

- المثقفون قد تنازلوا عن دورهم..

قالت له كما لو أنه المسئول عن المثقفين:

- لقد اكتشفت أن مأساتكم في مصر أن المثقفين قد قبلوا أن يخرجوا من سجنهم ليدخلوا سجنا أكبر وهـو السجن الحقيقي.. سجن السلطة.. ويتقاضـون الـثمن.. المناصب العالية والعربات السوداء والمرتبات الكبيرة.

توقعت أن يقول لها: أنـا معـك .. ولكنـه لاذ بصمته.. قالت لتجعله يتكلم:

- المثقفون عندما يقبلون هذا فـإنهم يصـبحون عبيدا للسلطة.. وبدلا من أن يكونوا عقلها الواعي الـذي يبصرها وينقذها إذا تجاوزت يصبحون من حملة المباخر يبررون لها.. وهذه الكارثة.

ابتسم ابتسامة لا معنـى لهـا.. اغتاظـت مـن ابتسامته فقالت في غضب:

- عقل الأمة عندما يسقط في العبث الذي اسـمه أهل الثقة وأهل الخبرة.. فعلى الوطن السلام.

وظل باسما.. قالت له كما لو أنها تعاقبه على أنه ظل مبتسما:

- عندما أتزوج.. سأختار فلاحا ثقافته.. الأرض والشمس والهواء النقي غير الملوث والفطرة السليمة.

وكأنها أشعلت حريقا في نفسه فأراد أن يسـتغيث فقال:

- أين زينب هانم؟!

قالت باسمة:

- مريضة..

- أريد أن أراها..

- لا تقابل أحدا..

تصور أنها لا تريد أن تجعله يقابلهـا حتـى لا يشكوها لها فقالت:

- أريد أن أخبرها بأنني طلبت زيارة رامي..

قالت كما لو كانت تخبره بخبر عادي.

- رامي سـيحاكم محاكمـة عسـكرية بتهمـة الخيانة..

قال في فزع:

رامي؟!

- وسأحضر المحاكمة..

- وأين وعد " أبو ريشة"؟

لم يجد سمير ما يقوله سـوى عبـارة: رامـي يحاكم.. لا يمكن.. وراح يكررها أكثر من مرة.

قالت جلنار:

- أبو ريشة أخذ وعدا بتخفيف الحكم.

وجد نفسه يقول:

- رامي يعدم وأنا أجلس على شاطئ البحر أكتب رواية..

قالت غاضبة:

- رامي لم يعدم..

قال منفعلا:

- لا يمكن أن يكون عدل الثورة..

وألقى بالرواية من يده وهو يقول:

- ما جدوى العدل؟!

وصمت، وكأنه قال بصمته: العدل الذي أجسده في روايتي..

قالت جلنار:

- لا تجعلني أغضب منك.. لا أحب المهزومين.. رامي اختار معركته وانتصر..

قال مذهولا:

- الموت انتصار؟!

- نعم.. عندما نريده ونختاره بوعينا..

- بصراحة.. أنا لا أفهمك..

- وأنا لم أعد أفهمك أيها الروائي العجوز.. تعطيني الدليل على أني على حق..

قال منفعلا:

- أي حق؟

قالت بلا انفعال:

- لا أستطيع أن أعيش مع رجل لا يـرى فـي الموت الذي يختاره بإرادته انتصارا.. قالت، كمـا لـو كانت تحدث نفسها:

- سأختار فلاحا لم تلوثـه السـلطة وأتزوجـه وأسافر معه إلى السويد.

وجد نفسه يقول غاضبا: السويد.. كمـا لـو أن الأمر يتعلق بسفرها للسويد لا لاختيارها لفلاح تتزوجه.. قالت:

- لأنهم يعرفون في السويد.. كيـف يختـارون اللحظة التي يتركون فيها الحياة..

ووقفت كما لو كانت ذاهبة الآن لتختـار الفـلاح الذي ستتزوجه وتسـافر معـه إلـى السـويد.. أراد أن يستوقفها فقال:

- أتظنين لحظة اختيار مغادرة مسـرح الحيـاة قوة..

- شجاعة يا صديقي..

- بل ضعف..

قالت ضاحكة:

- هذا الأمر ليس المهم الآن..

قال في نبرة غاضبة:

- ما هو المهم الآن إذن؟!

قالت باسمة:

- ألا تنسى أن تعطيني حقـي.. تضـع زهـرة السوسن على الغلاف.. فهي ملهمتك..

وأعطته ظهرها.. واختفت بين الأشجار الكثيفة.. شعر كما لو أن طائر الحب قفز من قلبه وطار واختفـى وأنه أعجز من أن يطير خلفه فقد طار قلبه معها.. شعر بألم لم يعرفه من قبل.. ميلاده كروائي ارتـبط بـالألم.. رامي رفيق عمره يواجه حكما بالإعدام.. والأمل الوحيد له.. وعد من علي أبو ريشة.. وجلنار حبيبته تختار في لحظة انتصار على الظلم فلاحا لتتزوجه.. شعر بدمعـة تفر من عينيه. مد يده يريد أن يمسحها.. لم يجد دمعته.. ضنت عيناه عليه بدمعه.. شعر بأنه مخنوق.. تكـاد أن تتوقف النسمة في حلقه.. هل يموت الآن؟ شـعر بأنـه أعجز من أن يختار لحظة مغادرة الحياة.. ليس شـجاعا كأهل السويد.. ولا بد أن يعيش ليحترق بـالألم ويكتـب فنا!!..

الفصل التاسع والعشرون

قالت وحيدة لسمير عبد الكريم وهي تدخل عليـه في حجرته:

- أنت حابس نفسك في أودتك الضـلمة.. افـتح الشبابيك.. خلي الشمس تدخل علشان تشوف مصر فـي حقيقتها.. الناس بترقص في الشوارع من الفرح.. الجيش ماشي في الشوارع.. رايح إسرائيل يخاص تارنا وتـار العرب.. ياما نفسي أشوف يوم فيهم..

وانفجرت باكية..

نظر سمير إليها في دهشة.. قالت بـدموعها: - أنت مستغرب يا سي سمير.. أنت تعرف وكستي اللي أنا فيها.. سببها إيه؟ اليهود قتلوا أبويـا فـي حـرب ٤٨.. وسبني صغيرة.. ولطمتني الحياة. مرة أشتغل غسـالة.. ومرة بلانة.. وأغني شـوية وأرقـص شـوية.. بقيـت

عالمة.. أبويا لو كان عايش كان موتني.. كـان راجـل صالح وحافظ كلام ربنا وكان عاوزني أتعلم.. مش لـو كنت اتعلمت.. كنت بقيت..

قاطعها سمير مجاملا:

- أنت متعلمة وفاهمة الدنيا.

- كان نفسي أبقى زيك.. أشتغل في الجرانين..

قال ضاحكا: أنت صحفية المنيرة.. جيه تقوليلي الأخبار..

- وأطلع في التليفزيون وأتكلم زيك..

فقال ساخرا:

- وتكتبي قصة ويسرقوها منك.

- وا   ما أنا عارفة ايه الحكاية؟ ثورة ايه اللـي تخلي الكبار بتوعها يسرقوا الصغيرين..

وقالت بدلعها:

- يفتح ا .. أنا مش لاعبة..

قالت وحيدة هذه العبارة الأخيرة وسـمير يفـتح الراديو وصوت عبد الناصر يملأ الحجرة وهـو يهـاجم الأمريكان.. فزغردت وهو يقول:

- الحرب يا وحيدة.

قالت تهز جسدها كما لو كانت سترقص:

- منصورين إن شاء ا يا سي سمير..

وتطلعت إلى صورة عبد الناصر التي يعلقها في صدر حجرته وقالت:

- معلم ولا كل المعلمين..

شعر سمير بالخوف .. لم يستطع أن يكتم خوفـه فقال:

- أنا خائف..

- خائف من إيه يا سي سمير؟!

- من الذين حول عبد الناصر..

لم تفهم ماذا تقصد بعبارته فقالت:

- افتح الشباك عشان الخوف يبعد..

ولم تنتظره حتى يفتح النافـذة وفتحـت النافـذة فدخلت أشعة الشمس.. فقالت:

- شوف الدنيا منورة أزاي..

أوشك أن يقول لها: منورة بالناس الطيبين اللـي زيك ولكنه سمعها تقول:

- نسيت اللي كنت جيالـك عشـانه.. الفرحـة نستني.. زينب هانم عوذاك.. قالتلي ما تسيبيهوش إلـلا اما تجيبيه.. يا ولداه وحدانية.. وأخبار رامي ما تسرش.

ومالت عليه وكأنها تخبره بسر:

- يمكن عـاوزاك عشـان السـت الصـغيرة.. الخوجايه بتحبك يا سي سمير.. مـا يغـركش الكـلام بتاعها.. يا عيني عليها.. دي خست النص.. رجيم ايه ده اللي بتقول عليه.. دا الحب يا سي سمير.. الواحدة منـا لما تقول ما بحبش تبقى بتحب.

أوشك أن يقولها: جلنار ليست مثلك.. عواطفهـا ساخنة.. جلنار اتربت في أوربا وأوربـا بـاردة تعلـم الواقعية حتى في الحب.. ولكنه صمت.

وتذكر أنه ينبغي أن يذهب بلا إبطاء إلى المجلـة فقد أصبح مديرا للتحرير وعليه أن يغيـر موضـوعات المجلة لتناسب الموقف المشتعل فقال وهو يقف:

- ليس الآن وقت الحب.. هذا وقت الحرب..

(٢)

قال له رئيس التحرير في اهتمام.

- قاعدة انشاص الجوية تريد أن نقيم لها حفلـة ترفيهية ندعو لها بعض الفنانين..

قال سمير في اندهاش:

- نقيم الآن حفلة في قاعدة عسكرية؟!

- هذا ما طلبه القائـد مـن زميلتنـا المحـررة العسكرية.

- نحن في حالة حرب..

- هذا عمل وطني.

ولما بدا على وجه سمير عدم الاقتناع قـال لـه رئيس التحرير:

- جمال عبد الناصر ألقى بالقفاز في وجه إسرائيل وما وراء إسرائيل. وهذه فرصتنا.. لتلعب المجلة دورا.. ندعو عددا من الفنانين.. ونصحبهم إلى القاعدة.. ويغنون للطيارين الساهرين.. ونصورهم وننشر صور الحفلة سيكون سبقا صحفيا عالميا.. تنفرد به المجلة.. الأبطال يحتفلون بالنصر القادم..

قال سمير:

- دع الزميلة تدعو الفنانين..

- لقد رفضوا الاستجابة لدعوتها.. لذا اخترتك لدعوة الفنانين؛ فأنت على علاقة طيبة معهم.

شعر رئيس التحرير أن سمير عبد الكريم غير مقتنع بإقامة الحفلة فقال له:

- لا نستطيع أن نقول "لا" في زمن الحرب..

قال سمير متعجبا:

- نقيم حفلة في قاعدة عسكرية والحرب متوقعة بين لحظة وأخرى.. ورفع رئـيس التحريـر سـماعة التليفون وحدث قائد قاعدة انشاص قائلا:

- سمير عبد الكريم مـدير التحريـر أمـامي.. متحمس للغاية يا سيادة القائد.. لإقامة الحفلة وسـيتولى بنفسه دعوة كبار الفنانين..

وتأجلت الحفلة.. وسعد سمير بهـذا التأجيـل .. فالمفروض أن تلغى ولكنـه فـوجئ بـرئيس التحريـر يستدعيه - بعد أيام- ويخبره بأن الحفلة قد حدد لإقامتها ليلة ٥ يونيه.. وأن سيارات القاعدة ستنتظر أمام معهـد الموسيقى لنقل الفنانين. وسيكون في صحبتهم... فالقائـد في انتظاره..

وفوجئ سمير عبد الكـريم براقصـة مشـهورة تركب معه في العربة.. فنظر إليها .. ففهمت أنه يسألها من الذي دعاها فقالت ضاحكة:

- أنا صديقة القاعدة.. أحضر كل حفلاتها..

(٣)

ووقف قائد انشاص يخطب:

- لولا أن الزعيم جمال أعطى العالم كلمة بأنه لن يكون البادئ بالهجوم لكنا قد هجمنا وكسرنا عظامهم.. ولقنا إسرائيل درسا لا تنساه..

وتلتهب المشاعر ويصفق الجالسون بحرارة..

ويشعر سمير عبد الكريم بأنه يعيش لحظة غير مسبوقة في عمره..

يجلس في انشاص التي طالما سمع عنها حكايات أشبه بالأساطير عن الحفلات الصاخبة التي كان يقيمها الملك فاروق.. وتسبح فاتنات العالم وهن عاريات في حمام السباحة.. يجلس – الآن – أمام هذا الحمام ويأكل لحم الخراف المشوي.. والقائد العسكري الذي قال – منذ

قليل – لولا أن الزعيم قد أعطى كلمة للعالم لكنا قد أكلنا عظام إسرائيل.. يجلس على يمينه.. وعن شماله يجلس بعض الطيارين بكامل ملابسهم استعدادا للطيران في الصباح الباكر.. ورجال القاعدة من العمال والفنيين يجلسون أمامه من الجانب الآخر من حمام السباحة.. ليبدأ الغناء.. والمغني يرتدي ملابس الحرب ويغني مواويله لمصر.. ماذا يكون هذا غير الحلم؟ يمسكه بأصابعه ونسمة انشاص الندية تروح وتجيء حوله.. ترقص نشوانة بخمر الليل الساهر..

وفجأة يسمع رنين جرس طويل ليسود الظلام القاعدة.. ويمتلكه الخوف.. ويحس الجالس بجواره من الطيارين بخوفه فيطمئنه قائلا:

- لا تخف.. أنت في آمن مكان في مصر.. خلفك صواريخ القاهرة والظافر ..

قال سمير باسما وقد أحس بالخطر:

- ا يطمئنك..

لم ير الطيار الذي كان يرتدي ملابس الطيـران استعدادا للطيران في الصباح الباكر في عبارته أنه قـد ازداد خوفا فقال سمير:

- هذا أمر طبيعي.. عندما تسجل قاعدة دخـول هدف معاد.. فإن جرس الإنذار ينطلق في كل القواعـد ويسود الظلام..

ووجد سمير نفسه يقول:

- ننهي الحفلة؟

وتوقع أن يسمع شيئا من الطيار.. ولكنه وجده قد انصرف عنه بالنظر إلى عمال القاعدة الـذين انتهـزوا فترة الإظلام وقاموا من مقاعدهم.. وهجموا على ما بقي من الخراف المشوية وراحوا يلتهمونها فبـدوا لـه فـي

الظلام كما لو أنهم أشباح.. وهـي تفتـرس الخـراف!! تهمهم وهي تأكل..

وبدت لسمير اللحظة عبثية.. كما لو أن الطـائرة المعادية دخلت الأجواء المصرية لتظلم القاعدة.. ويهجم العمال على الخراف .. ويلتهمونها..

تطلع للسماء.. كما لو أنه يريد أن يرى الطـائرة المعادية.. ولكنه أبصر النجوم تتلألأ..

فضحك وهو يرى العمال يعودون إلى مقاعـدهم قبل إضاءة الأنوار.

ويستأنف المغني الذي كان يغني.. الغناء..

وترقص الراقصة..

ويميل عليه قائد القاعدة ليقول له:

- تطير إلى شرم الشيخ؟!

وكانت مدينة شرم الشيخ حديث العالم.. فقد طلب عبد الناصر سحب قـوات الطـوارئ الدوليـة منهـا.. واعتبرت إسرائيل هذا الطلب إعلان حرب..

فقال سمير بلهفة الصحفي لأن يرى المدينة التي هي حديث العالم..

- أطير الآن..

وأمر القائد بإعداد طائرته الخاصة..

وبفرحته أنه سيشاهد المدينة التي يتحدث عنهـا العالم أخبر الذين يجلسون حوله من الزملاء بدعوة القائد وفوجئ بهم يرفضون الطيران لشرم الشيخ ويقـول لـه فنان صديق:

- دعني أعود لأولادي وحياة أبوك..

لن يسافر وحده.. فاقترح علـى القائـد تأجيـل الرحلة للخميس القادم حتى يتم دعوة أكبـر عـدد مـن الصحفيين..

ويتواصل الغناء..

وتتملك نشوة اللحظة أحد الضباط فيصيح فـي الفنان الشعبي الذي كان يغني:

- غن مواويلك يا فنان بنموت..

ويجهش بالبكاء..

وتنتهي الحفلة مع نسمات الصباح..

ويستوقف القائد سمير ومعه بعض الزملاء.. لقد أعد لهم مائدة خاصة.. فبهجة الليلة لا ينبغي أن تنتهـي بسرعة..

وأوغل الليل في حديث النصر القادم..

وعرض عليه أن ينام في الفيللا الخاصـة بـه.. ولكن سمير أصر على أن ينام في بيته..

والعربة تخرج من بوابة القاعـدة.. قـال أحـد الحراس للضابط الذي أمره القائد بـأن يصـحبهم إلـى خارج القاعدة..

- ممنوع يا أفندم..

قال الضابط بثقة!

- سأعود..

قال الحارس:

- ممنوع الخروج يا فندم.. طوارئ يا فندم.

ويشخط الضابط في الحارس قائلا.

- اقفل باب العربة يا عسكري..

وتمضي العربة خارجة مـن القاعـدة.. وفـي الطريق إلى القاهرة.. راح من في العربة من الـزملاء يغنون: سالمة يا سلامة رحنا وجينا بالسلامة..

وغفلت عين سمير لبعض الوقت على فراشـه.. لتوقظه أمه وهي تقول له: الحرب قامت وأنت نائم!!

وهب من نومه مفزوعا.. وبدا له الأمـر – فـي أول وهلة- كما لو أنه حلم وهو يسمع المذيع في الراديو يعلن أن طائرات العدو تتساقط بالعشرات.. قفـز إلـى رأسه صوت القائد وهو يقول سنكسر عظـامهم عنـدما يأمر جمال.. ووجوه الطيارين الذين كانوا على اسـتعداد للطيران في الصباح الباكر وتساءل هل كانت هذه الحفلة خدعة؟ خدعناهم بالغناء والرقص .. وقمنا في الصـباح الباكر وأكلنا عظامهم.. وأكل لقمة من الإفطـار الـذي أعدته أمه.. ومضغها على السـلم وهـو ينـزل، كأنـه يجري.. شعر أنه قائد في معركة لـيس فـي موقعـه.. اخترق المنيرة بسرعة متجها إلى مجلته القريبة.. أبصر

الناس يلتفون حول أجهزة الراديو في المقاهي وأكشـاك السجائر.. يستمعون إلى أعداد الطائرات الإسرائيلية التي تتساقط .. ويهللون كلما أعلن الراديو عن رقم جديـد.. وكما لو أن الناس قد تحولوا إلى طوفان مـن المشـاعر الفياضة.. فتملكته رغبة في أن يحكي لهم أنه قـد شـهد بداية النصر في حفلة انشاص.. فقد جلس فـي قاعـدة انشاص الجوية في الليلة الماضية ونسور الجـو حولـه وخلفه القاهرة والظافر.. ولكن الناس لم يكن يريدون أن يستمعوا إلا لصوت الإذاعة المجلجل الذي يعلـن عـن طائرات جديدة تتساقط كما لو كانوا في سباق النصـر.. ليصبحوا فراعنة.. يمسكون السماء بأيـديهم ويقطفـون النجوم في عز النهار..

وتنبه إلى أن الوقت قد جرى بأكثر مما توقـع.. والمطبعة ينبغي أن تدور بعدد جديد من المجلة.. وترك الناس وهم سكارى بالنصر واتجه إلى مجلته مسـرعا.. وعندما دخل مكتبه وزع العمل على المحررين كما لـو كان يوزع السلاح.. ستقاتل الكلمة على صفحات المجلة

كما يقاتل الأبطال في سيناء.. ستكون افتتاحية المجلـة قاعدة انشاص وهي تغني وترقص للنصر الذي تحقـق. طلب من المحررة العسكرية أن تتصـل بقائـد قاعـدة انشاص لتعرف منه نصيب قاعدته من عدد الطـائرات التي أسقطت.. وجاءت المحررة تقول له: القاعدة تقاتـل حتى الموت.. تضايق من ذكر كلمة الموت فقال بصوت عال: لا تذكري الموت.. اذكري النصـر.. قالـت لـه بصوت هامس كما لو كانت تقول سرا: الضـابط الـذي طلب من المغني الشعبي أن يغني مواويله وذكر الموت.. قد مات.. ركب طائرته برغم أن الممر قد دمر واستشهد فوق إسرائيل.. فصاح: بطولة.. اكتبي قصـة الشـهيد ليعرف الناس كيف يموت أبطاله وامتدت يده إلى إذاعـة لندن. تريد أن يعرف ماذا يقولون عن مذبحة الطـائرات الإسرائيلية في سماء مصر فسمع من يقول في شـماتة: جيش ناصر تحطم في ست ساعات!! فقـال ضـاحكا: أغرب نكته سمعتها وقال في نبرة جادة: هكـذا الغـرب يحقد علينا منذ الحرب الصليبية يحـول نصـرنا إلـى

هزيمة!! وأخرس بيده صوت لندن.. وهو يقول: خيانة من يستمع إلى هذه الإذاعة.. ورفع صوت القاهرة عليا وصوت المذيع يجلجل قائلا: جيش الفراعنة يدق أعناق إسرائيل .. فصاح قائلا: ا أكبر.. سيكون هذا عنوان مقالتي.

وفي المساء جاءت أخبار تقول إن الجيش المصري يتراجع إلى الخط الثاني.. فصاح في من حوله: لا بد أنها خطة جديدة.. يتراجع جيشنا ليهجم مرة أخرى ويكسر ما بقي من عظامهم.. الجيش الذي أسقط كل هذا العدد من الطائرات في الصباح لا يمكن أن ينهزم في المساء..

وفي حجرة مكتبه بالمجلة التي تحولت إلى حجرة عمليات .. وطليت نوافذها باللون الأزرق ووضعت خريطة لأرض المعركة على الحائط.. راح يشرح على ضوء الشموع الموقف العسكري كما لو كان قائدا عسكريا!

(٤)

وفي صباح اليوم التالي اكتشفت سمير أنه كان قائدا مخدوعا.. بنى حديثه على أكاذيب وتبين الحقيقة المذهلة.. انهار جيش مصر في ساعات لأن قيادته قد انهارت.. والقائد الأعلى قد انهار على مقعده وهو في غرفة العمليات في صباح المعركة وهو يرى الحقيقة المذهلة أمام عينيه.. وإسرائيل تقيم الاحتفالات.. لقد حقق موشي ديان رغبة الأمريكان في تأديب ناصر الذي تجاسر وقال للأمريكان:

- اشربوا من البحر.. وتكسر قمر المصريين وتناثر فوق رمال سيناء.. وجلس جونسون مع صديقته كما قالت الصحف الغربية يشربان نخب الثأر من عبد الناصر على أطلال قمر المصريين.

وتغرق القاهرة في الظلام.. ولكن شيئا في المصريين قد عودهم أن يجدوا الأمل في الظلام

الدامس .. سيتكلم عبد الناصر.. سيخرج مـن عزلتـه ويتحدث.. ولكن ماذا سيقول؟ وكبرياء المصريين ينزف دما.. والجنود يعودون حفاة.. لا بد من معجزة.. وجاءت اللحظة.. وانحبست أنفاس الناس.. وظهر الرجل علـى شاشة التليفزيون ليعلن أنه المسئول عن كل ما حـدث.. وقرر بالفروسية التي اشتهر بهـا عنـد المصـريين أن يتنحى ولكن الفروسية في الحس الشعبي الأصـيل أن لا يترك الربان السفينة وهي تغرق لا بد أن يبقى فيها حتى تصل إلى بر الأمان.. لا بد أن يبقى الرجل في موقعه.. من جاء بالهزيمة هو الذي ينبغي أن يجيء بالنصر..

وانفجرت شوارع مصر بعبارة واحدة: لا تتنح.. ففطرة المصريين المتحضرة التي ورثوها عند أجـدادهم الأوائل عندما صنعوا أول حضارة في تاريخ الإنسانية.. استوعبت بسرعة أن هدف هذه الهزيمة أن يرحل عبـد الناصر.. بطلهم القومي.. لأنه يقف عقبة أمام الاستعمار الجديد المتمثل في أمريكا..

وبرغم جرح الناس الذي لم يجف نزيفه.. فـإن المصري ارتفع عليه وقرر ألا يمكـن الأمريكـان مـن تحقيق هدفهم..

لقد شرب جونسون نخب هزيمة جيش ناصـر.. ولكنه لن يشرب نخب هزيمة الشعب المصري.. فلم يكن الشعب حاضرا في سيناء.. لذا استطاعت أمريكا التـي حاربت في ثوب موشى ديان أن تهزم الجيش في سـت ساعات!!

ودخل الشعب المصري المعركة..

وفي أغرب خروج في التاريخ.. خرجت الملايين كالطوفان وهي تردد: لن ترحل يا ناصر..

وصنعت هذه الملايين من أجسادهم سـدا عاليـا أمام هدف الأمريكان وناموا في الشوارع حتـى جمـع فارسهم المهزوم نفسه وامتثل لإرادتهم..

وعادوا – في الصباح – إلى بيوتهم بعد أن أعلن انتصارهم في مجلس الشعب علـى شاشـة التليفزيـون ورقص بعض النواب من فرحتهم بالانتصار..

واندهشت الدنيا.. فلم يحدث من قبل أن رقـص نواب شعب في مجلسهم عندما تنهار الدنيا فـوق رءوس شعبهم.. ويصبح الحزن جبلا فوق صدورهم..

شيء لم يحدث من قبل..

(٥)

وسمير عبد الكريم يقف أمـام الحـوض يغسـل وجهه والصابون في عينيه فوجئ بأحـد أقاربـه الـذي أضيرت مصالحه بتأميمات الثورة وهو يقول:

- خيانة:

تصور سمير أن عبد الناصر قد خطـب وأعلـن عن وجود خيانة وجاء ذكره فقال في فزع:

- أعلن عبد الناصر؟!

سمع قريبه يقول:

- الخيانة لا تحتاج إلى إعلان.. واضحة.. نفسها التي حدثت أيام عرابي.. حفلة الذكر .. ودخول الإنجليز في مصر.. هذه المرة اليهود..

واشتعلت عيناه بالصابون وقريبه يقول:

- سيدخلون القاهرة!!

أسرع يمسح الصابون بيده.. يريد أن يطفئ الحريق الذي اشتعل في عينيه وهو يقول:

- لن يستطيعوا..

وكما لو أنه المسئول عما حدث فقال له قريبه:

- مهما فعلتم.. فلن تخفون وجهكم القبيح..

وأسرع يدخل حجرته.. يرتدي ملابسه ليخرج.. في كل مرة كان يزوره قريبه ويهاجم عبد الناصر كان يحاوره ويهزمه.. ولكن في هذه المرة يشعر بأنه مهزوم.. يهرب من هزيمته إلى شوارع القاهرة.. ولكنها ليست شوارع مصر التي مشى فيها والناس يتجمعون حول أجهزة الراديو وهم ينصتون لأخبار تساقط طائرات العدو كالعصافير.. أبصر الناس مهزومين.. سقطت

الهزيمة عليهم من السماء.. لـم تأخـذ أرواحهـم ولـم تتركها.. فراحوا يتلفتون حولهم.. يبحثون عن نسـمات هواء ترد لهم أرواحهم في هذا الجو الخانق من يونيو.. فلا يجدونها .. ولا يجدون ضحكتهم فقد اختنقـت.. ولا يمكن أن يكون عبد الناصر هو قاتل ضحكتهم حتى لـو خطب واعترف بالهزيمة.. فالفارس لا يهزم شـعبه ولا يخنق ضحكتهم .. طعامهم اليـومي.. لا بـد أن أحـدا غيره.. فراحوا ينظرون حولهم بعيون زائغة.. يبحثـون في وجوه بعض عن قاتل ضحكتهم .. كانوا في حاجـة إلى شماعة يعلقون عليها هزيمتهم لتعود النسـمة إلـى حلوقهم.. ويتخلصون من حزنهم الثقيـل الجـاثم علـى صدورهم.. لذا عندما قال أحدهم في المقهى الذي كـانوا يجلسون فيه وقد أذابت الكارثة المسافة بين الناس وبينهم وأصبحوا كما لو أنهم أسرة واحدة: معقول يا رجاله حد يعمل حفلة في ليلة الحرب؟! شعروا بأنه قد عثر على " التايهة" التي كانوا يبحثون عنها.. فقـال بعضـهم فـي

صوت واحد: أيوه صحيح.. وكركر أحـدهم بجوزتـه وقال:

- لا بد من شنق المسـئول عنهـا فـي ميـدان التحرير..

- ولا يدري سمير عبد الكريم الذي كان واقفـا بينهم أن يده قد تحسست رقبته أم لا.. ولكن ما يديـه أن يده قد جذبت مقعدا وجلس عليه.. وراح ينصـت إلـيهم وخيالهم يجعل من حفلة انشاص.. ليلة من ليـالي ألـف ليلة.. ليسمع من يقول:

- الأمريكان..

ليقول الثاني:

- إسرائيل يا صاحبي..

ليقول الثالث:

وإيه الفرق يا رجاله؟!

- طيب احكي..

- بعتوا رجالتهم وعملوا حفلة زي حفلة عرابي.. في انشاص بتاعة الملك.. فاكرنها

- أيوه فاكرنها..

- ودعوا قواد الجيش..

- وطبعا لزوم الحفلة الخمر..

- والرقص والغناء..

- وماتنساش الخرفان المشوية..

- ولما طلع الصبح كانوا خالصين.. مش الحرب قامت الساعة تسعة.. وكركر بجوزته وهو يقول:

- وهجموا عليهم رجالة محمد علي .. وخلصوا على المماليك.. فاكرين مذبحة القلعة..

- مذبحة القلعة ولا حفلة عرابي؟

- إيه الفرق يا رجاله؟

- ساكت ليه يا أفندي.. أنت مش معانا.. مالكش حق..

قال سمير عبد الكريم:

- ليكم حق.. أزاي يتحطم جيش عبد الناصر في ست ساعات وهو أقوى جيش في المنطقة؟

- نورنا يا سيدنا الأفندي..

- أصل مصر خرجت عن طوعهم.. فاكرين أيام محمد علي.. لما كون جيش الفلاحين وحارب..

- عاوزين عبد الناصر يتلم.

- ولكن عبد الناصر فارس زمانه..

- عبد الناصر فوجئ يا رجاله لما راح القيادة في الصبح باللي جرى..

- يا ولداه سقط من طوله!!

ولحقوه بكرسي عشان يصاب عوده..

- وبكى يا ولاد..

- فارس زمانا مايبكيش يا رجاله..

- بينام دلوقتي وإيده على مسدسه.

لأ ما بينامش.. صـاحي.. لازم السـلاح يبقـى صاحي.

أصله بطل تراجيدي..

- يعني إيه بطل تراجيدي يا سي الأفندي؟!

- يعني يبقاله سقطة..

- سقطة إيه يا أفندي؟!

- الغلطة اللي بتقتل..

- لأ .. لأ .. لأ.. فارسنا ما بيغلطش.

- اسمعوني بس.

- أصلة وثق في رجاله خانته .. وما وثقش فيكم يا رجاله مع إنكم بتحبوه...

- بنحبه بس؟!

- وثق في بطانـة السـوء اللـي جريـت ورا العاهرات..

وكركر أحدهم بجوزته وقال:

- وعشان كده عملوله حفلـة.. وهـات رقـص وهزيمة للركب!

وضحك..

- بتضحك يا راجل.

لأ بعيط .. الضحك دلوقتي بقى بكا يا رجاله..

- ملعونة يا بلد!!

- عبد الناصر بيقول..

- كفاية بقى .. لازم أحنا اللي نقول..

وتنبه سمير إلى أنه قد تأخر كثيرا عن الـذهاب إلى المجلة.. فالمطبعة ينبغي أن تدور بالعدد الجديـد لا يذكر فيه كلمة الهزيمة.. فمفتي الصحافة قد أصدر فتواه بأنها نكسة ولا بد من تنفيذ فتـوى المفتـي وإلا اتهـم بالزندقة وأصبح من دعاة الهزيمة فوقف وهو يقول:

- ما تزعلوش دي نكسة مش هزيمة..

وترك المقهى وهو يسمع من يقول:

- أول نكتة أسمعها بعد الهزيمة..

- اضحكوا يا ناس.. هو الضحك اللي انهزم..

(٦)

دخل أحد ضباط الشرطة العسكرية على سـمير في مكتبه وطلب منه أن يتواجد في مبنى المخابرات في الصباح الباكر ليدلي بشهادته في التحقيق الـذي يجـري حول حفلة انشاص.

وطار النوم من عينيـه.. فقـد اسـتولت عليـه الهواجس بالرغم من أن الضابط قال إنها مجرد شـهادة فقد شعر بالخوف.. فالحفلة صارت قضـية رأي عـام. وفي مثل هذه القضية لا بد من تقديم كبش فداء.. ولكنـه وجد نفسه تقول: لن يكون هذه الضحية.. فلقد كان غيـر موافق على إقامتها.. ومساهمته فيها كانت بعد أن اقتنـع بأنها عمل قومي..

وأغمض عينيه ونام.. وفي الصباح الباكر استيقظ ليذهب إلى مبنى المخـابرات ليـدخل علـى المجلـس

العسكري ليقول له رئـيس لمجلـس: سأسـألك سـؤالا واحدا.. وكان السؤال: هل شرب الطيارون؟.

وقال الحقيقة: لم يشرب الطيارون.. وقـد سـأل أحدهم: لماذا لا تشرب؟ فقال لأني سأطير في السادسـة صباحا..

وشعر بأن رئيس المجلس قد ارتـاح لإجابتـه.. وقام وترك المجلس وقد بدا له أنه ذاهب ليخبر أحدا بما قاله.. وسأله بعـض أعضـاء المجلـس عـن بعـض الحاضرين في الحفلة.. وكان حديثهم معه وديا.. وخرج وهم يشكرونه..

وطافت في رأسه أسئلة وهو يخرج مـن مبنـى المخابرات..

لماذا – فجأة – استدعاه رئيس التحرير وأخبـره بأن الحفلة ستقام في ليلة ٥ يونيه بعد أن تأجلت والأخبار تقول إن عبد الناصر حدد للقيادة ٥ يونية لبداية الحرب؟!

ومن هو هذا الرجل الغامض صـاحب اللكنـة الشامية الذي سهر معهم على المائدة الخاصة التي أعدت له وللزملاء بعد انتهاء الحفلة.. وعرف بعد ذلك أنه الذي دعا مطعم شهير لإعداد الحفلة وتولي دفع التكاليف؟!

هل كان جاسوسا.. والحفلة من صنع مخـابرات الأعداء كما تردد في المقهى؟!

الفصل الثلاثون

يريد شيئا ينتشله من دوامة الأسئلة التـي غـرق فيها بعد أن خرج من مبنى المخابرات.. يعـرف أنهـم ينتظرونه في المجلة.. يريدون أن يعرفوا ماذا تـم فـي التحقيق؟. وهو لا يبغي الكلام.. يريد أن ينسـى الحفلـة وأسئلتها التي بلا أجوبة.. انتابته رغبة في أن يسـافر.. يأخذ حقيبته ويسافر إلى الخارج.. ولكنه ليس مجنونا إلى هذا الحد.. يسافر بلا مقدمات.. فماذا يفعل؟ يذهب إلـى سراي المنيرة.. تذكر أن وحيدة قد أخبرته – أكثر مـن مرة.. أن زينب هانم تريد أن تراه.. وقد شغلته الحـرب عن الذهاب إليها.. ولقد عرف منذ فترة أن حكمـا قـد صدر بالإعدام على رامي في محاكمة سرية، لم يسـمح لزينب هانم بحضورها بحجة أن هذه رغبة رامي.. وقد عرف لحظتها أن عبد الناصر سيخفف الحكـم عليـه.. والآن بعد الهزيمة ينتهج سياسة استرضاء الناس.. وأنه سيصدر عفوا عاما عن المسجونين السياسيين وسيشـمل

رامي. ولابد من أن علي أبو ريشة الذي ازداد نفوذه بعد الهزيمة يعرف وقد أخبر زينب هانم التي علـى علاقـة وطيدة به.. يذهب للسراي ليراها ويسمع أخبار رامـي.. لقد أخطأ في حق رامي صديق عمره .. أهمـل متابعـة أخباره مع زينب هانم وهو غير متعود على هذا..

دخل من بوابة السراي ليجد سـيد أحمـد الـذي يلقبونه بالفلاح الفصيح فقال له باسما:

- أهلا بالفصيح..

انفجرت كلمات سيد في وجهه وهو يقول:

- كروانة غرقت في النيل:

ومضت فترة من الزمن غيـر قصـيرة حتـى استوعب أن هناك فلاحة اسمها كروانة وقد غرقت فـي النيل.. وسيد يقول له:

- صاحبة الصوت الجميل..

فقال سمير:

- تذكرتها.. سمعتها تغني مرة..

طفرت الدموع من عيني سيد أحمد.. فقد دفعـت ثمن حبها له.. الغرق في النيل.. وهو يقول:

- غرقت يا سي سمير؟!

وقبل أن يتكلم سمير قال سيد بصوت خفيض:

- الأعرج..

قال سمير في دهشة:

- أي أعرج؟!

- الأعرج أبو سريع السريع الذي جاء من العزبة بحجة البحث عن أبيه المفقود في سيناء..

- لا أعرفه..

نظر سيد أحمد حوله وقال في نبرة قـد وشـت بخوفه:

- مصطفى الكاشف.

- ما علاقته؟

- ولي نعمته.. جاء به من العزبة لينفذ ألاعيبه القذرة بعد أن فشل في أن يجد أحدا في السراي يستجيب له.. فقد عرض علي فرفضت.. وكذلك وحيدة.. فجـاء بالأعرج من العزبة وأشاع أنه قد جاء ليبحث عن أبيـه الذي كان يحارب في سيناء..

- ولماذا كروانة؟!

- كانت مقربة منه.. ويختصها بأسراره فعرفت أنه سيتخلص مني بالسم حتى لا أتزوج نرجس.

ابتسم سمير فقد تذكر أنه سمع أن كروانة تحـب سيد أحمد فقال بسرعة!

- أنا لا أحبها.. أنا أحب نرجس..

- وأخبرت زينب هانم..

- وعرف الكاشف.. وعرفت أنه سيتخلص منها فحذرتها من الأعرج.. ولكنها لم تستمع إلـى كلامـي.. وانتهز أبو سريع فرصة الفوضى التـي حـدثت بعـد الهزيمة وأغرقها في النيل..

- وقبض عليه؟

- هي فين الحكومة؟! البلد من غير ريس يا سي سمير..

- وزينب هانم؟!

- مسكينة.. سجنت نفسها مع رامي..

وكما لو أن سيد أحمد يحدث نفسه وهو يقول:

- ولا أحد يسمع في زمن الهزيمة..

قال سمير:

- ولكن الحرب انتهت..

قال سيد أحمد هامسا:

- وجلنار هانم.

- وما دخلها؟

أراد أن يقول: تحبه .. ولكنه خشـي أن يصـدم سمير فهو يعرف أنه يحبها فقال:

- تحميه..

قال في اندهاش

- تحمي قاتلا.. لا يمكن.. أنا أعرفها..

لم يستطع سيد أحمد أن يكتم كلمة جـرت علـى لسانه فقالها:

- تحبه..

- تحب الأعرج؟!

- وستتزوجه..

تذكر سمير أنها قد قالت له إنها ستتزوج فلاحا لم تلوثه ثقافة السلطة فقال ساخرا:

- هذا هو الفلاح الذي لم تلوثه ثقافة السلطة؟!

- أنا لم أقل شيئا يا سي سمير..

- أنت خائف.. لم أرك من قبل هكذا.. ما الـ ذي غيرك؟.

- هذه السراي اللعينة سرقت مني شجاعتي..

وانفجر بالبكاء وهو يقول:

- جعلت مني جاسوسا..

- ماذا تقول؟!

- أنت لا تعرف؟

- ماذا أعرف؟

- أعفيني من الحديث..

- تكلم..

- لا أستطيع.. زينب هانم تمنعني من الكلام..

وصمت للحظات ثم قال:

-سأخبرك بشرط ألا تخبر أحدا..أنا أتجسس على زينب هانم بأمر زينب هانم..

- ماذا تقول؟!

- سأشرح لك الأمر.. الحكومة تريد من يتجسس على زينب هانم.. فلم تجد غيري.. واستخدموا نـ رجس

للتأثير علي وأخبروهـا بـأنني إذا لـم أسـتجب لهـم فسيحاكمونني كما حاكموا رامي بتهمة الخيانة وعنـدهم الدليل فقد وقع خطابي الذي أرسلته إلى رامي في بيروت أؤيده في الهجوم على عبد الناصر.. في أيديهم.. وخافت وراحت تبكي.. وعرفت زينب هانم فطلبـت منـي أن أستجيب لهم.. فلا يوجد أأمن مني في هذه المهمة..

وضحك ضحكة بلهاء..

وهز سمير رأسه.. كان يعرف أن هناك صراعا بين رأفت منصور رجل المخابرات وعلي أبو ريشـة.. فقال وكأنه يحدث نفسه:

ولكن الصراع قد حسم لحساب أبو ريشة..

قال سيد أحمد فرحا:

- انتصر البيه عليهم..

وسيحاكم رأفت منصور على تجاوزاته..

قال سيد في حماس:

- أنا مستعد للشهادة:

وهز رأسه وهو يقول:

- فهمت الآن .. لماذا لم يعد يقابلني الرجل في مقهى الماوردي..

قال سمير ضاحكا:

- أعفيت من الخدمة..

- ربنا يفرحك يا سي سمير..

- الهزيمة غيرت الدنيا..

- أنا متهيأ لي إن عبد الناصر اتولد من جديد..

- من أجل هذا ينبغي أن تذهب إلى الشرطة وتخبرهم بما تعرفه عن غرق كروانة..

- ونرجس؟.

- لن يستطيع أحد أن يقترب منها..

- الأعرج قادر.. يقتلها.. وأنـا لا أسـتطيع أن أعيش من غيرها.. نرجس روحي..

ليس الحب جبنا يا سيد..

- لقد هددني.. قال لي إن لم أضع لسـاني فـي فمي فسيكون الدور على نرجس..

- لا يستطيع أن يقتل ابنة ولي نعمته.

- أبو سريع يقتل الكاشف نفسه.. لو وقف أمـام طموحه.. الأعرج يريد الاستيلاء على أملاك الهانم..

- لم تعد الفلاح الفصيح..

- صرت الفلاح الأخرس.. انهزمـت يـا سـي سمير..

ووصلهما صوت مصطفى الكشاف في جلستهما في ظل شجرة فقام سيد أحمد وجرى وهو يقول:

- سيقتلني إذا رآني أحدثك.. لقد أصـدر أمـره بمنع الحديث معك..

واختفى سيد أحمد بين الأشجار الكثيفـة.. وقـام سمير ليصعد إلى جناح زينب هانم.

الفصل الحادي والثلاثون

نادت جلنار على سمير وهو يصعد إلـى جنـاح زينب هانم.. أبصرها تجلس مع شاب لفحته الشمس.. لا بد أنه الأعرج الذي حدثه عنـه سـيد أحمـد.. تـردد للحظات.. ولكنه اتجه إليهما فقالت جلنار تقدمه له:

- أبو سريع السريع الأعرج..

لم يستطع سمير أن يكتم ضحكته.. فقالت جلنـار غاضبة:

- ماذا يضحك؟ أليس الأعرج أفضل من الـذين باعوا أنفسهم للسلطة.. وكانت النتيجة هزيمة شعب..

قال سمير وقد فطن إلى غلظته:

- آسف .. لم أقصد..

قالت ولم يزايلها غضبها..

- ليس من التحضر يا سي سمير أن تسخر مـن مواطن شريف ترك قريته وجاء ليقاتل.. ماذا فعلت أنت؟ حضرت حفلة رقص يجمِع النـاس علـى أنهـا سـبب الهزيمة!.

وأشعلت سيجارة وجذبت نفسها وقالت:

- أتعرف لماذا انهزمنا؟ لأنكم تنظرون من عـل لهؤلاء الغلابة؟

استجمع أبو سريع شجاعته.. فقد كان خائفا مـن مواجهة سمير لأنه صاحب حظوة عند الهـانم الكبيـرة ومصلحته ألا يصطدم به الآن فقال يصطنع الأدب:

- الغلابة جنود الثورة الحقيقيون يا أستاذ سـمير وأنا أعرف أنك من رجال الثورة..

وقالت جلنار:

- الغلابة الذين يقاتلون من أجل الحفاظ على الثورة.. فماذا فعلتم أنتم؟

وانتهز أبو سريع وقال في مسكنة:

- لم ندع لمأدبة المكاسب.. ولكن دعينا لمأدبة الموت.. ذهبنا للحرب دون أن يطلب منا.. ومات أبي.. وسأموت في الغد.. مهمتنا أن نموت لنحمي الوطن!..

أعجبت جلنار بكلامه فقالت لسمير:

- أسمعت يا حضرة المثقف ما قاله ابن المسحوقين؟!

قال سمير في اندهاش:

- أنا لا أفهم حماسك..

قالت جلنار ساخرة:

- ستظل لا تفهم حتى تدخل إسرائيل القاهرة..

قال الأعرج وقد شجعه حديث جلنار

- يا أستاذ سمير.. ما دمتم تخافون من الحقيقـة فإنكم ستهزموننا تسمون الهزيمة نكسة وترددونهـا فـي مقالاتكم..

اغتاظ سمير منه.. يتجاسر قاتل كروانـة عليـه ويحدثه بهذه الطريقة فقال له:

- وأنت لا تخاف من الحقيقة.

وأوشك أن يقول له: لا تخاف من أن تـذكر أن الكاشف جاء بك من العزبة لتنفيذ أعماله القذرة وتغـرق كروانة في النيل.. ولكنه سمعه يقول:

- أنا أحب جلنار وجلنار تحبني..

وقالت جلنار في نبرة فرحة:

وسنتزوج..

وجد نفسه يقول:

- مبروك يا جلنار هانم..

ونظر إلى أبو سريع وقال له

- مبروك يا سريع..

قال أبو سريع في تحد:

- أبو سريع السريع الأعرج.. المواطن الذي لم يحضر حفلة راقصة في انشاص.. يا أستاذ سمير..

قام سمير عبد الكريم وذهب بسرعة حتى لا تفر دمعة من عينيه أمامها..

الفصل الثاني والثلاثون

كما لو أن سمير عبد الكريم لم يشـعر بفداحـة الهزيمة مثلما يشعر بها – الآن- وهـو يتـرك سـراي المنيرة دون أن يقابل زينب هانم ويعرف أخبار رامـي وصوت جلنار يرن في رأسه وهي تقـول لـه: ألـيس الأعرج أفضل من الذين باعوا أنفسهم للسـلطة وكانـت هزيمة شعب؟!.

وتمنى في هذه اللحظة.. لو أنه كان في قدراته أن يخرج من جلده ويصبح إنسانا آخر.. لا يعـرف جلنـار ولا يقول له مثل الأعرج: يا أسـتاذ سـمير.. مـادمتم تخافون من الحقيقة.. فإنكم ستهزموننا.. تسمون الهزيمة نكسة، ولكنه شعر بأنه لا يسـتطيع إلا أن يـذهب إلـى مجلته.. فقد كان عليه أن يصدر عددا جديدا من المجلـة يسمي الهزيمة فيه نكسة.. ويعطي للسريع دليلا جديـدا

على أنهم يخافون من الحقيقة.. ودخـل علـى رئـيس التحرير ليسمعه يقول له:

- أين أنت؟ الدنيا مقلوبة عليك:

- ماذا حدث؟

- ما هذا الذي قلته في المقهى؟!

- أي مقهى؟

- المقهى التي خطبت فيه .. أتظن أن الدنيا قـد تغيرت؟.

تذكر حديثه عن الهزيمة في المقهى فقـال بـلا خوف:

- قلت الحقيقة..

- ستظل رومانسيا يا أستاذ.. هذا زمن تسمى فيه الهزيمة نكسة.

- وجد نفسه يقول في انفعال..

- سآخذ إجازة وأسافر إلى الخارج..

قال رئيس التحرير ضاحكا:

- لا تخف.. لن تعتقل.. هناك أوامر مشـددة.. بألا تعتقل الشرطة أحدا وإلا كنت في المعتقل الآن..

قال في اندهاش:

- في المعتقل.

- لقد سـويت لـك الأمـر.. الجماعـة كـانوا غاضبين.. قالوا إنك آخر واحد ينتظر منه أن يهيج الناس على الرئيس في المقاهي..

- أنا متعب..

-ما أخبار جلنار؟

قال يسخر من نفسه:

- تحب أبو سريع السريع.. المواطن الشـريف الذي لم يحضر حفلة راقصة في انشاص..

تصور رئيس التحرير أنه يقول نكتة فضحك وهو يقول:

- أنت أعصابك مرهقة فعلا.. ومن الأفضـل أن تسافر..

قال سمير في نبرة جادة:

- أتعرف لماذا سأسافر إلى أوربا؟ لأعرف لماذا كانت هزيمتنا حضارية؟

قال رئيس التحرير ساخرا كعادته فهو يسخر من كل شيء:

- الحب أصبح بعد الهزيمة حضارة!

تضايق سمير يعرف رئيس التحرير أنه يتضايق من سخريته فقال له في نبرة جادة:

- صحيح أن الهزيمة ثقيلة.. لكن لا ينبغـي أن نجعلها تصل إلى داخلنا..

قال سمير وكأنه يحدث نفسه:

- الهزيمة الحقيقية.. عندما تهزم من الداخل..

الفصل الثالث والثلاثون

(١)

منذ خفف عبد الناصر الحكم على ابنها.. وأصبح سجنا مؤبدا وهي تشعر بأن أيامها صارت سجنا مؤبدا.. وهي تمضي عقوبتها في سراي المنيرة.. تدخل حجـرة نومها لتنام ليمضي يوم من أيام سجن رامـي.. وتأكـل لأنها ينبغي أن تأكل لتعيش لتشهد اليوم الذي سيعود فيه رامي وتراه وهو يدخل عليها من بوابة السراي.. وتأخذه في حضنها.. وتقيم له فرحا غير مسبوق في المنيـرة.. فهي لا تعترف بزواجه من حبة البركة الـذي تـم فـي السجن ونشر أبو ريشة صورته في جريدته.. وتـرقص له كما رقصت في احتفالها بانتصار بورسعيد..

وتمر الأيام .. وأيامها شهور وشـهور.. لتبـدو لنفسها كما لو أصبحت آلة.. تتحـرك كمـا لـو أنهـا

مبرمجة.. لقد خنقت حبها لعلي "أبو ريشة" في داخلها.. فقد حملته مسئولية سجن ابنها.. كان في استطاعته أن يجعل عبد الناصر يعفو عنه.. ولكنه لم يفعل لأنه أناني يخاف أن تتأثر علاقته بعبد الناصر عندما يتشفع لمن تجاسر وسبه في إذاعة الأعداء .. ولم تعد ترد على تليفونات السيد الشرقاوي المكررة.. لا تريد أن تسمع كلمة شفقة فقد أقنعت نفسها بأنها أم كما تقول ابنتها جلنار لها. وارتاحت لسفر سمير عبد الكريم الطويل.. فقد كان وجوده أمامها عبئا عليها،، يذكرها بأنها أم فاشلة.. لم تستطع أن تربي ابنها سمير!

وتشعر بأنها ليست زينب هانم.. بنت أفنديناً.. فعندما كانت تجلس إلى وحيدة تحت تكعيبة العنب وتحتسي معها الشاي وتحكي لها كيف كانت وهي صبية تخرج إلى الليل تعوي كالذئاب وتروض فرس الباشا عندما يعجز الرجال ويعجب بها الباشا ويتزوجها وتصبح سيدة العزبة تجمع الفنانين حولها وتبني سراي المنيرة وتقيم حفلات يحضرها الملك فاروق وتقوم الثورة لتتلقى

مكالمة تليفونية من مجلس الثورة تطلب منها أن تنتظـر بجوار التليفون.. وهم لا يفعلون هذا إلا إذا كـان عبـد الناصر هو الذي سيحدثها.. لذا أرسلت له رسالة تطلـب منه أن يشنقها بدلا من ابنها.. فخفف الحكم علـى ابنهـا وجعله مؤبدا..

فقد كانت وهي تحكي هذا تشعر كمـا لـو أنهـا تحكي حكاية امرأة أخرى.. فهي – الآن امرأة مسـجونة في سراي المنيرة تقضي أيامها جالسـة تحـت تكعيبـة العنب تنظر إلى بوابة سراي المنيرة .. تنتظر عودة ابنها رامي لتأخذه في حضنها..

(٢)

قال سيد أحمد لوحيدة وهو يقاوم دموعه:

-وبعدين يا وحيدة.. هنقعد ساكتين نتفرج علـى الهانم وهي بتضيع من أيدينا.. أنا خايف عليها..

ولم يقو على أن يقول: من الجنان فصمت..

قالت وحيدة بحزنها على الهانم:

- باعملها بهلوانه عشان تضحك.. لكن يا ولـداه الحزن مليها..

- ونسيب الخسيس يتحكم في الأصيل..

- أنت السبب يا عنية..

- خلاص..

- هاتبقى راجل.. يا سيد..

- وستين راجل يا وحيدة..

- وهاتروح تبلغ عن الأعرج وتقول إنه غـرق كروانة في النيل ومش هاتخاف على حبيبة القلب نرجس

- حب نرجس بقى ماوش طعم بقى مر!!

- لازم نخلص من الأعرج.. عشـان نخلـص الهانم الصغيرة منه.. ضحك على عقلها.. أصلها خوجايه مش فاهمه حاجة.. وبكـرة يسـتولى علـى السـراي ويطردنا..

- أنا رايح أبلغ عنه خلاص..

(٣)

قهقة الأعرج وهو ينظر إلى سيد أحمد المقيد في السجن الذي أقامه في مكان خفي في نهاية الغابة وهـو يقول ساخرا:

- ها تبلغ عني يا صاحبي؟.

قال سيد أحمد وهو يقاوم ألمه الذي يشعر به من قيده:

- أيوه ها بلغ عنك .. يا صاحبي!!

اغتاظ الأعرج فصفعه.. قال سيد أحمد:

- بتقيدني وتضربني.. جبان .. لو جدع تفكني ..

- مين قالك إني جدع..

وضحك.. قال سيد أحمد:

- أبو سريع..

- أيوه يا أبو السيد..

- أنت عارفني من العزبة كـويس.. متـربيين سوا..

قال الأعرج ساخرا:

- بس الفلاح الفصيح كان زمان..

- أنا فصيح.. وهاظل فصيح..

- لكن الفصيح ما يخونش العيش والملح..

- أنا أخون؟!.

- بلاش أنا.. خنت الهـانم.. تجسسـت عليهـا للمباحث.. متنكرش.. أنا شفتك بعنية وأنت بتدي أخبـار السراي لمخبر في قهوة الماوردي هاتقول إن زينب هانم هي اللي قالتلك اعمل كده.. ما تضحكش على عقلـي..

مش ممكن تطلب منك أنك تتجسس عليها.. مفيش عقـل يصدق كده وأنا مش غبي يا حدق..

- طيب أنا اتجسست.. وأنت بتجسس عليه ليه؟

ضحك وقال وقد بوغت بسؤاله: أنا؟!

وقال ليخرج من المأزق:

- اسأل وحيدة؟!

- وحيدة مش ممكن تخون..

- أنت أصلك أهبل.. مفيش حـد فـي الســراي ما بيخونش.. كل واحد ليه ثمن..

- حبيبة القلب نرجس..

- أنت واهم.

- يعني شجاع.. تحط قلبك تحت رجليك وتقـف عليه.. طيب أيه رأيك؟ تحط إيدك فـي إيـدي .. أحنـا مصلحتنا واحدة.. أنا ابن فلاح.. و أنـت ابـن فـلاح.. والسراي هي اللي مصت دمنا.. وعبـد الناصـر جيـه عشان ينتقم لينا.. ولكن السراي لسه موجودة.. وعشـان كده انهزمنا.. دا الثورة المضادة لازم نخاص عليها قال سيد أحمد باستغراب:

- أيه الكلام اللي بتقوله ده؟.

وكأن أبو سريع لم يسمع ما قاله سـيد.. فقـال، وكأنه يحلم:

- تبقى ملكنا أنا وانـت.. أنـا أجـوز الهـانم الصغيرة.. وانت تجوز نرجس .. وده مش ها يتحقق إلا لما نخاص على مصطفى الكاشف.. عدونا المشترك.

- نخاص على الرجل اللي خلاك حاجة؟!

- أنا ماليش قلب يا سيد.. أنا قلبي مصـلحتي.. واللي يقف قدمها.. لازم أخلص عليه..

- بس أنا ليه قلب..

- عشان كده أنا مستغرب.. إزاي واحد ابن ناس غلابه ليه قلب وبيحب؟.. ساكت ليه.. اتكلم..

وأردف قائلا:

- أنا حاقد يا سيد .. أنا ابن الهزيمة.. اللي أبويا مشي في سينا حافي.. وجدي ادفـن فـي حفـر قنـاة السويس.. وبكره يقولوا لِيه موتْ عشان سينا ترجـع .. ونموت.. لازم نموتهم الأول هم سبب الهزيمة.. كـذبوا علينا قالوا احنا جايين عشان نخلص على الظلم.. لكـنهم ظلمونا أكتر.. ظلمونا باسم الثورة.. وحرمونا حتى مـن حب كلمة الثورة.. أنت مندهش يا صاحبي.. لازم نعمل ثورتنا هنا.. ثورة الغلابة.. ثورة عبد الناصر الحقيقية.. وعشان كده أنا بامدلك إيدي.. أنا عاوز مخك الكبير يبقى

معايا .. عشان قدامنا شغل كثير.. لازم ننتقم من اللـي رجعوا أبويا من سينا حافي.. عاوز أنتقم للدم اللي سـال من رجلين أبويا في رمال سيناء..

- أنت غلطان في العنوان يا صاحبي!!

- يبقى مش هاتخرج من هنا يا صاحبي .. أنـا كشفت ورقي قدامك وأمامك سكة من اثنين .. إما تبقـى معايا.. وإما تقعد لغاية ما يظهرلك صاحب..

وضحك الأعرج ساخرا وهو يقول:

- وابقى قابلني لو ظهر لك صاحب!

وقال في محاولة أخيرة:

- أنت فقير يا سيد مـالكش صـاحب.. وعبـد الناصر أبو الغلابة مات..

قال سيد أحمد في غضب:

- متقولاش على عبد الناصر مات.

- مات لما انهزم يا عبيط .. وبكـره هاندفنـه.. ونعيط عليه زي النسوان.. بس أنا مش هـاعيط عليـه علشان أنا مخدتش حقي اللي وعدني بيه لما قام بالثورة!! دمعتي خسارة فيه..

الفصل الرابع والثلاثون

عندما أبصرت زينب هانم وهي جالسة تحت تكعيبة العنب المعلم إبراهيم وهو يقف أمامها.. شعرت بالخوف.. فنادت على سيد أحمد بصوت أفصح عن خوفها..

فقال المعلم إبراهيم يطمئنها:

- أنا برهومة يا زينب هانم..

نادت على خادمها مرة أخرى.. فقال لها إبراهيم باسما:

- سيد غير موجود.. وأريد أن أشكوه لك.. في كل مرة أجيء لأزورك يمنعني من مقابلتك ويقول لي أن الهانم لا تقابل أحدا.

رددت في عصبية:

- الهانم لا تقابل أحدا!.

- أنا المعلم إبراهيم أحمد إبراهيم.. أحمـل لـك خبرا..

أشاحت بوجهها عنه، وهي تقـول: لا أريـد أن أسمع أخبارا !.

فقال إبراهيم باسما:

- حتى لو كان الخبر الذي تنتظرينه؟!

ولم يستطع أن ينتظر أكثر من ذلك وألقى بقنبلـة قائلا:

- عبد الناصر أصدر قرارا بالعفو عن رامي..

توقع أن تقفز من مقعدها وتأخذه بالحضن.. ولكنه فوجئ بها تظل جالسة في مقعدها وقد بدا على وجههـا

أنها لم تتأثر بالقنبلة التي ألقاها.. فتضـايق فهـو قـادم ليصرع عدوه اللدود أبو ريشة بقنبلته عندها فقال:

- طلبت من عبد الناصر العفـو عـن رامـي.. فاستجاب لي..

ووضح على وجهها أنها لم تستوعب مـا قالـه فقال:

- عبد الناصر عفا عن رامي يا زينب هانم.

ضحكت. اغتاظ. قال:

- صدقيني يا زينب هانم..

قالت بصوت خفيض كما لو كانت تحدث نفسها:

- لم أعد أصدق أحدا..

قال بصوت عال.. كما لو أن الصـوت العـالي سيجعلها تصدقه:

- لقد استقبلني عبد الناصر ليشكرني على مجهوداتي في حرب الاستنزاف وقال لي: ماذا تريد ؟ قلت: أريد العفو عن رامي.. فقال: لك ما تريد يا إبراهيم.

توقع أن تفرح ولكنه وجدها تبكي.. أوشك أن يقول لها: تبكين في الوقت الذي ينبغي أن تفرحي فيه؟! ولكنه قال لها ليؤكد لها أن عبد الناصر قد قابله وحدثه:

- أرسلت له رسالة تطلبين منه أن يشنقك بدلا من رامي..

سالت دموعها وهي تقول:

- وصلته رسالتي؟!

- وتأثر بها.. وطلب معلومات عنك فعرف أنك مخلصة للثورة..

- عرف أنني رقصت في الحفلة التي أقمتها في سراي المنيرة بمناسبة انتصاره على العدوان الثلاثي..

- واعتقلـوك فـي الصـباح.. وحققـوا معـك واستخدموا أساليبهم القذرة التي يحاكمهم الآن من أجلها..

- قالت بنبرة فرحة برغم دموعها:

- يحاكمهم من أجلي؟!

قال ليسدد الضربة الأخيرة لعلي أبو ريشة:

- وتوقع من علي أن يطلب العفو عن رامي..

- ولكنه لم يطلب..

- لو طلب كان سيصدر قرار العفو.

هزت رأسها قائلة وكأنها تحدث نفسها:

- أعرف أنه لم يطلب..

انتهز الفرصة وقال:

- لا يفكر إلا في نفسه.

وأوشك أن يقول لها: لا أعرف كيـف تحبينـه؟ ولكنه قال:

- لا أعرف كيف يحـب عبـد الناصـر هـذا الطاووس الذي يعتبر نفسه محور الكون..

ابتسمت وهي تقول:

- لماذا طلبت من عبد الناصر العفو عن رامي؟ هل تحبني؟!

قال بسرعة:

- بصراحة لا.

آلمتها صراحته بالرغم من أنها كانت خائفة مـن أن يقول لها إنه يحبها فهي لم تكن علـى اسـتعداد لأن

تدخل في تجربة عاطفية جديدة معه حتى لو جاء بقـرار العفو عن رامي لها..

أبصر الألم في عينيها فقال:

- اعذري صراحتي يا زينب هانم.. أنا فرعـون الهوى وضحك وهو يقول: كما يقول عني عدوي اللدود أبو ريشة وأردف قائلا:

- الدبش يسكن قلبي.. أحب أن أضع الحجر فوق الحجر.. ليرتفع البناء..

وهذا هو كل حبي..

وتذكر قصر الثقافة الذي أرادت أن تبنيـه فـي المنيرة ولم يكمله فقال بسرعة:

- سأكمل بناء قصر الثقافة ونسميه قصر رامي.. وسيكون هديتي بمناسبة العفو..

قالت له لمجرد السؤال.. فلم يعـد أبـو ريشـة يعنيها:

- لماذا تكره أبو ريشة؟!

- لأنه يحقر من شأني.. يقول لي إنت يا تـاجر الدبش الذي لم تقرأ كتابا تملك كل هذه الملايـين وأنـا أنتظر شيكا من ناشر لأسدد ديوني..

وشعر بأن ما قاله لا يكفي ليبرز كراهيته الشديدة له فقال:

- في حفلة عامة أمام عيون المجتمع قـال لـي بصوت عال وأنا أمد يدي لأسلم عليه: غسلت يـدك يـا معلم من التراب..

وطفرت دمعة من عينيه وهو يقول:

- أنا الذي بنيت له الفـيللا التـي يسـكنها الآن ورفضت أن أتقاضـى شـيئا.. قـدمتها لـه كعربـون للصداقة..

ووقف.. وأعطاها ظهـره.. لا يريـد أن تـرى دموعه.. شعرت بالتعاطف معه فقالت له:

- اجلس يا برهومة..

فرح.. أحدثت قنبلته أثرها.. هزم أبو ريشه. لـم يستطع أن يكتم ضحكة انتصاره.. لـذا عنـدما سـمعها تقول: أريد أن تحكي لي ماذا قال عني عبد الناصر؟ قال كما لو أنه أصبح صديقا لها:

- ليس الآن يا بنت أفندينا.. سأحكي لك كل شيء بالتفصيل عندما أحضر لك قرار العفو.. ونحتفل بعـودة رامي .. ونشرب نخب الأيام الجميلة القادمة..

وانطلقت الزغاريد في سراي المنيرة.. زغردت وحيدة عندما أخبرتها زينب هانم بما قالـه لهـا المعلـم إبراهيم من أن عبد الناصر قد أصدر قرارا بالعفو عـن رامي لتصبح زغرودة وحيدة – بعد قليل- زغاريد تملأ السراي.. فقد كانت فتيات السراي يزغردن.. ولم تكتف وحيدة بالزغاريد.. فراحت تـرقص والفتيـات يغنـين الأغنيات الشعبية كما لو كان فرحا شعبيا..

ولم تترك وحيدة.. زينب هانم حتـى شـاركتهن الفرحة وجلست معهن في حديقة السراي .. ولكن كـان إحساس يخالج زينب هانم أنه سيحدث شيء يمنع عبـد الناصر من توقيع قرار العفو عن ابنها.. فتعلقت عيناهـا ببوابة السراي على أمل أن يظهر المعلم إبراهيم..

ويطمئنها ويبدد هذا الإحساس.. وتـرى توقيـع عبد الناصر على قرار العفو بعينيها.. ولكـن الأعـرج ظهر.. وهي تتشاءم من رؤيته.. وأمرها المشدد للكاشف بألا يتواجد الأعرج في مكان في السراي هي موجـودة

فيه.. ووحيدة تعرف هذا فتوقفت عن الرقص واندفعت نحو الأعرج قائلة:

- أيه اللي جابك يا وش الغراب؟ أنت مش عارف أمر الهانم؟.

فاقترب الأعرج أكثر من زينب هانم وقال لها كما لو كان يزف لها خبرا يسعدها:

- عبد الناصر مات..

وكما لو أن الكون قد انهد فوق رأس زينب هانم.. صدق إحساسها حدث هذا الشيء.. مات ولم يوقع قرار العفو عن رامي.. قالت زينب هانم وقد تملكها الهلع:

- أجننت؟!

قال الأعرج:

- أذاعوا الخبر..

وأدار جهاز الراديو الذي كان يحمله بيده فسمعت أنور السادات ينعي للأمة وفاة عبد الناصر.

فدفعت جهاز الراديو ليسقط من يده وهي تصرخ..

اندهش الأعرج.. لقد جرى إليها عندما عرف الخبر.. وتصور أنها ستفرح بسماعه.. فعبد الناصر يسجن ابنها وتوقع أنها ستكافئة بتقريبه منها ويصبح صاحب حظوة عندها، تساعده على الإطاحة بمصطفى الكاشف.. ويحقق بعد ذلك أطماعه في السيطرة على السراي والاستيلاء على أملاكها.. ولكنه فوجئ بأنها تحطم الراديو الذي أذاع خبر موت عبد الناصر..

وتندفع زينب هانم بالملابس التي كانت ترتديها في السراي لتخرج إلى الشارع وخلفها وحيدة.. فأبصرت النساء تولولن في النوافذ.. والرجال يتدافعون من

الحواري والشوارع وهم يرددون : لا إله إلا ا .. عبـد الناصر حبيب ا .. فراحت تلطم خـدها وهـي تقـول لوحيدة التي كانت تبكي:

- لا يمكن أن يموت عبد الناصر!!

حاولت أن تطمئنها وحيدة وتقول لها: لا بد أنه قد وقّع قرار العفو قبل أن يموت..

ولكنها وجدتها قد أغمي عليها!.

الفصل الخامس والثلاثون

فوجئت وحيدة بمصطفى الكاشـف أمامهـا فـي حجرتها.. فاستجمعت نفسها وقالت في تحد:

- أفندم.

قال الكاشف:

- مستغربة.. جاي أعزيك في عبد الناصر.

قال وهو يجلس:

- أعمليلي فنجان قهوة..

وابتسم وهو يقول:

- مش سادة.. أنا قهوتي سكر زيادة زي حبيبتي وحيدة.

وتجاهلت عبارته الأخيرة وقالت:

- الغرب ما يشربوش قهوة في أودة وحيـدة يـا كاشف.

أمسك يدها وهو يقول:

- أنا غريب؟!

جذبت يدها بعنف وهي تقول:

- أنت مش جوزي يا كاشف..

وكما لو أنه وجد فرصته ليقول:

- نتجوز عشان أصبح جوزك.. وتأملها ليـرى تأثير كلامه عليها وهو يقول:

- عشان اشرب قهوة سكر زيادة في أودتك.

أحست بالقرف منه.. ووضح القرف على وجهها وهي تشير بيدها إلى الباب وتقول:

- اتفضل من غير مطرود..

قال في نبرة منكسرة:

- تطرديني وأنا جاي أقول لحبيبتي نجوز.

قالت منفعلة:

- أجوز قاتل؟!

- تسمعين ما يردده سيد أحمد..

- تذكرت أن سيد أحمد قد اختفى منذ أيام فقالت:

- سيد أحمد اختفى يا كاشف..

فوجئ بما قالته.. فقال ضاحكا ليتجاوز المفاجأة:

- لسه ما قتلتهوش..

قالت لتؤلمه:

- مش أنت.. الأعرج صبيك السريع.

قال مندهشا:

- الأعرج!!

قالت ساخرة:

- عزاك يا حبة عيني .. وبقى الحاكم بأمره..

ضحك وقال:

- أنا مصطفى الكاشف يا وحيدة.. جدي الأكبر..

قاطعته قائلة:

- أسطوانة قديمة.. العب غيرها..

- مش مصدقة أن جدي اللي خلا محمـد علـي عمل مصر الحديثة..

قالت في تحد:

لما يكون جدك الإمبراطور

- ليكي حق.. أنا غلبان .. باحب..

- كاشف..

قال بكل حبه:

- نور عنين الكاشف..

- ابعد عن وحيدة..

- مقدرش..

- اللي جده خلا محمد علي عمل مصر الحديثـة يقدر ولا أيه؟!

- ده مش وقت الهزار يا وحيدة أنا بكلام جد.. أنا جاي أقولك.. أنا عاوز أجوزك على سنة ا   ورسـوله.. وهاعوضك عن الماضي.. أنا عارف إنك تعبتي كثير..

- ما كنش ينعز..

-بلاش نسوق الدلال..

- حلمة ودانك أقرب لك..

وهزت وسطها وهي تقول:

- مش وحيدة يا عنية..

- أنا بكلام جد..

- وأنا مابهزرش.

- اطلبي..

- تبعد عني..

- مش هاخليكي تبطلي رقص ولا غنى..

- ما تلفش راسي.. أنا مش طايقه أشوف وشك..

- لما تعاشريني ها تحبيني.

- أحب قاتل يا راجل؟!

- أنا ماليش ذنب في اللي حصل لكروانة.

- ها تقوللي الأعرج؟ . بص في عنيه يا عنية.

- أجمل عيون في الدنيا..

- ابعد عن سكتي..

- مقدرش..

- وفتح عينك كويس

- آكل ملبن..

- الملبن سم..

- نفسي أدوقه..

- بعينك..

- عاوز أموت..

- بعينك برضه..

- إيه رأيك والناس زعلانه على عبـد الناصـر نروح أنا وانتي للمأذون.

- أنا رايحة القسم..

- بتهدديني يا وحيدة؟.

خاف أن يفقدها فقال متراجعا:

- تهديدك زي اللـوز.. وأنـا باحـب اللـوز.. وباموت في اللوز يا لوز..

- يا سم..

- أنا غني.. عندي طين وفلوس كتير..

- يفتح ا ..

- أنا عمري ما حبيت.. ولا عرفت طعم الحب.. وانتي دوقتيني الحب اللي ما عرفتهوش طول عمـري.. حرام عليكي .. كفاية تقل..

- لما تبطل تعذب الناس..

- أنا خلاص تبت..

- ديل الكلب ما يتعدلش حتى لـو علقـوا فيـه قالب..

- حبك توبني.. ويدخلني الجنة.

- شوف يا كاشف .. إن ما كنتش ها تبعد عنـي هابلغ عنك..

قهقه وهو يقول:

- مفيش حكومة يا عنية.. عبد الناصر مات..

- ها تخلي الأعرج يغرقني في النيل.

- مد يده ليمسكها.. فدفعته وهي تقول:

- أنا وحيدة بنت عبد الناصـر.. وجمـال مـا بيموتش يا حبة عيني.

الفصل السادس والثلاثون

انتظرت وحيدة حتى خرج مصطفى الكاشف ونظرت من النافذة حتى تأكدت أنه قد ذهب.. وارتدت جلبابها الأسود .. ونزلت واتجهت إلى قسم الشرطة القريب من بيتها وقدمت بلاغا ضد "أبو سريع" السريع تتهمه بقتل كروانة بإغراقها في النيل وحبس سيد أحمد في سراي المنيرة..

ومشت في جنازة عبد الناصر.. واندهشت من نفسها لأنها لم تبك وهي تذوب في الملايين الباكية تشعر بأن عبد الناصر لم يمت.. تحمله في داخلها .. جعلها ترفع رأسها وتقاوم الظلم..

احتضنت نرجس.. سيد أحمد.. والشرطة تخرجه من سجنه الذي حبسه فيه أبو سريع الأعرج.. في الغابة أمام أبيها مصطفى الكاشف.. ولم تشعر بالخوف..

تمت القاهرة

٢١ يوليه ١٩٩٦